
يوسف السباعي


نادية


الجزء الأول

المـؤلف

أطياف (قصص قصيرة ١٩٤٧)
نائب عزرائيل (رواية ...... ١٩٤٧)
اثنتا عشرة امرأة (قصص قصيرة ١٩٤٨)
خبايا الصدور (» » ١٩٤٨)
يا أمة ضحكت (» » ١٩٤٨)
اثنا عشر رجلا (» » ١٩٤٩)
أرض النفاق (رواية ...... ١٩٤٩)
فى موكب الهوى (قصص قصيرة ١٩٤٩)
من العالم المجهول (» » ١٩٤٩)
هذه النفوس (» » ١٩٥٠)
إنى راحلة (رواية ...... ١٩٥٠)
ميكى العشاق (قصص قصيرة ١٩٥٠)
بين أبو الريش وجنينة ناميش (» » ١٩٥١)
أغنيات (» » ١٩٥١)
أم رتيبة (مسرحية ..... ١٩٥١)
هذا هو الحب (قصص قصيرة ١٩٥١)
صور طبق الأصل (» » ١٩٥١)
بين الأطلال (رواية ...... ١٩٥٢)
السقا مات (» » ١٩٥٢)
سمار الليالى (قصص قصيرة ١٩٥٢)
الشيخ زعرب (» » ١٩٥٢)
نفحة من الإيمان (» » ١٩٥٢)
وراء الستار (مسرحية ..... ١٩٥٢)
ست نساء وستة رجال (قصص قصيرة ١٩٥٣)
هذه الحياة (» » ١٩٥٣)

البحث عن جسد	(روايـة ...... ١٩٥٣)
جمعية قتل الزوجات	(مسرحية .... ١٩٥٣)
فديتك ياليلى	(روايـة ..... ١٩٥٣)
ليلة خمر	(قصص قصيرة ١٩٥٣)
همسة عابرة	(» » ١٩٥٣)
رد قلبي	(رواية فى جزأين ١٩٥٤)
ليال ودموع	(قصص قصيرة ١٩٥٥)
طريق العودة	(روايـة ...... ١٩٥٦)
أيام تمر	(مقالات .... ١٩٥٧)
من حياتى	(» ...... ١٩٥٨)
لطمات ولثمات	(» ...... ١٩٥٩)
نادية	(رواية فى جزأين ١٩٦٠)
جفت الدموع	(» » » ١٩٦١)
أيام مشرقة	(مقالات .... ١٩٦١)
أيام وذكريات	(» ...... ١٩٦١)
أيام من عمرى	(» ...... ١٩٦٢)
ليل له آخر	(رواية فى جزأين ١٩٦٤)
أقوى من الزمن	(مسرحية .... ١٩٦٦)
نحن لا نزرع الشوك	(رواية فى جزأين ١٩٦٩)
لست وحدك	(روايـة ...... ١٩٧٠)
من وراء الغيم	(مقالات .... ١٩٧٠)
أيام عبد الناصر	(» ...... ١٩٧١)
ابتسامة على شفتيه	(روايـة .... ١٩٧١)
طائر بين المحيطين	(رحلات .... ١٩٧١)
العمر لحظة	(قصة .... ١٩٧٣)

إهداء

إلى « نادية » الملهمة ...
أهدى « ناديه » القصة ...
مع كل ما أملك من مشاعر طيبة .

« يوسف السباعى »

مقدمة

مرة أخرى أشعر بمسئوليتى ككاتب يعيش فى فترة مليئة بالأحداث التى تغير مجرى التاريخ فى وطنه ..

ولست أظن الكاتب يمكنه أن يفصل نفسه عما يحيط به .. فإنتاج الفنان عملية استقبال وإرسال .. أو امتصاص وإفراز .. وهو يأخذ مما حوله ليؤثر فيمن حوله .

وعندما كتبت « أرض النفاق » و « وراء الستار » و « البحث عن جسد » و « يا أمة ضحكت » .. كنت أعكس بها ما استقبلت من انفعالات سببها إحساسنا بالفساد والفوضى التى كانت تدمغ حياتنا وتتركنا فى حنق وضيق ولهفة تملأ نفوسنا على شىء يخلصنا من حالة الضياع التى كنا نعيش فيها .

وعاصر جيلنا هذا الشىء الذى كنا نتلهف عليه .. وحدثت الثورة التى أعادت لنا أحساسنا بالكرامة .. ووضعتنا حيث كنا نتمنى دائماً أن نكون .

وأحسست بمسئوليتى ككاتب وضابط عاش فى تلك الفترة التى انتهت بالثورة ، وعانى كل التجارب التى مرت بها وأحس بالانفعالات التى أحس بها أصحابها .. أحسست بمسئوليتى التى تدفعنى إلى تسجيل كل هذه الحوادث والتجارب والانفعالات التى سبقت الثورة وأدت إليها .

وكتبت « رد قلبى » بقدر ما أملك من جهد وقدرة وأمانة ، وقد أكون متعجلا فى كتابتها .. وقد يكون البعد الزمنى الذى يبرز لنا الحوادث بطريقة أوضح وشكل أعم .. لم يتوفر لى أثناء الكتابة .. ولكنى مع ذلك أقدمت على كتابتها .. يدفعنى إلى ذلك إحساس بمسئولية الكاتب .. تاركاً لغيرى ممن قد يتأثر بعدى وممن يتوفر له البعد الزمنى الذى يمكنه من تسجيل صورة أدق ، ورسم شكل أشمل وأوضح . ولعلى أكون قد وفرت له ما يعينه على عمله .

ويبدو لى أن جيلنا من الكتاب قد منحه الله من الأحداث الضخام ما هيأ له زاداً من مصادر الإلهام والانفعال .. فلم تكد تنتهى أحداث الثورة حتى بدأت أحداث التأميم والعدوان والانتصار فى بور سعيد .

ومرة أخرى أحسست بمسئوليتى إزاء الأحداث الكبار التى جعلتنا فى التاريخ شيئاً مذكوراً .. والتى جعلت من الأيام التى نعيش فيها أياماً لها على الزمن قيمة .

وكتبت هذه القصة التي جرت حوادثها فى الفترة التى تلت الثورة ، والتى امتلأت بالحوادث الضخمة التي انتهت ببور سعيد .. مستعيناً على كتابتها بملهمة .. كان لها الفضل الأكبر فى كتابة هذه القصة .

تلك الملهمة هى « نادية » التى لقيتها فى قمم الألب العليا .. والتى لولاها ما عرفت الكثير من تلك المعالم الإنسانية والطبيعية التى سجلتها فى هذه القصة .. والتى كانت بالنسبة لى الدعائم الكبرى التى حملت هذه الأحداث التاريخية التى حاولت تسجيلها.

وبعد . أرجو أن أكون قد حققت بها بعض ما يعوّض علىّ جهدى فى كتابتها ، وما يعوّض جهد القارئ فى قراءتها .. وما يعوّض الملهمة .. عن عرض بعض حياتها .

والسلام عليكم ورحمة الله .

« يوسف السباعى »

(١)

توأمتان

دقت الساعة أربع دقات .. وقفزت « منى » من فراشها فى وثبة بهلوانية قاذفة المجلة من يدها وهتفت بنادية :

ـــ هيا بنا .

وتمطت « نادية » وتثاءبت وأراحت أطرافها فى استرخاء وأجابت وعيناها مسبلتان :

ـــ دعينى أسترح .

ـــ ألن تشاهدى المباراة ؟

ـــ لا .

ـــ ألن تذهبى إلى النادى ؟

ـــ سأذهب بعد الإفطار مع ماما وبابا .

ـــ غبية !! أتعتبرين هذا ذهاباً إلى النادى .. تحشرين نفسك وسط العجائز .. هيا .. قومى .

ومدت « منى » يدها تحاول أن تجذبها من الفراش فصاحت « نادية » :

ـــ قلت لك إنى متعبة .

ـــ أتظلين راقدة هكذا حتى المدفع ؟

ـــ أجل .

ـــ إنك تضيعين عمرك بهذا الصيام .. لماذا لا تفطرين ؟

ـــ ولماذا أفطر ؟

ـــ لأنك عاجزة عن الصيام .

ــ أنا لم أشك إليك .

ــ ولكنك تقضين نصف نهارك راقدة بلا حراك .

ــ كذابة .. هذا أول يوم منذ بدء رمضان .. أرقد فيه .. لأننا تعبنا فى المدرسة طول اليوم .

ــ ولماذا لم أتعب أنا ؟

ــ لأنك مفطرة .

ــ ولماذا لا تفطرين مثلى ؟ أيرضيك أن تدخلى الجنة وحدك ؟

وضحكت « نادية » وأجابت :

ــ سأتوسط لك .. لكى تدخلى معى .

ــ أتقبل وساطتك ؟

ــ ربما .

ــ إذاً لنأخذ معنا « عصام » .. إنى لا أستطيع دخول الجنة بدونه .

ــ ومن أدراك أنه فى حاجة إلى وساطة !

ــ لأنه لا يصوم أيضاً .

ــ ولماذا .. وهو كالعجل ؟

ــ لأنهم يدوخونه فى الكلية الحربية .. هل رأيته بعد أن حلقوا له رأسه ؟

ــ حلقوا لعصام .. لابد أن شكله قد أصبح مضحكا جداً .. لم يكن به شىء سوى شعره .. لست أدرى ماذا دفع هذا الغبى إلى دخول الحربية بعد أن أخذ ليسانس الحقوق ؟

ــ أنا .

ــ أنت ! ولمه ؟

ــ لأنى أريد أن أراه بالبذلة الرسمية .. إنى أحب الضباط جداً .

ــ لأنك هايفة .. وهو أهيف منك لأنه سمع كلامك .

ــ لماذا ؟! إنه سيصبح نائب أحكام .. على سن ورمح .. هل رأيته ببذلة

الكلية ، و « الكاب » ؟

ـــ لم أره .

ـــ فاتك نصف عمرك .

ـــ لمه ؟ .. من يكون ؟ .. جمال عبد الناصر .. أمال لو كان بشعره ؟

ـــ كان فاتك عمرك كله .

وقذفت « منى » بينطلون البيجامة .. وتناولت البنطلون البلوجينز من الشماعة ، ووضعت ساقيها فيه بوثبة راقصة ، ثم حشرت ردفيها فيه وضغطت على « الكبسولة » .. وجذبت « السوستة » ثم أردفت قائلة :

ـــ على أية حال تستطيعين أن تريه اليوم .. إن لديه فسحة وسيحضر لمشاهدتى أثناء اللعب ، ثم نتناول الشاى معاً .

و لم يلق قول « منى » ارتياحاً لدى « نادية » وردت محذّرة :

ـــ لا داعى لهذا الشاى .

والتفتت إليها « منى » متسائلة :

ـــ ولمه ؟

وهزّت « نادية » كتفيها وأجابت :

ـــ أولا .. لأننا فى رمضان .

وقاطعتها « منى » بسرعة :

ـــ لا يهمنى رمضان .

واستمرت « نادية » تقول فى لهجتها المحذرة :

ـــ وثانياً .. لأن الناس ..

وعادت « منى » تقاطع فى حدة :

ـــ ولا يهمنى الناس ..

ـــ إن تصرفاتك يجب ...

ـــ إنى أتصرف بما يرضينى .. لا ما يرضى الناس .. إنى لا أستطيع أن أعذب

نفسى ، من أجل أن أنافقهم وأريحهم . إن تصرفاتى من شأنى وحدى . وأنا أستطيع أن أتحمل نتائجها .

ـــ أنت كاذبة .

ـــ كيف ؟

ـــ لأنك لا تتحملين شيئاً ولأنك تعرفين من الذى يتحمل .

ـــ ماذا تقصدين ؟

ـــ أقصد أنك تعملين العملة ، وتلقين عبئها على غيرك .. إنك تسيئين التصرف .. و « ماما » المسكينة تتحمل النتائج .

ـــ نعم ؟ .. من الذى طلب منها أن تتحمل النتائج .. أنا لست عاجزة عن مواجهة الناس .. إنى أستطيع أن أتحمل لومهم .. وأتحداهم جميعاً .

ـــ إن أحداً لن يلومكِ .

ـــ لماذا ؟

ـــ لأنك طفلة .. ولأنهم يرجعون كل عبثك الصبيانى .. إلى سوء تربيتك .. ولأن أمك الفرنسية .. قد نضحت عليك . لقد سمعت عمتى تقول عنك فى النادى « اكفى الجرّه على فمها تطلع البت لأمها » .

ـــ لو قالت أمامى هذا .. لشتمتها .. أنا لا يهمنى عمتى ولا أبوها ولا أمها .

ـــ ولكن يهمك أمنا .. لماذا تظلمينها بحماقتك ؟! لماذا تساعدينهم على التشنيع بها والحملة عليها .. أنت تعرفين .. كم هى طيبة .. وتعرفين أنها تصوم معنا رمضان.ولماذا تتركينهم يأخذونها بطيشك ويلومونها من أجلك .

ـــ وماذا يهمها منهم .. لماذا لا تقاطعهم جميعاً ؟

ـــ لأنها قد أصبحت جزءاً من أسرتهم .. وهى لا تستطيع أن تفصل أبى عن أخواته وأمه وأبيه .

ـــ إذن لتتحمل شرورهم .

ـــ ولماذا لا تتعقلين أنت . وتتزنين فى تصرفاتك وتقطعين عليهم سبل اللوم ؟

ـــ وماذا فعلت حتى أستحق لومهم ؟
ـــ ألا تعرفين ماذا فعلت ؟
ـــ لا .
ـــ مثلا .. مصاحبتك الدائمة لعصام .
ـــ إنه my boy friend .
ـــ ليس فى تقاليدنا شيء اسمه boy friend هذه صفة لم نعترف بها بعد فى أسرتنا .
ـــ فى الدول المتمدينة يعترفون بها .
ـــ وعندنا نعتبرها انحلالا .. ليس للفتاة الحق فى أن تصاحب مخلوقاً .. يقل عن درجة خطيب .
ـــ وعصام سيخطبنى .
ـــ عندما يخطبك تستطيعين أن تصاحبيه إلى السينما .. وتشربى معه الشاى .
ـــ سأجعله اليوم يخطبنى .. ماذا عندك غير هذا من أدلة طيشى ؟

وقذفت « منى » بجاكتة البيجامة ووضعت ذراعيها فى قميص حريرى خفيف ، وأخذت تشد أزراره على كرتى صدرها الممتلئتين .

وأجابت « نادية » وهى تنظر إلى حلمتيها البارزتين من وراء القميص الخفيف :

ـــ هذا اللبس الذى ترتدينه !
ـــ ما به ؟
ـــ ألا تعرفين ما به !! ألا ترين آثاره فى أعين الناس التى تريد أن تلتهمك وأنت سائرة فى الطريق !! ألا ترين انعكاسه فى وجوه الشبان المحيطين بك فى النادى !

وهزت « منى » كتفيها فى استخفاف .. محاولة أن تخفى ابتسامة رضاء شاعت فى وجهها .. وقالت محتجة :

ـــ وماذا أفعل . إذا كان جسدى هكذا .. وكانت عيون الناس فارغة .

وأجابت نادية :

ـــ لمى جسدك .. وهم يغمضون عيونهم .

ـــ ألمه أكثر من هذا ؟

ووضعت منى كفيها على ردفيها اللتين شدهما البنطلون الضيق ثم سارت تهز وسطها فى حركة راقصة وقالت وهى تضحك :

ـــ أمال لو مشيت كده .. يقولوا إيه ؟

ـــ إنت بنت مايعه .

وانحنت « منى » تفتح أحد أدراج « الشيفونيره » وتساءلت وهى تقلب الثياب التى بها :

ـــ أين الشورت ؟

ـــ ألا يوجد عندك ؟

ـــ لا أثر له .

ـــ لا بد أنه لم يأت من عند « المكوجى » .

ـــ الله يخرب بيته .. دائماً يؤخر « المكوة » .. كيف أستطيع اللعب ؟

ـــ يوجد فى درجى « شورت » .. خذيه .

وفتحت « منى » درجاً آخر وأخذت تبحث فى محتوياته حتى أخرجت الشورت ثم نشرته بين يديها وقالت وهى تزوى ما بين عينيها :

ـــ هذا ليس « شورت » .

ـــ ماذا يكون إذن ؟

ـــ إنه « لونج » .. إنه طويل جداً .. يكاد يغطى الركبتين

ـــ أحسن .

ـــ أحسن إذا ارتدته ماما .

ـــ ولكننى أرتديه فى ألعاب المدرسة .

ـــ ومن قال إنك لست خيراً من ماما !

ـــ ألا بد أن يكشف عن فخذيك حتى يصلح للارتداء ؟

ـــ طبعاً .

ــ أتنوين اللعب أم الاستعراض ؟

ــ كليهما .

ــ يامنى اعقلَى . هل تعلمين أن « الشورت » الذى ترتدينه محل تعليق النادى كله .

وضحكت منى قائلة : ولهذا أرتديه .

وعادت تقلب « الشورت » بين يديها ثم قالت :

ــ على أية حال .. لابد من ارتدائه .. وأعتقد أنى لو ثنيت ساقيه فسيصبح معقولا .

ثم صاحت منادية بصوت مرتفع : ماما .

وأجابتها أمها من الحجرة المجاورة :

ــ نعم يا منى .

ــ أريد إبرة وفتلة .

ــ لمه ؟

ــ لكى أثنى رجلى الشورت .

ــ الإبرة والفتلة فى درج « ماكينة » الخياطة .

وكانت إجابة الأم خليطاً من الفرنسية والعربية المكسرة.وبعد لحظة كانت « منى » قد أتمت تقصير « الشورت » ووقفت تستعرضه أمام المرآة .

وأدارت ظهرها للمرآة وقلبت شفتها السفلى قائلة :

ــ مش بطال .. ما رأيك يا نادية ؟

ــ فضيحة .

وأجابت منى متخابثة :

ــ معك حق .. إنه يحتاج لثنية أخرى .

ــ ولماذا لا تخلعينه .. وتلعبين عارية ؟!

ــ ياريت .. إن سكرتير النادى يطردنى .

ـــ أتخشين فقط سكرتير النادى ؟

وواجهت « منى » المرآة وشبت على أطراف أصابعها .. ووضعت ذراعيها فى وسطها ، وأخذت تستعرض جسدها فى إعجاب أمام المرآة قائلة :

ـــ أرأيت أجمل من هذا جسداً !! أليس حراماً أن يخفى الإنسان مواهبه ؟

ـــ مغرورة وعبيطة .

وأخذت « منى » تتمشى أمام المرآة .. ثم قفزت إلى الفراش بجوار « نادية » واحتضنتها وقبلتها وهى تقول ضاحكة :

ـــ يا ستى العجوز .. أنا لست مغرورة .. إنما أحب أن أغيظك .. لأنى ..

وقطع حديثها .. كحة خفيفة متقطعة .. وبدا القلق على وجه « نادية » وقالت ناهرة :

ـــ منى .. البسى فانلة .

ـــ الدنيا حر .

ـــ البسى الفانلة بالتى هى أحسن .. لأن ماما لن تتركك تخرجين هكذا .

ـــ اسكتى أنت .. إنها لن ترانى وأنا خارجة .

ـــ ولماذا لا تلبسين الفانلة ؟ إنك تعرقين بسهولة .. وإذا هبت عليك أية نسمة .. سيصيبك البرد .. وأنت تعرفين أن صدرك لا يحتمل .

ـــ لقد شفيت تماماً .

ـــ لا تكونى عنيدة يامنى .

ـــ إنى أكره الفانلة .

ـــ لماذا ؟

ـــ لأنها تضغط صدرى .. « وتبططه » .

ـــ أفى سبيل العياقة .. تعرّضين نفسك للبرد ؟

ـــ أولا .. ليس هناك برد .. وثانياً لا أستطيع أن أبدو أمام الناس وكأنى طفلة بلا صدر .

ــ البسى تحتها « السوتيان » .

ــ لن ألبس شيئاً . اسكتى أنت ولا تتدخلى فيما لا يعنيك .

ــ إذا لم تلبسى الفانلة .. سأخبر ماما .

ونهضت « نادية » من الفراش وفتحت درج « منى » .. وأخرجت الفانلة .. وقذفت بها إليها .. قائلة : ــ ألبسى .

وأمسكت « منى » بالفانلة فى ضيق وقالت :

ــ أتظنين نفسك وصية على .. أنت لست أكبر منى .

وضحكت « نادية »قائلة : ــ بل أكبر منك .

ــ لقد نزلنا سوياً .

ــ بل نزلت قبلك .

ــ ببضع ثوان .

ــ بضع ثوان .. أو بضع سنين .. مادمت قد نزلت قبلك .. فأكون أكبر منك .

ــ ومن أدراك أنك نزلت قبلى ؟

ــ اسألى ماما .

ــ ومن أدرى ماما .. إنها قطعاً كانت فى غير وعيها .

ــ لا بد أنهم قالوا لها .

وكيف استطاعوا أن يميزوا بيننا .. إنهم حتى الآن يخطئون فينا .. لقد شكرتنى مدرّسة الفرنساوى بالأمس على ما فعلته أنت .

ــ على العموم . أنا أكبر .. أو أنت أكبر . المهم أن تلبسى الفانلة .

ــ سألبسها بشرط .

ــ ما هو ؟

ــ أن تذهبى معى إلى النادى .

ــ أنا متعبة يا « منى » وصائمة .

ــ سلى صيامك .

ـــ ليس هناك ما يسلى .

ـــ حتى مشاهدة الكروكيه ؟

وبدا الاضطراب على « نادية » وأجابت :

ـــ ماذا تعنين ؟

ـــ أبداً .. فقط خيّل إلىّ أنك بدأت تهوين مشاهدة الكروكيه .

ـــ وماذا فى ذلك ؟! إنها لعبة مسلية .

ـــ مفهوم .. مفهوم .. ولا سيما إذا لعبها بعضهم .

ـــ لا تدعي النباهة .

ـــ ولا تدعى أنت العبط .. هيا بنا .

ـــ وشردت « نادية » برهة .. وما لبثت حتى تناولت « البلوزة » و « الجيب » .. وبعد لحظات كانت التوءمتان تغادران دارهما فى « منشية البكرى » إلى نادى « مصر الجديدة » .

ــ البسى تحتها « السوتيان » .

ــ لن ألبس شيئاً . اسكتى أنت ولا تتدخلى فيما لا يعنيك .

ــ إذا لم تلبسى الفانلة .. سأخبر ماما .

ونهضت « نادية » من الفراش وفتحت درج « منى » .. وأخرجت الفانلة .. وقذفت بها إليها .. قائلة : ــ ألبسى .

وأمسكت « منى » بالفانلة فى ضيق وقالت :

ــ أتظنين نفسك وصية على .. أنت لست أكبر منى .

وضحكت « نادية »قائلة : ــ بل أكبر منك .

ــ لقد نزلنا سوياً .

ــ بل نزلت قبلك .

ــ ببضع ثوان .

ــ ببضع ثوان.. أو بضع سنين.. مادمت قد نزلت قبلك.. فأكون أكبرمنك.

ــ ومن أدراك أنك نزلت قبلى ؟

ــ اسألى ماما .

ــ ومن أدرى ماما .. إنها قطعاً كانت فى غير وعيها .

ــ لا بد أنهم قالوا لها .

وكيف استطاعوا أن يميزوا بيننا .. إنهم حتى الآن يخطئون فينا .. لقد شكرتنى مدرّسة الفرنساوى بالأمس على ما فعلته أنت .

ــ على العموم . أنا أكبر .. أو أنت أكبر . المهم أن تلبسى الفانلة .

ــ سألبسها بشرط .

ــ ما هو ؟

ــ أن تذهبى معى إلى النادى .

ــ أنا متعبة يا « منى » وصائمة .

ــ سلى صيامك .

يشربون الشاى أو يرقبون الأجساد العائمة أو المستلقية .

لم يكن هناك ما يوحى « بشهر رمضان » سوى بضعة الضباط والموظفين الذين التفوا حول مائدة فى مدخل الحمام وقد ارتدوا القمصان « والبطلونات » .. وبدت عليهم مظاهر الاسترخاء والملل ، وأخذوا يتبادلون حديث السياسة وآخر النكت .. وقد مدوا سيقانهم وأرخوا أجسادهم فى مقاعد القماش .

وفى الحديقة الخلفية المتسعة بدت ملاعب « الكروكيه » خضراً مستوية ناعمة كالبساط ، وقد أخذ اللاعبون يتحركون فيها الهوينى وينحنون على الكرات الكبيرة الملوّنة ليضربوها بتؤدة واتزان .

وفى آخر الحديقة بدا ملعب الفولى .. وقد أخذت الفتيات يتواثبن فيه ويتقاذفن الكرة قبل بدء المباراة .

ولم تكد إحداهن تبصر « منى » تعبر الباب حتى صاحت بها :

ـــ منى .. ألم تلبسى بعد ؟

وأجابتها « منى » وهى تعدو منطلقة إلى قاعة الحمام :

ـــ حالا .. ثانية واحدة .

واقتربت «نادية» وحدها من الملعب.. وأقبلت الفتيات عليها يحيينها فى مرح وخفة.. واتخذت «نادية» مجلسها على أحد المقاعد المرصوصة خارج الملعب وقد أمسكت بيدها كتاب «الأيام لطة حسين» وقد ثنت حرف آخر ورقة وصلت إليها.

واكتمل عدد الفريقين المتباريين .. فريق النادى .. وفريق المدرسة الإنجليزية . ونجحت « الشورتات » والسيقان العارية فى جذب أنظار أكبر عدد من روّاد النادى ، فالتفوا حول الملعب لمشاهدة المباراة .

وأقبلت حكم المباراة .. ومدربة النادى .. « مدموازيل حكيم » إحدى عوانس النادى .. وشخصياته المحببة .. وقد ارتدت نظارتها وعقصت شعرها وحشرت نصفها السفلى فى شورت كحلى وصل إلى ركبتيها .. وحشرت

نصفها العلوى فى « سوتيان » كاد يقسم شحم ظهرها سنامين .

وقبل أن تنفخ الحكم فى صفارتها .. وقع بصرها على « نادية » .. فهتفت بها فى دهشة :

— منى !! لماذا لم تغيرى ملابسك ؟

وضحكت االفتيات .. وصاحت إحداهن متخابثة وهى تجذب « نادية » من ذراعها :

— قومى« يامنى » البسى .

— وابتسمت « نادية » وأجابت فى رقة :

— لقد ذهبت « منى » لتبدل ملابسها .. أنا نادية يامدموازيل حكيم .

وقالت الحكم وهى تهز رأسها فى يأس :

— عبثاً أحاول التمييز بينكما .

وجذبت «نادية» ضفيرتها المدلاة على ظهرها ولوّحت بها وهى تقول ضاحكة:

— أنا بضفيرة يا مدموازيل حكيم .

و كانت «منى» قد أقبلت تعدو فى خفة بالشورت المثنى والقميص الخفيف .

و لم تكد تراها « مدموازيل حكيم » حتى هزت رأسها هزّة المعرفة وقالت :

— ومنى .. بلا ضفيرة .. وبلا ثياب !!

وقبل أن تدخل « منى » الملعب .. رفعت ذراعها ملوّحة لثلاثة أرباع الفتيان الذين اصطفوا لمشاهدة المباراة .. قائلة فى دلال : — هاللو .

ورفع الفتية أيديهم وهتفوا لها :

— « وِل » منى .. « وِل » منى .

وانحنت « منى » فى تهريج كما تفعل الممثلات على خشبة المسرح .. وقالت الحكم وهى تنفخ فى صفارتها ناهرة « منى » :

— أسرعى يامنى . كفى عبثاً .

وبدأت المباراة .. وجلست « نادية » ترقبها وقد وضعت الكتاب

فى حجرها .

لم يكن خطأ الحكم فى تمييز « نادية » من « منى » بالشيء المستغرب .. فقد كان بينهما من الشبه الظاهرى فى القسمات ما يجعل تمييز كل منهما عسيراً إلا على من يعرفهما معرفة وثيقة ويعرف الفوارق الدقيقة التى تميز كلا منهما عن الأخرى .

كانت الملامح الجامعة فى كل منهما .. شقرة فى الشعر .. واتساع وخضرة فى العينين .. وامتلاء فى الشفة السفلى .. وغمازتان فى جانبى الفم تظهران واضحتين مع كل بسمة .

وكانت ملامح الجسد تكاد تتطابق .. إلا فى وحمة فى إحدى أصابع قدم « منى » اليسرى .

وكانت أوجه الخلاف بين التوءمتين — غير وحمة القدم — تكاد تكون كلها مصنوعة من اختلاف الطباع .. عدا سنة فى فم « نادية » ضغط عليها الناب عند النمو فبرزت بروزاً خفيفاً ، جعل طبيب الأسنان يحشر فى فمها سلكاً حتى يعيد السنة إلى موضعها .

وفيما عدا ذلك .. كان التمييز بين التوءمتين يقوم على فوارق الخُلق .. أو انعكاسه على التصرف والمظهر

كانت « منى » خفيفة مرحة ، وكانت « نادية » رزينة متئدة وقد يكون هذا ناتجاً عن طبيعة التكوين ، وقد يكون أكثر من ذلك .. ناتجاً عن إصابة « منى » .. تلك الإصابة التى جعلتها بين ذويها كالهشيم ، يخشى عليه من التفتت .

لقد بدت الأعراض عليها .. قبيل العاشرة .. كانت تعدو فى المدرسة ، وعندما عادت إلى البيت سعلت وبصقت دماً !

وكانت صدمة مروعة لأبيها وأمها . ولم تفهمها « نادية » فى أول الأمر ، ظنت أن المسألة لا تعدو أن تكون فصداً أو جرحاً .

ولكن مظاهر الارتياع حولها ، وفرط الجزع والاهتمام والوحشة التى خيمت على البيت ، جعلتها تدرك أن هناك خطراً حاق بأختها .

ولكن الخطر لم يطل .. فقد كانت سرعة إدراكه وفرط العناية المبذولة فى دفعه ، كفيلان باجتثاثه .

وزال الخطر عن الصبية الشقراء ، الحلوة المرحة ، ولكنه خلف وراءه إحساساً دائما بوجوده .. وخوفاً مستمراً من رجعته .

وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الإحساس ، هو إفراط فى العناية بـ « منى » والخشية عليها ، والتدليل لها .

ولم تكن توءمتها « نادية » أقل من أبويها إحساساً بهذا .

كانت بطبيعة خلقها .. أميل إلى الهدوء والرزانة .. أكثر إحساساً بشعور الأمومة واحتمالا للمسئولية .

وزادها الخطر الجديد الذى حاق بأختها .. إحساساً بالحب لها والخوف عليها ، وتملكها نحوها شعور أشبه بشعور الأم ، منه بشعور الند أو التوأم .

ويبدو أن فرط العناية ، والخوف والتدليل ، قد دفع فى نفس « منى » إحساساً بأن خطراً خفياً يتربص لها .. وشكاً فى أن ذلك الذى أصابها ، وروّع ذويها ، لم ينجل تماماً ، بل هو جاثم فوقها ليطبق عليها بين آونة وأخرى .

وقاومت « منى » إحساسها بمزيد من المرح ، ومزيد من الضحك .. وبدت — عن غير قصد منها — متشبثة بالحياة . مستغلة لساعاتها .. مقتنصة لمتعها .. وكأنها تنشد ، بلا وعى ، مع الخيام : « ويلتا إن ضاع يومى من يدى » .

كانت « منى » إذن — بحكم خلقها الطبيعى المرح ، وبحكم إحساسها بالخطر الجاثم — منا فعة ، نزقة ، طائشة ، مستخفة .

ولم يحاول أحد ، أن يوقفها ، إلا بما يمنع تعرضها للخطر أو الانزلاق .

ولم تكن هى بطبيعة إدراكها للخطر .. تندفع إلى الحد الذى يعرضها له ..

و لم تكن كذلك ــ بطبيعة خلقها القويم المستقر فى باطنها ــ لتندفع إلى حد الانزلاق فيما يمكن أن يشينها .

وانهمكت « منى » فى المباراة ، حتى حانت فترة الراحة الأولى .. ونادتها نادية آمرة : ــ منى .

ونظرت إليها « منى » وهى تهز رأسها مستفسرة . وقالت « نادية » فى لهجة حاسمة : ــ كفى يا منى .

واستعدت صديقتها « كاميليا » للدخول بدلها وقالت :

ــ سألعب بدلك يا منى .. لقد تعبت .

ونظرت « منى » إلى المتفرجين .. فلمحت « عصام » وقد أقبل مع صديقه « صبرى » الطالب بالطب ، فرفعت له يدها محيية ، قائلة بلهجتها المرحة : ــ هالو .

وأشار لها « عصام » ثم اتخذ وصاحبه مقعدين مجاورين لنادية ، وحيياها بإشارة من رأسيهما .

وأجابت « منى » على « كاميليا » فى إصرار :

ــ انتظرى . سألعب فترة أخرى . إنى لم أتعب بعد .

و لم تحاول « نادية » أن تعيد طلبها ، فقد أدركت أن « منى » لا بد أن تلعب للاستعراض أمام « عصام » .

واستمرت المباراة . وقد بدا القلق على « نادية » وأخذت ترقب « منى » فى قذفها للكرة .. وعَدْوِها وراءها .

وحانت منها التفاتة إلى ملعب « الكروكيه » المجاور .. وقد تغير جميع اللاعبين به .. وأقبل عليه أربعة لاعبين جدد .. ثلاثة رجال وسيدة .

ولمحت أحد الرجال ، فدق قلبها بعنف .. وأعادت بصرها سريعاً إلى ملعب «الفولى».. ثم أخذت تعبث فى كتاب «الأيام» بأصبعها فى حركة عصبية مضطربة ومرّت برهة ، قبل أن تتمالك نفسها ، وتستعيد جأشها .. وتلفتت خلسة إلى

من حولها لتتأكد أن أحداً لا يعنيه أمرها وأن المتفرجين .. قد ركزوا كل اهتمامهم لمباراة « الفولى » وليس لمراقبتها .

ومرة أخرى أدارت رأسها ببطء نحو ملعب « الكروكيه » وبدأت تفحص اللاعبين .. واستقر بصرها هذه المرة على السيدة التى صحبت الرجال الثلاثة .

وعرفت فيها إحدى زبائن ملاعب « الكروكيه » الدائمين أو أحد عناصر الجاذبية فيه .

كانت « جاذبية عبد الحميد » إحدى الأرستقراطيات المطلقات وكانت رشيقة فى حركاتها ، جذابة فى إيماءاتها ولفتاتها .

وكانت جاذبيتها العامة أغلب على جمالها التفصيلى . وكانت دائماً تذكر « نادية » بالمعيز .. لا تدرى لمه .. قد يكون لبوزها الممدود .. أو لأذنيها « المطرطقتين » .. أو لجسدها الرفيع .. وحركتها الرشيقة ، وتواثبها فى الملعب بين آونة وأخرى .

ومع ذلك .. ورغم اقترانها دائماً فى ذهن « نادية » بالمعيز كانت أنيقة جذابة ، من النوع الذى « يعف » عليه الرجال .

ولم تحس « نادية » أبداً بضيق منها ، بل كانت أميل إلى استلطافها .. حتى أبصرتها الآن فى الملعب وأبصرت الرجال الثلاثة الذين يلعبون معها .. أو على وجه أدق .. أبصرت زميلها فى اللعب .

وأعادت « نادية » بصرها هنيهة إلى ملعب الفولى حتى لا يحس أحد بتحولها التام من مراقبة الفولى إلى مراقبة الكروكيه .

وقبل أن تعيد بصرها إلى ملعب الكروكيه لترقب اللاعب الذى سبب لها كل هذا الاضطراب ، والذى سبب لها السخط على معزة الكروكيه ، الجميلة الجذابة . التى يعف عليها الرجال . أحست بصبرى زميل « عصام » يلتفت إلى الملعب ثم يدفع عصام بمرفقه قائلا : — الله !! الدكتور مدحت .

والتفت عصام إلى الملعب ، ثم هز رأسه دون اهتمام قائلا :

ـــ آه .

وعاد « صبرى » يزغد « عصام » قائلا :

ـــ إنه يلعب مع جاذبية .

و لم يبد « عصام » كثير دهشة ، وهز رأسه وهو يرقب ملعب الفولى ويبتسم لـ « منى » قائلا : ـــ طيب .

واستمر صبرى فى تعليقه المنفرد : ـــ إنها تشتغل عليه .

وأجاب عصام بطريقته غير المكترثة وهو منهمك فى مراقبة منى : ـــ دعها تشتغل .

ـــ مغفلة . « جه نقبها على شونة » .

و لم يرد « عصام » .. لم يكن مهتما ألبتة بحديث صبرى . ولا كان يهمه أبداً نقب « جاذبية » الذى ، أتى على شونة الدكتور مدحت .. ولكن شخصاً آخر كان شديد الاهتمام بالحديث .. كانت « نادية » تتمنى لو استطاعت أن تجيب على صبرى لتحصل على المزيد من تعليقاته .

ويبدو أن صبرى كان مصرّاً على أن يقول كل ما بنفسه رغم عدم اهتمام عصام به .

تساءل صبرى وهو يرقب « جاذبية » تنحنى بجذعها ثم ترفع المضرب الشبيه بالدقماق لتطرق به الكرة البيضاء :

ـــ أتدرى لماذا ؟

ودون أن يعرف عصام ما هو هذا الذى يريده أن يدريه لماذا . قال ببساطة وهو يصفق لمنى :

ـــ لماذا ؟

لأنه يكره النساء .

وأجاب عصام بلا وعى ، دون أن يعرف من هو هذا الذى يكره النساء : ـــ مغفل .

— إنه عبقرى .. هل تصدق أنه أجرى بالأمس أمامنا عملية لمدة ثلاث ساعات أزال بها المثانة لأحد المرضى . وأول أمس رأيته بعينى يزيل معدة مريض آخر .. وفى الأسبوع الماضى قطع أربعة أزوار .

وهنا التفت عصام فى دهشة إلى صاحبه .. وتساءل قائلا : أيشتغل جزّاراً ؟!

ولم تتمالك « نادية » نفسها من الضحك ..

وأجاب صبرى فى غيظ :

— جزّار يا غبى !. إنه جرّاح .. أكبر جرّاح عندنا فى السرطان ..

— اللهم احفظنا .

— إنه يبدو عنيفاً .. ولا يجيد المجاملة .. ولذلك يكرهه معظم الأطباء عندنا .. ويسمونه الجزّار .

— معهم حق !

— ماذا أفهمك أنت بالجراحة ؟

— مادام قد قطع فى الأسبوع الماضى أربعة أزوار .. ومعدة .. وطحالا .. لماذا لا يسمونه جزاراً ؟

— إنه أحياناً يقطع أكثر من هذا .. إن آخر ما قيل فيه .. هو أنه بعد انتهائه من العملية قال للممرض : « شيل المريض » .. ونظر الممرض إلى ما أزيل من المريض وما تبقى منه وسأله حائراً : « أشيل مين فيهم ؟ » !

— وبعد هذا الا يسمى جزارا ؟!.

— بل يسمى عبقرياً .. لقد أنقذ ما يقرب مائة حالة مستعصية .. كان مصيرها إلى الموت .

وملأ « نادية » إحساس بالتفاخر والغبطة ، كأنها هى التى أنقذت مائة روح . وعادت تنظر إلى ملعب الكروكيه ، لترقب العبقرى الجزار ، بجسده الطويل ، وكتفيه العريضتين . ووجهه الأسمر وعينيه الخضراوين .. وأنفه الأميل إلى الضخامة .. وفكه العريض .. وشعره الذى دبت فيه مبادىء صلع ..

ورأت المعزة الجذابة تقفز حوله ضاحكة .
وأبصرته يضرب الكرة .. ولا يضحك ..
وسمعت صبرى يردد مرة أخرى فى سخرية :
ـــ « جه نقبها على شونة » ..
وأحست « نادية » بشىء من الطمأنينة ..

(٣)

من بعيد

انتهت مباراة الفولى .. وأقبلت « منى » تحيى عصام ، وقاطعتها « نادية » محذرة :

ــ أنت عرقانة .. أسرعى لإبدال ملابسك قبل أن يلفحك الهواء .

وشدت « منى » على يد عصام ثم انطلقت تعدو تجاه قاعة الملابس وهى تهتف :

ــ خمس دقائق .

وأجاب عصام :

ــ سأنتظرك عند حوض السباحة .

والتفت إلى نادية متسائلا :

ــ أتشربين معنا الشاى ؟!

وأجابت نادية :

ــ إنى صائمة .

ــ أنا متأسف .. لقد نسيت أننا فى رمضان .. أقصد أنى ....

وقاطعته نادية ضاحكة :

ــ لا بأس .. سأشاهد « الكروكيه » .. وألحق بكما عند الحمام .

والتفت عصام إلى صاحبه قائلا :

ــ هيا بنا .

وأجاب صبرى وهو يرقب نادية :

ــ سأبقى أنا أيضاً لمشاهدة الكروكيه .

والتفت عصام إلى الدكتور مدحت وقد انحنى يضرب الكرة فى الملعب وقال

لصبرى ضاحكا :

ـ خذ باللك من صاحبك .. وإلا قطع زور واحد أو نزع معدة آخر .

واتجه عصام إلى الحمام وجلست نادية أمام إحدى المناضد المحيطة بملعب الكروكيه واتخذ صبرى مقعده على المقعد المقابل .

وبدا صبرى بالقميص الأبيض المشمر الأكمام والبنطلون الفانلة ، نحيلا طويلا كالعصا السمراء .. بارز عظام الوجنتين صغير الذقن يغطى عينيه السوداوين الضيقتين منظار أسود للشمس والنظر .

وسادت فترة صمت كانت « نادية » تتشاغل خلالها بمراقبة اللعب ، وكان صبرى ينقل بصره بين اللعب وبين جانب وجهها ..

وبدا على صبرى أنه يحس بنادية أكثر مما يحس باللعب وأنه يبحث فى ذهنه عن نقطة ملائمة يبدأ بها الحديث .

لم تكن المرة الأولى التى جلس فيها إلى « نادية » .. فقد سبق أن ضمتهما بعض جلسات النادى حول الحمام ، أو فى « التراس » المستدير المطل على الحديقة والملعب ، أو داخل البهو فى أمسيات الشتاء .. ولكن الجلسات كانت تضم خليطاً من فتيات النادى وإخوتهن أو أقاربهن أو أصدقائهن ، وكان الحديث عن الرياضة أو السياسة وتبادل النكتة والمزاح هو كل ما يشغل الجلسات الصبيانية المرحة .

ولكن صبرى كان ينظر إلى « نادية » .. بشىء لا يلائم كثيراً هذه الجلسات الصبيانية المرحة . كان لها فى قرارة نفسه بوضع أكثر جدية من غيرها من الفتيات .. كان يملأ نفسه شعور بالتقدير وإحساس بالرغبة فى أن يكون بينهما أكثر مما بين « الشلة » من صلات .. وعندما كان يرسم خطوط مستقبله العريضة .. ويؤثث بيته وينظم عيادته .. كان يضعها ..أو يضع شيئاً شبيهاً بها فى صدر حياته وعلى قمة أمانيه .

ذلك كان وضع نادية .. فى نفس الفتى النحيل الطويل .. الجالس يسترق إليها

البصر فى قلق .. مجهداً نفسه فى التقاط طرف حديث يثير به اهتمامها .

وكانت « نادية » تعرفه كمخلوق مميز .. عن بقية فتيان « الشلة » مميز بأدبه وذوقه وخلقه وبعده عن الصبيانية والتهريج .

ولكن تمييزه لم يصل إلى حد اعتباره مطمحاً لآمالها .. أو موضوعاً لتفكيرها .

كانت تستريح إليه .. ولا شيء أكثر من ذلك .

مخلوق آخر .. هو الذى وضعته فى الموضع الذى وضعها هو فيه .. موضع الصدارة من الأمانى والأحلام والمستقبل الوردى المزدهر .. موضع المحتل لقلب خال ، الداعي لذهن متلهف ، الساقى لنفس عطشى ، المؤنس لروح موحشة .

هذا المخلوق .. هو الذى جلست ترقبه فى صمت دون أن يحس بها .. وهو يتنقل وراء الكرة . و « جاذبية » — أو معزة « الكروكيه » تقفز حوله ضاحكة متثنية .

كان الدكتور مدحت .. أو « العبقرى الجزّار » هو أمنيتها السرابية البعيدة .. بعد الشمس فى الأفق .

كانت ترقبه من بعيد .. دون أن يعرفها أو يحس بها ودون أن يعرف مخلوق سوى أختها « منى » التى استطاعت التخمين — أنه لديها شيئاً .. وأنه ملء أوهامها وأحلامها .. الملتصق بكل آمانيها .

كانت تتبعه بعينيها خفية .. وترقبه فى استراق وصمت .. واستطاعت خلال عام أن تعرف كل حركاته وسكناته فى النادى ماذا يلعب ، وأين يجلس .. ومن يصاحب .. ومتى يأتى .

بدأت معرفتها له .. بنوع من النفور والكراهية .. سببه إحساسها بأنه مخلوق أنانى قاس .. عند ما أبصرته — وقد أغمى على « هدى » إحدى فتيات النادى — ينتقل إليها فى تراخ وبطء ويلقى عليها نظرة خاطفة ثم يقول فى

استخفاف :

ـــ اتركوها .. ستفيق وحدها .

وعندما قالت له إحدى الفتيات :

ـــ إنها مغمى عليها .

ـــ وماذا أفعل لها ! ! شمموها نشادر .. طسوها بجفنة ماء .

وانفلت عائداً إلى مكانه فى هدوء وهو يتمتم :

ـــ مياعة بنات .

وأدهشها استخفافه وبروده وعجرفته وسألت عنه من حولها فأجابها « عبدالله » مدرّب التنس :

ـــ الدكتور مدحت .

و لم تستطع أن تمنع تأففها منه وسخطها عليه :

ـــ ولماذا كل هذه الكبرياء والعجرفة !

وأجابها المدرّب مؤمناً على قولها وهو يهمن .

ـــ راجل أليط .. ليس عنده مروءة .. هل تصدقين بعد كل هذا التمرين له .. ذهبت إليه ذات مرة فى العيادة لآخذ شهادة بأنى مريض .. حتى أستطيع السفر إلى بلدنا .. فرفض إعطاءها لى .. قائلا إنى « زى البمب » وأنه لا يستطيع أن يعطى شهادات مزوّرة .. فذهبت إلى الدكتور جادالله .. فأعطاها لى وأنا واقف .

ـــ الدكتور جادالله ؟!!

ـــ أجل .. زميله الذى يجلس معه دائما .. رجل أمير . لا يرد لأحد طلبا .

وأمن على قوله إبراهيم مراقب الحمام وهو يهز رأسه :

ـــ الله يعمّر بيته .. لقد أخذت له زوجتى بالأمس فأعطاها مزيجاً نفعها جداً .

وأجابه :

ـــ لو أخذتها إلى الدكتور مدحت .. لطردها ؟

ـــ طبعاً .. لقد رفض أن يتولى معالجة عمال النادى .. فى الوقت الذى قبل الدكتور جادالله أن يعالجهم مجاناً .

ولم يكد إبراهيم ينتهى من كلامه حتى أبصرت « نادية » رجلا أنيقاً وسيما يندفع بين الفتيات إلى حيث رقدت « هدى » ثم ينحنى عليها فاحصاً ويحملها بين يديه .. ثم يسير بها متجهاً إلى « الجراج » ليضعها فى عربته ويحملها إلى عيادته .

وهز إبراهيم رأسه معجباً وقال :

ـــ هذه هى الشهامة .. أرأيت يا ست نادية !!

وهزت « نادية » رأسها متسائلة :

ـــ من يكون ؟!!

ـــ الدكتور جادالله .. رجل شهم .

وانفض الحشد .. والدكتور مدحت باق فى مقعده لا يعبأ بمن حوله .

وتعجبت « نادية » من تصرفه العجيب .

تراخيه..واستخفافه..وكبرياؤه..ثم..الاكتفاء بأن يصف لإغماء الفتاة.. نشادر .. أو .. طسة ماء فى وجهها .. ثم يصف إغماءها « مياعة بنات » .

لا يمكن أن يكون هذا طبيباً فأى إنسان يمكن أن يعالج الإغماء بالنشادر .. وطسة الماء .. وأن يصفه بالمياعة .. إنه حيوان .. فقط .. غليظ القلب .. متعجرف .

وهو رجل بلا مروءة .. لأنه رفض أن يعطى الشهادة لإبراهيم المدّرب ، ولأنه رفض أيضاً .. أن يعالج العمال .

ودب فى أعماقها إحساس بالنفور والبغضاء .. من الطبيب القاسى المتعجرف ، العريض المنكبين ، الطويل القامة ، الذى يغلب تجهمه ابتسامه .

وفى ذات يوم اختفى إبراهيم مدّرب التنس ، وعندما سألت عليه بعد أن افتقدته بضع مرات خلال لعبها للتنس أو مشاهدتها له .. أنبأها أحد زملائه وهو

يهز رأسه ويمصمص بشفتيه .. بأنه :

ــ مسكين .. لا أمل فيه .

ــ كيف ؟

ــ لقد أصابه ــ أبعد الله عنا الشر جميعا ــ المرض الخبيث الذى يسمونه السرطان .

وأحست « نادية » برجفة وهى تسمع قول الرجل وتساءلت قائلة :

ــ وبعدين ؟

ــ ولا قبلين .. لا فائدة منه .

ــ مسكين !!

ــ المسكينة امرأته .. وأولاده .. لديه من الأولاد أربعة .. غير الذى فى بطن أمه .

ومضت بضعة أسابيع .. و « نادية » لا تكاد تقرب ملعب التنس حتى يصيبها ما يشبه الغثيان عندما تتذكر المدرّب الميئوس من حياته .. والزوجة الحبلى .. والأولاد اليتامى .

وفى ذات يوم فوجئت به ، وقد جلس على الدكة الخشبية أمام كشك التنس الأخضر عند مدخل قاعة الملابس .. كان يرتدى البنطلون والقميص ويلبس على رأسه « البرنيطة » البيضاء .

وكان سليما معافى .. وكان يضحك ويشاكس من حوله ، ولم يك به أثر لمرض .. ولا كان ينقصه شيء .. مما تعوّدت أن تراه به .

اللهم إلا شيئاً واحدا .. هو ذراعه .

لقد كان إبراهيم مدرّب التنس ... بلا ذراع .

ولم يكد يراها .. حتى قفز من مكانه وأقبل عليها مرحبا وهو يقول ضاحكا :

ـ أهلا .. ست نادية .

وأحست « نادية » بغصة فى حلقها وهى ترى الرجل .. قد فقد ذراعه .. اليمنى .. وسيلته الوحيدة للرزق .. ومع ذلك لم يبد عليه أنه فقد شيئاً .. وتمالكت « نادية » نفسها وأجابته بنفس روحه المرحة :

ـ أهلا .. إبراهيم .. كيف حالك ؟!

ـ الحمد الله . لقد أصبحت سليما أربعة وعشرين قيراطاً .

ـ أشفيت تماماً ؟!

ـ تماماً .. لم يعد بى شيء . لقد طار المرض مع الذراع الطائرة

ثم أشار إلى ذراعه .. وأردف ضاحكا :

ـ راح .. الله لا يرجعه .. لقد دوّخنى .. لقد أرانى نجوم الظهر .. لقد أرانى أياماً ، لا أرها الله لعدو ولا حبيب !

وأخذت « نادية » ترقب الرجل الضاحك وهى تسترق النظر إلى ذراعه .. وقالت وهى تحاول أن تزدرد دموعها :

ـ الحمد الله على سلامتك .

ـ الحمد الله .. والدكتور مدحت .. لم ينقذنى من براثن الموت سواه .

ودهشت نادية .. وردت متسائلة :

ـ الدكتور مدحت ؟

ـ أجل .. لقد أنقذنى .. رغم أنفى .. هل تصدقين ؟

ـ كيف ؟

ـ عرف بمرضى.. وعندما كشف على.. قال بمنتهى البساطة.. وبطريقته المستخفة المتعجرفة .. إنه لا بد من قطع ذراعى .. تصورّى .. قطع ذراعى اليمنى سبب رزقى .. وحياتى .. وحياة أولادى .

ـ وماذا فعلت ؟!

ـ تركته بالطبع .. وقلت عنه : مجنون .. وعدت لأستسلم لآلامى ..

ولطمأنة الدكتور جادالله وابتساماته .. ومزيجه .. ولزقاته ..

— ثم عدت إليه ؟!

— أبداً .. لقد عاد هو إلىّ .. عندما استغيبنى . وعندما رفضت أن أذهب إلى المستشفى لأقطع ذراعى .. عندما ولولت امرأتى . ضربها . ثم حملنى برغمى إلى المستشفى . وبرك على أنفاسى .. وخدرّنى .. ثم قطع ذراعى .

ولم تستطع « نادية » أن تغالب ضحكتها .. رغم ما فى قول الرجل من مأساة .. ولكنها لم تكن تتصورّ قط .. طبيبا متمديناً .. يهجم على مريض .. ويبرك على أنفاسه .. ثم يحقنه بالبنج ويقطع ذراعه رغم أنفه .

وتساءلت « نادية » خلال ضحكتها :

— هذا ليس طباً إنها جزارة .

— إى والله ياست نادية .. لو ترين كيف هجم علىّ وكيف صاح بامرأتى « أنت حيوانة .. تريدين أن تقتليه .. من أجل القرشين اللذين يأخذهما من النادى ؟ » .

وعندما أجابته امرأتى باكية : « لن يشتغل إذا قطعت ذراعه » أجابها « ولن يعيش إذا لم تقطع » .

— لا بد أنه كان على حق !

— طبعاً .. على حق .. لقد شفيت تماماً .. أصبحت كالجن الأزرق .. ولكن بلا ذراع ..

— لن يصعب عليك إيجاد عمل بغيرها .

— لقد وجدت فعلا .. إنى أعمل كما أنا .. إن مجلس الإدارة وافق على أن أبقى مشرفاً على المدرّبين .. بناء على رجاء الدكتور مدحت .

— إنه يبدو رجلا ذا مروءة .. لقد أسأنا به الظنّ .

— جدا . إنه إنسان . لقد تولى أمر امرأتى وأولادى ، طيلة مرضى . إنه مخلوق ممتاز فى كل شىء .. عدا شىء واحد .

ـــ ماهو ؟

ـــ إنه مزوّر ؟

ـــ أجل ...

ـــ كيف ؟

ـــ إنه لم يكن يستطيع أن يجرى لى عملية بتر الذراع .. إلا إذا أخذ « منى » إقراراً كتابياً بالموافقة .. ولما كنت أرفض إجراء العملية .. فقد قطع ذراعى .. ثم أخذها .. وبصم بها الإقرار .

واندفع إبراهيم مقهقهاً وهو يقول :

ـــ هذا تزوير .. إنها لم تكن ذراعى حين بصم بها .. لقد كانت شيئاً لا صلة لى به .

وصمت إبراهيم برهة ، وأحست « نادية » أنها لا تستطيع أن تغالب دموعها ، ونظر إليها الرجل ... ذو الذراع المبتورة وهو يتساءل فى دهشة :

ـــ لماذا تبكين يا ست نادية ؟! لقد سامحته .

ومنذ ذلك الحين .. تبدد شعور الكراهية والنفور .. وحل محلهما إحساس بالاحترام والتقدير .. ثم تطور رويدا رويداً .. إلى حب .. أخذ يعمق ويزداد كلما جلست لتراقب الرجل الطويل العريض المنكبين .. الذى يغلب تجهمه بسمته والذى لا يحفل كثيراً .. بمجاملة الغير .. ولكنه يحمل فى رأسه ذهناً عبقرياً .. وفى صدره قلباً يفيض بالحنان والمحبة . وانتهت لعبة الكروكيه .. و« نادية » مستغرقة فى شرودها وهى ترقب مدحت يتجه فى تؤدة إلى خارج الملعب .

ونهض صبرى وهو يسألها :

ـــ أستلحقين بهم عند حوض السباحة ؟

وأجابت نادية :

ـــ أجل ...

وتحرك الاثنان فى صمت تجاه الحمام .. وصبرى مازال يجهد ذهنه فى إيجاد نقطة يبدأ منها الحديث !!.

(٤)

حديث السلام

ــ جلس « عصام » على إحدى المناضد فى الشرفة « تحت » السقف المنحدر » المستطيلة المجاورة لحوض السباحة .. وأقبل عليه بعض الأصدقاء والصديقات يحيونه فى ترحيب ويعلقون مازحين على شعره المحلوق ، ويسألونه هل تعلم السلاح والتنشين .

وجرى الحديث بينهم فى خفة ومرح حتى أقبلت « منى » بعد أن ارتدت ملابسها .. وبدأت الشلة تنفض رويداً رويداً حتى خلت المائدة إلا من الاثنين .

وأقبل عليهما الساقى النوبى يحمل صينية الشاى .. فوضع الإبريق والسكرية والفنجانين بينهما .. وقبل أن ينصرف سأل عصام منى :

ــ أتريدين شيئاً يؤكل . كيك ؟ أو جاتوه ؟ أو سندوتش ؟

ــ لا داعى .. إنى سأفطر معهم فى البيت .

ــ وأنا أيضاً .. لست أدرى ما الداعى إلى إصرار البيوت على تغيير مواعيد الطعام .. إذا كان ثلاثة أرباع أهلها مفطرين . ليس فى بيتنا صائم غير أمى والخادمة .. ومع ذلك نجلس جميعاً على مائدة حافلة فى وقت الإفطار .

ــ نحن أيضاً . لا يوجد صائم فى البيت غير أمى ، ونادية .

ــ أمك صائمة ؟

ــ أجل ...

ــ ولماذا !؟.

ــ لقد نذرت عندما أصيب أبى بالذبحة بعد أن أخرجوه من الجامعة .. أن تصوم رمضان .

وضحك عصام وقال :

ــ ولماذا لاتصلى ؟!

ــ لقد حاولت نادية أن تعلمها .. ولكن لم تستطيع أن تحفظ الفاتحة أو التحيات .. لم أر فرنسية أخيب منها .

ــ إنها طيبة جداً .. يخيّل إلىّ أحياناً .. وأنا أبصر طيبتها وهدوءها وصمتها .. أنها جدتى أم أبي .. حتى إنى أشك كثيراً فى أنها ولدت فى جبال الألب ، وأكاد أجزم بأنها من مواليد تحت الربع .

ــ ربع فى عينك .

ــ طيب اسأليها .. وإذا لم تقل لك إنها من مواليد تحت ربع .. جبال الألب .

ــ لن تفهم معنى .. تحت الربع .. إنها لا تستطيع أن تتكلم جملة عربية متماسكة .. بعد وجودها فى مصر خمسة عشر عاماً .

ــ من غباوتها ! عندما تصبح حماتى سأعلمها الرّدح .

ــ على فكرة .. لقد قلت لنادية إنك ستخطبنى اليوم . ورفع عصام عينيه عن فنجان الشاى ونظر إليها فى دهشة متسائلا :

ــ ولماذا قلت لها هذا ؟

ــ لقد أنبتنى على كثرة ملازمتك لى .

ــ ومالها هى .. أقد جعلت نفسها وصية عليك ؟

ــ لقد قالت إن أهل أبى كلهم ثائرون على تصرفاتى وإنهم يتهمون أمى بأنها أساءت تربيتى فلما قلت لها إنك My Boy-friend قالت : إن عائلتنا لا تعترف بأقل من خطيب فقلت لها : سأجعلك تخطبنى اليوم .

ــ أنت مجنونة !

ــ لماذا ؟

ــ لأنى لا أستطيع أن أخطبك وأنا مجرد تلميذ لا هنا ولا هناك !

ــ ألم تحصل على الليسانس ؟

ــ أجل .

ـــ أجل .

ـــ ألم تكن تستطيع أن تتوظف أو تصبح محامياً ؟

ـــ أجل .

ـــ انتهينا .

ـــ لم ننته .. لأنك ظللت تلحين عليّ حتى دخلت الكلية الحربية .. فأصبحت تلميذاً من جديد .. وأى تلميذ ؟.. تلميذ غلبان .. كحيان .. ليس هناك واحد من صف ضباط الكلية إلا ويتأمر ويبيع فيه ويشترى .

وضحكت « منى » وسألته فى حنان :

ـــ أنادم أنت ؟

ـــ أبداً .. على العكس .. إنى نادم لأنى لم آخذها من قصيرها .. وأدخل الحربية من الأول .

ـــ لا .. لا .. هذا أحسن .. إنى أفضل أن تكون ضابطاً وشيئاً آخر .

ـــ تعنين .. مثل تاجر وترزى ؟!

ـــ بالضبط .

ورشفت « منى » رشفة أخيرة من فنجانها ، ثم أردفت متسائلة :

ـــ ومتى ستنتهى من هذه التلمذة .. حتى تصبح إنساناً محترماً يستطيع أن يخطب ؟!

ونظر « عصام » فى عينيها الخضراوين الضاحكتين . وتساءل :

ـــ أحقاً .. تتعجلين الخطبة ؟

وهزت كتفيها فى استخفاف قائلة :

ـــ أبداً .. أنا لا يهمنى شىء .. إنما نقلت إليك حديث نادية عما تقوله عمتى .. وإن كنت شخصياً لا أعبأ بها ولا بكل أهلها .

ـــ إن أمامنا وقتاً طويلا . أنت لم تبلغى السادسة عشرة بعد .

ـــ فى يونية القادم سأبلغها .

ـــ وأنا مازال أمامى طريق طويل حتى أستقر ، وأصبح رجلا جديراً بالزواج وبإنشاء أسرة وتعمير بيت .. من يعلم أين سيقذفون بى بعد التخرّج ؟!

ـــ وأين يحتمل أن يقذفوا بك ؟

ـــ من يدرى !

ـــ ألم تقل لى إنك ستتخرّج لتكون نائب أحكام فى إدارة الجيش ؟

ـــ ليس بعد التخرّج مباشرة . إنهم سيلحقوننا بالأسلحة للتدّرب على عمل القوات المسلحة .. حتى نستطيع أن نخدم فى الميدان كبقية الضباط ..

ـــ وأى سلاح سيلحقونك به ؟

ـــ الله أعلم .. لن يستطيع أحد أن يعرف مصيره إلا عند التخرّج بعد بضعة أشهر .

ونظرت إليه « منى » فى إعجاب .. وقالت :

ـــ إنى أريدك أن تذهب إلى السلاح الذى يضع سلسلة على كتفيه .

ـــ لا أظن .. لأن أركان حرب المدرسة من المدفعية .. وهو يريد أن يلحقنى بسلاحه حتى أنفعهم فى ألعاب القوى .

ـــ لا .. لا .. سيكون منظرك هائلا بالسلسلة .

وضحك عصام قائلا :

ـــ يا منى . كفى عن هذا العبط .. إنك تعاملينني كأنى .. حصان .. يمكن أن يكون منظره أجمل بالسلسة منه بدونها .

وابتسمت « منى » وقالت فى إصرار :

ـــ سأخبر عمى سليمان .. لكى يرشحك للفرسان .. إنه سيتناول الفطور معنا اليوم .

ـــ لا تتعبى نفسك .. مازال الوقت مبكراً .. إننا لن نتخرّج قبل أغسطس .

وبدت « نادية » مقبلة مع صبرى .. يسيران الهوينى تجاه الشرفة ، ورمقهما عصام قائلا :

— يبدو أن هناك إعجاباً متبادلا بين صبرى ونادية ؟!

— لا أظن .

— لماذا ؟

— لأنه ليس هناك إعجاب متبادل بينها وبين أى إنسان .

— ماذا تقصدين ؟!

— أقصد أن المخلوق الوحيد الذى تعجب به لا يعجب بها .

— ولماذا ؟

— لأنه لا يحس بها .

— من هو ؟!

— الدكتور مدحت .

— الذى كان يلعب الكروكيه الآن ؟

— أجل .

— وما الداعى لإعجابها به !! إنه لا يجيد لعبة الكروكيه .

— ليست المسألة مسألة « كروكيه » .

— مسألة ماذا إذاً ؟

— الله أعلم .. أما الذى أعلمه .. فهى أنها تحب دائماً أن ترقبه ويصيبها الارتباك والاضطراب عندما تراه أو تسمع عنه .

ووصلت « نادية » وصبرى .. وكان صبرى قد منّ الله عليه أخيراً بنقطة يبدأ منها الحديث . فسأل « نادية » قائلا :

— ما رأيك فى مؤتمر باندونج ؟

وكانت « نادية » تتمنى طول الطريق أن يبدأها صبرى بالحديث .. وأن يصل معها ما انقطع من حديثه عن الدكتور مدحت مع عصام .

كانت تتمنى أن يواصل حديثه عن عبقرية مدحت .. وعن عملياته وعما يفعل وعما يقول .. ولكن صبرى أصيب بالبكم ، ولم تدر هى كيف تدفعه إلى

الحديث .

كانت تخشى أن تقول شيئاً يشتم منه اهتمامها بمدحت .. أو رغبتها فى الحديث عنه .

وعندما منّ الله على صبرى بالحديث .. تكلم عن مؤتمر باندونج .. ولم يكن فى ذهن « نادية » صورة واضحة عن باندونج .. إلا ما تقرؤه من عناوين الصحف العريضة .

واتخذ كل منهما مقعده على المنضدة بجوار « منى » وعصام .

وأخذ صبرى يسترق النظر إلى جانب وجه « نادية » .. ولمح ضفيرتها الذهبية المدلاة على ظهرها .. والزغب الأصفر الذى يبدو على صفحة خدها أسفل سالفتها بمحاذاة أذنها .

وأحست « نادية » أنها لا بد أن تجيب بشىء عن سؤال صبرى عن رأيها عن مؤتمر باندونج ، فهزت رأسها متسائلة :

ــ رأيى فى أى شىء فيه ؟

ــ مبادئه وأهدافه .

ورفع عصام وجهه متسائلا :

ــ ما هو ؟

ــ مؤتمر باندونج .

وضحك عصام قائلا :

ــ طبعاً يعجبك أنت لأنك شيوعى .

وهز صبرى رأسه ثانياً بشدة :

ــ أنا لست شيوعياً .. أنا من أنصار السلام .

ــ أنصار السلام .. يعنى شيوعى .

ــ الذين ينادون الآن بالسلام ، ليسوا الشيوعيين وحدهم . لقد كوّن المؤتمر كتلة جديدة محايدة تنادى بالسلام .. وتقر مبدأ التعايش السلمى !

— الشيوعيون أيضاً يقرّون هذا .. لأنهم لا ينشرون مذهبهم بالعنف .. ولكن بالتسلل .

— أنت أمريكانى .

— وأنت شيوعى .

— أنا مع جمال عبد الناصر .

— وأنا أيضاً مع جمال عبد الناصر .

وتدخلت « منى » صائحة :

— وأنا لست مع جمال عبد الناصر .. لأنه طرد أبى من الجامعة .. وأصابه بذبحة .

وتدخلت « نادية » قائلة .

— جمال عبد الناصر ليس له دخل بخروج أبيك .

— من الذى طرده إذن ؟

— الغيرة والوشايات والنمائم .. هل تظنين أن جمال مسئول عن خطايانا جميعاً .. وأن عليه أن يحتمل وزر كل واش نمام ؟!

— إنه مسئول عن كل ظلم يقع علينا .. إنه مسئول عن إقامة العدل بيننا .

ونظر عصام حوله فى حرج وقال :

— دعونا من هذا الحديث الآن .

ونظرت إليه « منى » قائلة فى سخرية :

— لا مؤاخذة ..نسيت أنك لبست البذلة الكاكية !!

ونظر إليها عصام نظرة رادعة قائلا :

— منى .. تأدّبى .

وضحكت « منى » ورفعت يدها بالتحية العسكرية قائلة :

— حاضر يا فندم .

وعاد صبرى من جديد يدير دفة الحديث إلى مؤتمر باندونج قائلا :

— على أية حال أنا أعتبر مؤتمر باندونج نقطة تحوّل فى تاريخ العالم .. وخطوة إيجابية فى سبيل إقرار السلام .. وأعتبره كذلك قد وضع مصر موضعاً مشرفاً بين شعوب العالم .. لقد حددنا به شخصيتنا المستقلة .. وأزلنا به التبعية التقليدية .. للغرب .

وهز عصام رأسه وقال مصدقاً :

— فى هذا .. معك حق .

ثم رفع سبابته وهزّها مؤكداً وقال فى إصرار :

— ولكنى مع ذلك ما زلت أصر .. على أن أنصار السلام شيوعيون .. وأنهم منفعلون بمؤتمر باندونج أكثر مما هم منفعلون بالثورة .. وأنهم لم ينفعلوا بجمال إلا بعد مؤتمر باندونج .

— ليكن .. شيوعيون .. شيوعيون .. إن السلام هـو السلام .. وغير معقول أن نكره السلام لأن الشيوعيين ينادون به ؟

وسدت « منى » أذنيها قائلة فى احتجاج :

— دعونا من السلام والشيوعيين لقد سببتم لى صداعاً ! تحدثوا فى أى شىء آخر .

ونظرت إلى مياه الحمام الفيروزية الصافية وقالت فى شوق :

— وددت لو أخذت غطسة .. ما رأيك يا عصام ؟.

ونظرت إليها نادية فى غيظ وقالت :

— أنت مجنونة ؟.. ألم يكف الجهد الذى بذلته اليوم ؟!

وهزت « منى » كتفيها قائلة :

— ليس هذا من شأنك .

ونهرها عصام قائلا :

— معها حق يا منى . لم يكن هناك ضرورة أبداً للعب الذى لعبته اليوم .. بل ليس هناك أية ضرورة لأن تفعلى ما يجهدك .

وبدا الضيق على وجه « منى » وأجابت :

ــ أنا سليمة مائة فى المائة .. أسلم منك ومنها .

وأجاب صبرى فى رقة :

ــ طبعاً ... إنك أسلم منا جميعاً .. فقط .. لا ضرورة للإجهاد . نحن أيضاً لا نجهد أنفسنا . اكتفى دائماً بالفرجة على اللاعبين ، إن هذا أسلم موقف يمكن للإنسان أن يقفه فى الملعب .

وضحكت « منى » قائلة :

ــ ولكنى لا أستطيع أن أشاهد المياه دون أن أقذف بنفسى فيها .. إنى لا أكاد أرى البحر ..

وقاطعها عصام متسائلا :

ــ هل تنوون الذهاب هذا العام إلى الإسكندرية ؟

وهزت نادية رأسها قائلة :

ــ لا أظن .. إن أبى يصر على أن نذهب إلى فرنسا هذا العام .

وقالت منى :

ــ كل عام يقول هذا .

ــ هذا العام يبدو جاداً .. إنه يريد أن نقيم هناك فى « جرينوبل » .. وهو ينتظر خطاباً بالموافقة على تعيينه فى جامعة « جرينوبل » .. وأمى طبعاً تشجعه .

وتساءل عصام فى دهشة :

ــ أحقاً هذا يامنى ؟

ــ لا تصدقها .. قلت لك كل عام يقول هذا .

وأردفت نادية :

ــ إن صدره قد ضاق .. بعد خروجه من الجامعة .. وحالته المعنوية سيئة .. وماما تريد الذهاب لزيارة أهلها .. فقد مضى علينا خمسة أعوام بعد آخر زيارة .

وقاطعتها منى :

ـــ إن أقصى ما سنفعله هو أن نذهب لقضاء بضعة أشهر كما فعلنا آخر مرة .لا تصدق أن إلى سيتعين فى « جرينوبل » . كلام فارغ .

ونظرت « نادية » إلى الساعة فوجدتها قد قاربت السادسة والنصف .. فهبت قائلة :

ـــ هيا بنا .. لقد أوشك المدفع على الضرب .

وسأل عصام منى :

ـــ أتحضرين غداً للعوم !؟

وهزت منى رأسها هزة إيجابية .

وسأل صبرى نادية مردداً :

ـــ وأنت يا نادية أستحضرين ؟

وأجابت نادية :

ـــ يمكن .

وتحركت التوءمتان فى طريقهما إلى البيت .. واحدة بشعرها المقصوص وخطواتها الخفيفة ولفتاتها المرحة ، والأخرى بضفيرتها المدلاة وخطواتها المتزنة وسيرها المتئد .

(٥)

صدمة تطهير

كانت الشمس قد بدأت تنحدر نحو الأفق الغربى عندما غادرت « نادية » و « منى » النادى متجهتين إلى الدار ولم تكن الدار تبعد كثيراً عن النادى .. كانت إحدى « الفيلات » المتوسطة ذات الطابق الواحد التى يمتلىء بها حى منشية البكرى .. وكانت تقع على شريط « المترو » ، وتحيط بها حديقة متوسطة تناثرت بها أشجار البرتقال والمنجة والجوافة والأحواض التى ما زالت بها بقايا زهور الشتاء الجافة المعشوشبة ، والنخيل قد تكاثف حولها فى إهمال وغزارة ..وخرطوم ممزق .. تنساب مياهه وسط النجيل ، وتتسرّب إلى الأحواض ، ويحد الحديقة سور حديدى قديم متوازى القضبان قد تخللته أغصان الجهنمية من ناحية الشارع المطل على المترو ، ويحدها من الناحية الخلفية سور من الحجر تشقق بياضه وتفتتت مونته من نشع الحديقة .

والبيت يبدو ، وقد لوَّحت الشمس لونه ، فأحالت طرطشته الحمراء إلى لون بنى كالح . وفى مواجهة الباب الحديدى العريض يقوم الدرج الرخامى الذى حددت حافتيه أحواض الجارونيا ورصت على جانبيه قصارى اللاتانيا .. وينتهى الدرج بشرفة متسعة قامت على أعمدة تسلق على أحدها عود من الياسمين ظلل بأوراقه المتكاثفة أخذ جوانب الشرفة .

ويفضى باب الشرفة إلى قاعة مربعة رص بها طقم جلدى ضخم عتيق ، وشيدت على جانبها الأيمن مدفأة من الصولناجة وعلقت فوق المدفأة صورة كبيرة ملونة لقبطان فرنسى تتأبط ذراعه سيدة بدينة غطت القبعة نصف وجهها . وكانت الصورة مع صورة أخرى خشبية بارزة لكوخ فوق جبال

الجليد هي كل بقايا ذكريات الأم الفرنسية من وطنها القديم .

وفى القاعة تناثر من الأثاث كل ما يحتمل أن نراه فى قاعتنا ، منضدة عليها زهرية .. ومشجب فى الحائط علقت عليه عصا الأب .. «وشبشب» الخادمة وراء الباب .. وصحف ومجلات ملقاة على أحد المقاعد .

وعلى يمين القاعة حجرة استقبال .. يملأ نصفها بيانو .. عريض ورثته الأم عن أمها السمينة المعلقة صورتها فوق المدفأة بجوار القضبان والنصف الآخر من الحجرة رصت فيه المقاعد والأرائك التى ترص شبيهاتها من الحجرات فى بيوتنا .

وعلى يسار القاعة حجرة مكتب .. هى فى الوقت نفسه حجرة نوم للأب .. بعد أن تحوّلت الأريكة الموضوعة فى الركن إلى فراش بمضى الاستعمال .. والحجرة بعد هذا لا تزيد على حجرة أى أستاذ فى الجامعة .. كتب فى رفوف معلقـــة على الجدران .. أو مـــرصوصة فى دولاب .. او مبـــعثرة على مكتب ..وملابس ملقاة هنا وهناك .. فردة حذاء مقلوبة وشراب أسفـل أريكة .. وجرنال يطارده الهواء في أرض الحجرة عابثا بأوراقه .. وساحـة الحجرة ميدان مستمر لمباراة بين رب البيت وأهله .. فى النكش والتسوية، واللخبطـة والترتـيب .. وهـو يـعثر وهـم يلمـون ، وهـو يفـركش وهـم يساوون ..وهو يدّعى أن تسويتهم لخبطة .. وأنهم يجب ألا يمسوا ممتلكاته .. والأم تؤكد له أن الحجرة جزء من البيت ، وأنها لابد أن تخضع لنظام النظافة والترتيب فيه .

وأخيرا استطاع أن يخرج من المكتب بمحتوياته من دائرة نفوذ أهل البيت ، وأن يحصل على ضمان بعدم مس كل ما يدخل فى نطاقه مهما بدا قذراً مبعثراً، بعد أن أقـنع الأم بأن أى تغيير فى نظام المكتب أو نقـل لما به من أوراق وكتب .. يعتبر عبثاً خطيراً بكل ما يعدّه من محاضرات ودراسات .. وتشتيتاًلأفكاره ، وأن ما تراه هى بعثرة إنما يراه هو أجدى طريقة فى التنـظيم .. وأن يجد كل شيء

مبعثراً فى المكان الذى تركه فيه ، من أن يفقده منظماً فى مكان لا يعرفه .

وفى مواجهة القاعة باب زجاجى يؤدى إلى دهليز يقع فى نهايته السلم الخلفى المؤدى إلى الحديقة والسطح ، وعلى يمينه المطبخ والحمام وحجرة تستعمل للطعام وللجلوس والخياطة والثلاثة أرباع الأعمال التى يعملها أهل الدار ، وقد وضعت بها أريكتان وتوسطتها منضدة فرش عليها مشمع ، وفى ركن منها ماكينة خياطة ودولاب به كل ما يمكن أن يخطر على البال مما يلزم الأسرة ومالا يلزمها ، من جرائد قديمة إلى زجاجات فارغة إلى ملابس إلى علب ألوان ، إلى حبوب عصافير، إلى عرايس قديمة ، إلى ألبومات صور ، إلى كل ما يخطر أو لا يخطر على بال .

وتواجه الحجرة المختلطة حجرة التوأمتين ذات الفراش المشترك ، والدولاب ، والشفونيرة ، والمكتبين الصغيرين .. أحدهما نظيف مرتب ، والآخر قد بعثرت فوقه الكتب . وتناثرت الأوراق ، واختلطت المحبرة بعلبة البوردة ، والقلم بإصبع الأحمر ، وألقى على مقعده منشفة ، و « سوتيان » صغير .

وبجوار حجرة التوءمتين تستقر حجرة الأم بباب يفضى إلى حجرة المكتب التى يستقر فيها الأب .. ويبين الباب طبيعة العلاقات بين الأم والأب ، إذا كان مفتوحاً فالعلاقات طيبة ، وإذا أغلق فسوء تفاهم مستحكم .

وحجرة الأم .. تكاد تكون مستقلة عن جميع حجرات البيت فى طابعها .. وهى تعبر تعبيراً جيداً عن طبيعة الأم .

كانت الأم « مدام لورا » ، أو « مدام فاضل » مخلوقة منطوية ، طيبة القلب .. التقت بالأب ، وهو يدرس فى جامعة « جرينوبل » فى جنوب فرنسا ، وكان لقاؤهما خلال عام ١٩٣٨ .

وكانت تعمل وقتذاك فى سكرتارية المدرسة ، وقد جمع بينهما القرب فى المدرسة والقرب فى السكن حيث كانا يقطنان فى حجرتين متجاورتين فى بيت امرأة عجوز فى أحد أطراف المدينة .

وكان موطن « لورا » فى جاب .. إحدى البلاد الصغيرة فى منطقة الألب

العليا جنوب جرينوبل .. وكانت تذهب لزيارة أمها خلال العطلة الأسبوعية فى أيام الدراسة .

وأنشات الغربة والجيرة بين الاثنين نوعاً من الألفة . وطدت الصداقة بينهما ، وتطورت الصداقة إلى حب .

وتردد « فاضل » فى اتخاذ خطوة إيجابية لتحديد علاقتهما فقد كان هناك شبه ارتباط بينه وبين « ابنة عمه » فى مصر .. وكانت الأسرة تأمل عند عودته أن يتم الزواج .

ولكن نشوب الحرب ، وزيادة فترة البعد ، والإحساس باليأس من العودة فى هذه الظروف القائمة ، وعدم ظهور أية بارقة تنبىء بحالة سلام .. وازدياد علاقة الحب .. وتطورها إلى علاقة أكثر من مجرد تبادل شعور .. جعله يتخذ قرارا بتحديد العلاقة على ضوء الواقع .. وانتهى الأمر بهما إلى الزواج .

وقضى الاثنان الأشهر الأولى من زواجهما فى بيت « لورا » فى جاب .. وأمضيا فى البيت الصغير المقام وسط المزارع على سفح الجبل .. أسعد أيامهما .. كان كل شىء حولهما ممتعاً .. رغم ظروف الحرب التى لم تستطع أن تمنع الثلوج من الذوبان ، ومياه الشلالات من التدفق على سطح الجبل ، ومياه البحيرة من الانسياب حول شواطئها .. ولا استطاعت أن تمنع البراعم من التفتح ، والزهور من أن تغطى هام الشجر .

ووضعت « لورا » التوءمتين .. ومضت بضع سنين والأربعة يعيشون بين « جرينوبل » و « جاب » فى جبال الألب العليا ، حتى سنحت فرصة للعودة إلى أرض الوطن ، فحمل الأب زوجته وابنتيه .. وعاد إلى القاهرة .

وفوجئت الأسرة بعودته ، وفوجئت أكثر بحمله .. وعندما خفت مظاهر الفرحة بعودته برزت مظاهر التبرم بحمله والثورة على فعلته الحمقاء ، وأخذ الوجوم يحيط بالأسرة الصغيرة ، والتجهم يزداد حولها .

و لم تستطع الأسرة الكبيرة أن تخفى خيبة أملها فيه ..

وتطور الأمر إلى شبه مقاطعة ، وقادت الحملة عليه أخته « زكية » صديقة « ابنة عمه » .. التى كانت الأسرة قد وطدت أمرها على زواجه بها .

وأحست « لورا » بنفور الأسرة منها ، وهى بطبعها مخلوقة سلبية صامتة .. فانطوت فى بيتها تعيش فى شبه عزلة مع زوجها وتوءمتيها .

ومرت الأيام ، ونمت التوءمتان ، تكاد كل منهما تكون صورة من الأخرى ، وتكاد الاثنتان تكونان صورتين مصغرتين لأمهما .. نفس الشعر والأعين المتسعة الخضر ، والحواجب الكثة المقرونة والأهداب الطويلة والشفاه الممتلئة.

ولم تستطع الأم أن تؤثر فى ابنتيها ، كما تفعل كل أم أجنبية .. فقد كانت شخصية الأب أقوى وأطغى .. وكانت « لورا » شديدة الحب له والتأثر به .. فبدت هى الفرنسية الوحيدة فى البيت ، عدا أثاث حجرتها ، والصورة المعلقة فوق المدفأة والبيانو الذى يملأ حجرة الاستقبال .

وخلال تلك المدة لم تعد إلى « جاب » سوى مرة واحدة لزيارة أمها .. وقضت هناك عطلة الصيف هى زوجها وابنتاها ، ثم عادوا جميعاً مع بدء الدراسة ، وأحست فى قرارة نفسها أن موطنها لم يعد « جاب » ، وأن موطنها هنا .. فى البيت الصغير المقام عند شريط المترو .. وأن كيانها أصبح مرتبطاً .. بالمخلوقات الثلاثة التى تعيش من أجلها ، زوجها وابنتيها .

مرت السنون ، ونمت طفلتاها ، وترهل جسدها .. ووخط الشيب شعر زوجها ، وعمقت التجاعيد حول عينيه .

ولا شىء أكثر من ذلك .

لا تغيير عميقاً فى جوهر حياتها .

نفس النفور والقطيعة والخصومة من الأسرة ، ونفس الانطواء فى بيتها ، ونفس السلبية .. إزاء أقرب الناس إليها وإزاء نفسها .

وحدثت الثورة ، وتبدلت أوضاع كثيرة فى مصر ولكنها لم تحس بشىء .

وكان يمكن أن تستمر حياتها على نفس الرتابة والبساطة حتى حدثت لها أول

صدمة .. عندما خرج « فاضل » من الجامعة .

ولم يكن خروجه فى حد ذاته .. يعنى صدمة بالنسبة لها ، ولكن صدمته هو بالخروج ، هو الذى هد كيانها .

كان وقع الخروج على « فاضل » شديداً .. فقد كان يحس أنه يحب عمله ، وأنه قد كرَّس له حياته ، ووضع فيه كل أمله . ولم يحس قط أنه قصر ، أو أخطأ .. وكان شديد التحمس للثورة والترحيب بكل أعمالها .. من خلع ملك ، إلى إلغاء ألقاب ، إلى تحديد ملكية ، إلى .. إلى ...

حتى خرج من الجامعة !

وكيف !!فى التطهير !

وبعد كل هذا التحمس للثورة ، والإخلاص فى عمله ..

وجد نفسه على قارعة الطريق ، كأنه مذنب .. لابد للثورة أن تطهر البلد منه ، حتى تستقيم أمورها .

كانت آماله كثيرة ضخمة .. كان مساعد أستاذ .

وكان كرسى الأستاذية أمامه خالياً يوشك أن يتربع عليه .

ولكنه بدلاً من أن يتربع عليه تربع على الرصيف .

ولم يستطع أن يتحمل الصدمة ، فأصابته ذبحة صدرية .

ورقد فى الفراش . وساد البيت وجوم وكآبة .. وأحست الزوجة الفرنسية الطيبة بخطورة حالته ، وأحست أن سندها فى هذه الدنيا الفارغة الواسعة .. يوشك أن يتخلى عنها ، ليتركها عزلاء مع ابنتين « زغب الحواصل ، لا ماء ولا شجر » .

وبدت فى الدار تائهة .. تصلى بكل لغة . ولكل إله .

حتى منَّ الله عليه بالشفاء .

وشفى من علته ، ولكنه لم يشف من سخطه .

وفى هذه الساعة كان يجلس فى حجرته .. وقد تمدد فوق الأريكة بالبيجامة ، وانهمك فى القراءة .

وبدا جسده نحيلاً ، ورأسه قد خف شعره .. وبدت ملامحه التى تعودت على الإبتسام ، وقد كستها مسحة مرارة لا تكاد تفارقها .

وسمع وقع اقدام تصعد السلم الرخامى ، وعرف من خفة وقعها .. أقدام أخيه « سليمان » .. وأكدها له العربة الكاكية التى لمحها من النافذة تقف أمام باب الحديقة .

ووضع « فاضل » الكتاب الذى فى يده جانباً .. ورفع يده فخلع منظاره .

وسمع وقع أقدام زوجته تتجه إلى باب الشرفة الخارجية .

وعلا صوت سليمان يقول ضاحكاً :

ـ كيف حالك ؟ أما زلت صائمة ؟

وهزت « لورا » رأسها مؤكدة فى لهجتها الفرنسية :

ـ طبعاً صايمة .. إنه نذر .

ـ أول فرنسية أراها تنذر الصيام .. إنه صيام مسلمين ، وربنا لن يقبله منك ، إذا لم تسلمى .

ـ إنه ربنا جميعاً ، وأنا أومن به كما تؤمن به أنت ، ولست أحس أن هناك أى خلاف بيننا .

ـ مضبوط .. معك حق .. أين فاضل ؟!

ـ فى حجرته .

ـ والبنات ؟.!

ـ فى النادى .

ـ نادى ؟!

فنظر إلى ساعته وأردف متسائلاً :

— ألسن صائمات ؟

— نادية فقط .

— ومنى ؟!

— تصوم يوم ، وتفطر عشرة .

— ولكن نادية تأخرت .. إن موعد الإفطار قد قرب !

— لابد أنهما فى الطريق .. لقد كان لدى « منى » مباراة فى « الفولى » .

— فولى !! ألم نقل إنها يجب أن تكف عن كل ما فيه إجهاد لها !

— لقد قلت لها هذا .. ولا أريد أن أكثر عليها بالتحذير فإنى أحس أنه يؤثر عليها تأثيراً عكسياً .

— كيف ؟

— إنه يخفض من روحها المعنوية .. ويجعلها تحس أنها مريضة دائماً . إنى أنصحها من آن لآخر .. بألا تجهد نفسها ، لأن قدرتها محدودة .

— مسكينة هذه البنت !

وقبل أن يدخل إلى القاعة بدت الفتاتان على الباب .. ولم تكد « منى » ترى سليمان حتى اندفعت تعدو من الباب صائحة فى فرح :

— « أنكل » سليمان !

وفتح سليمان ذراعيه قائلا ، وهو يضحك :

— بالحضن .

ووقفت « منى » أمامه وهى ترفع إصبعها محذرة :

— عيب يا أنكل سليمان .. لقد كبرت .

وجذبها سليمان من ذراعها وضمها إليه .. وقبلها فى خدها وهو يقول :

— كبرت علىّ .. سأظل أحضنك حتى بعد أن تتزوجى .

ووصلت « نادية » فمد سليمان يده إليها وضمها إليه وقبلها كما فعل مع « منى » . ثم قال :

ـــ وأنت أيضاً. حتى بعد أن تتزوجى .

وضحكت « نادية » وهى تستسلم إلى ضمته .. وقالت وهى تتساءل محذرة :

ـــ وحتى بعد أن تتزوج أنت ؟

وضحك سليمان وقال :

ـــ إذا كنت سأتزوج امرأة طيبة كأمك فسأحضن نساء الأرض جميعاً أمامها .

وضحكت الأم قائلة :

ـــ هيا بنا .

واتجه سليمان إلى حجرة أخيه وتصافح الأخوان فى شوق ومحبة ، وسأل سليمان :

ـــ كيف الحال ؟

وهزّ « فاضل » كتفيه وكست ملامحه نظرة الضيق والسخط واليأس وقال :

ـــ الحمد لله .. الذى لا يحمد على مكروه سواه .

ـــ لماذا كل هذا السخط يا أخى ؟ !

وقبل أن يجيب « فاضل » سمع دوى مدفع الإفطار وأقبلت « نادية » تنادى :

ـــ تفضلـــوا .

(٦)

مصرية

جلست الأسرة إلى مائدة الإفطار ، ووقفت الخادمة تنتظر فى قلق بعد أن رصت آخر صحاف الطعام . وقبل أن يمد أحدهم يداً إلى المائدة قالت الأم للخادمة :

ــ اذهبى يا عطيات لتفطرى مع دادة فاطمة .

وكانت « فاطمة » خادمة لازمت الأسرة الكبيرة منذ طفولتها ، ثم تزوجت وطلقت فعادت مرة أخرى للخدمة فى بيت « فاضل » بعد عودته من فرنسا ، وتولت تربية التوءمتين وخدمة الأسرة كل هذه السنين فى رضاء وإخلاص . وكانت مجدة دءوباً لا يكاد يعيبها شيء إلا حبها للباعة المتجولين والمكوجية والبقالين وجميع أصناف الرجال الذين يفدون على الدار .

ولم يكن على المائدة أى أثر من آثار الأم .. كانت مائدة إفطار مصرية مائة فى المائة .. بما فيها من دورق « قمر الدين » وأطباق « الكشك بالفراخ » .. وصينية « البطاطس » وأطباق الخشاف وطبق القطايف ..

وتناول سليمان كوب « قمر الدين » ومصمص بشفتيه فى استطعام وقال للأم :

ــ قمر الدين لذيذ جداً ، لا يعقل أن تعمله ربة دار فرنسية !

وضحكت « منى » قائلة :

ــ « فرنسية إيه يا أنكل سليمان ؟ » . إنها لم تعد فرنسية .لقد قال عنها عصام .. إنها فرنسية من تحت الربع .

ورد فاضل وهو ينظر إلى « لورا » ضاحكاً :

ــ معه حق .. لولا لكنتها لما صدق أحد أنها فرنسية .

واعترض سليمان قائلا :

ــ وشعرها الأصفر وعيناها الخضراوان ؟!

— لدينا من هذا الكثير .. فى المنصورة .

وأحست الأم بعض الارتباك وهى تجد نفسها محل فحص وتعليق وردت معترضة :

— إذا كان هذا من أجل « قمر الدين » فأنا لم أصنعه .. إن التى صنعته نادية .

ورد سليمان :

— برافو نادية .. ست بيت مدهشة .

وأجابت « نادية » فى تواضع :

— إنه ليس عملية عسيرة .

— ولكنها تحتاج إلى ضبط .

وتدخلت « منى » قائلة فى سخرية :

— هى كيميا ؟ ..

وأجابها سليمان فى تحد :

— أتستطعين أن تعملى مثله ! ؟

— لو أردت لعملت .

— ولماذا لا تجرّبين ؟ !

— ليس لدىّ وقت .

— ماذا يشغلك ؟ !

— أشياء أخرى أهم كثيراً من « قمر الدين » ..

— مثل ؟

— مؤتمر باندونج .

وضحك سليمان وتساءل فى سخرية وهو يغرس الشوكة فى قطعة من اللحم :

ـــ هل اشتركتِ فيه ؟!

ـــ طبعاً ..

ـــ وما رأيك فى التعايش السلمى ؟

ونظرت « منى » إلى « نادية » وسألتها ضاحكة :

ـــ ما رأيك أنت يا نادية .. ماذا قال صبرى عنه ؟..

وضحكت « نادية » وأجابت :

ـــ التعايش السلمى هو ما أفعله أنا .. وأنت .. نرقد فى فراش واحد ، ونجلس متجاورتين على المائدة ، وفى الفصل ، وفى كل مكان نحل به .. ولكل منا مذهبها فى الحياة .. لا تفعل إحدانا ما تفعله الأخرى .. ولا تحب ما تحبه .. ولكن بلا عراك .. ولا قتال ولا جدال .

وعلق الأب وهو يهز رأسه :

ـــ ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم .. ولا أنتم عابدون ما أعبد .. لكم دينكم ولىَ دين ﴾ .

وتساءلت نادية :

ـــ كما تفعل أنت مع ماما ؟

ـــ بالضبط ..

ـــ إن بيننا إذن مثل للتعايش السلمى .

وتساءلت منى :

ـــ وما دخل التعايش السلمى فى مؤتمر باندونج ؟!

وأجاب سليمان :

ـــ إنه أهم مبادئه .

ـــ آه .. قلت لى ..

ـــ أعرفت إذن أنك لا تفهمين فى « قمر الدين » .. ولا فى مؤتمر باندونج .. وأن نادية تفهم فى كليهما !

وأجابت « منى » ضاحكة :

ـــ ومع ذلك سأخطب قبلها .

ورفع الأب رأسه المطرق المحدق فى الطبق الذى أمامه . ونظر إلى « منى » فى شىء من الدهشة .. وكست وجه « منى » لمحة من الحياء ، ولكنها سرعان ما بددتها وقالت فى جرأة :

ـــ أجل .. إن عصام قرر أن يخطبنى .

وتدخلت الأم فى الحديث قائلة فى شبه زجر :

ـــ « منى » .. هذه الأشياء لا يمزح الناس فيها .

ـــ أنا لا أمزح .. لقد قال لى عصام إنه سيخطبنى إذا ما تخرّج .

وصمتت برهة ثم وجهت بصرها إلى سليمان وأردفت قائلة :

ـــ بشرط .

وتساءل سليمان ضاحكا :

ـــ ما هو ؟!!

ـــ أن تلحقه بسلاح الفرسان ..

ـــ وما دخله هو بالفرسان ؟!

ـــ لقد التحق بالكلية الحربية .

ـــ عصام ابن الست « أسما » جارتكم ؟!

ـــ أجل ..

ـــ ألم يكن يدرس فى الحقوق ؟!

ـــ لقد تخرّج والتحق بالكلية الحربية .. وسيتخرّج قريباً .. ليصبح نائب أحكام ، وهم يلحقونهم أولا بمختلف الأسلحة وهو يريد أن يكون فى الفرسان ..

وهز سليمان رأسه قائلا :

— فهمت .. إذا كانت المسألة هكذا .. فبسيطة .. لقد ضمنا لك خطيباً ، والدور على نادية ..

وأجابت نادية :

— إنى سأتمم دراستى ..

وقال الأب وهو يلوك لقمة فى شدقيه :

— ومنى أيضاً ستتم دراستها .

وأجابت منى :

— لقد زهقت من الدراسة .

ورد الأب فى لهجة جادة :

— ستتمان الدراسة سوياً فى « جرينوبل » .

وضحكت « منى » وصاحت فى مرح :

— إذا كان الأمر كذلك .. فأنا مستعدة أن أتمم دراستى .

ونظر إليها سليمان وتساءل ضاحكا :

— والعريس !؟

— ينتظر حتى أعود .. لقد قال لى إن أمامه وقتاً طويلا حتى يستقر أمره ويصبح له مرتب معقول يؤهله لفتح بيت .. فحتى يجتاز وقت المرمطة .. أكون قد عدت إليه .

— وتتركينه يتمرمط وحده ؟!

— إذا كان يجب أن يذهب معنا إلى جرينوبل .. فليس لدّى مانع .. أما أن ألاحقه فى العريش ورفح وغزة .. فيفتح الله .

وضحك سليمان وهو يقول :

— طول عمرك .. بلا صاحب .. لا تؤمَنين .

— لماذا ..؟ إذا كان هو يرضى بذلك .. فما شأنك أنت !!

وكانت « نادية » تبدو شاردة الذهن .. وهى تقلب قول الأب فى

رأسها .. و لم تكد « منى » تنتهى من قولها حتى تساءلت « نادية » فى صوت خافت :

— ولماذا لا نتم دراستنا هنا .. فى الجامعة ؟!

وأجاب الأب فى كلمات مقتضبة :

— لأننا سنذهب لنعيش هناك .

وتبادل الجميع النظرات .. وسألت « منى » أمها :

— حقيقة يا ماما ؟

وهزت الأم كتفيها قائلة فى استسلام :

— كما يريد أبوك ..

ونظر سليمان إلى أخيه نظرة فاحصة وسأله :

— أتقول حقاً يا فاضل ؟!

— أجل ...

— ولِمَه ؟!.

— لأنى سأعمل هناك .. لقد أرسلت إلى مدير الجامعة هناك .. وكان أستاذى .. وأتوقع الرد بين حين وآخر ..

— هب أنه أتى بالرفض ؟!

— لا أعتقد .

— على أية حال نرجو نحن أن يكون بالرفض .

— ولماذا ؟!

— لأنه ليس هناك أبداً مبرر لسفركم .

— وهل هناك مبرر لبقائنا ؟!

— طبعاً .. إنه بلدك .

— لا أحد يريدنى فيه .

— من قال هذا ؟!

ـــ قالته الجامعة التى فصلتنى .

ـــ هذا ليس معناه أن البلد لا يريدك !

ـــ أتظن البلد الذى يرانى غير صالح فى مهنتى الأصلية .. ولا يأتمننى على عملى .. وعلى طلبتى .. أتظنه يريدنى ؟!

ـــ لماذا تقول البلد .. ولا تقول عميد الكلية .. أو بعض الأساتذة !! لماذا تجمع البلد كله فى شخص هؤلاء ؟!

ـــ لأن البلد لم ينصفنى منهم .. أتستطيع أن تذكر لى لماذا أخرجونى فى التطهير ؟! أأنا غير منتج ؟ لقد ألفت من الكتب ما يعلو هامتك .

ـــ لم يقل أحد هذا .

ـــ ألأن زوجتى فرنسية ؟ لماذا إذن لم يخرجوا كل الذين زوجاتهم فرنسيات ؟! ألأننى أعطى دروسا خاصة .. لماذا لم يرفدوا كل الذين يعطون دروساً خاصة .. ألأننى ..

ـــ أنت تعرف لماذا خرجت .. وتعرف الذين وشوا بك ، والذين كانوا ينافسونك على كرسى الأستاذية .. أنت تعرف كيف كالوا لك التهم ..

ـــ ولماذا أوخذ بتهمهم ؟!

ـــ لأن من العسير تبيان الحقائق من الأكاذيب .. لقد اختلط الباطل بالحق فى عمليات التطهير .. ووجدت النفوس الدنيئة مرتعاً لها ترتع فيه بالوشايات والنمائم والمكائد .. وكان من المستحيل .. منع عمليات الظلم أن تحدث .. أو عزل البرىء عن أكوام المذنبين .

ـــ لماذا لم تحاول أنت أن توضح لهم .. أنت ضابط .. وصديق لمعظمهم ؟!

ـــ من قال لك إنى لم أحاول .. لقد حاولت .. واقتنع بعضهم .. ولكن التراجع فى حالة واحدة .. يجر وراءه الحالات الباقية .. وتصبح عملية التطهير كلها عبثا فى عبث .. . ومع ذلك . لماذا تستمر على هذا السخط ، وأنت قد

عوّضت عن حالتك .. إنك الآن تربح أكثر مما كنت تربح فى الجامعة .. لقد عينت فى شركة إير فرانس .. وأنت تعطى دروساً فى الليسيه .. وتعطى دروساً خاصة .. ومجموع مرتبك من كل هذا .. أكبر من مرتبك فى الجامعة .

— ليست المسألة مسألة مرتب يا سليمان

— ماذا يضايقك إذن ؟!

— مرارة التهمة الباطلة .. ألم الظلم .. هل تظنها هينة على نفسى أن أظل حياتى مدموغاً بوصمة التطهير ؟! أتظنه سهلا على نفسى أن أترك بناتى يقال عن أبيهن إنه مطرود فى التطهير ! ماذا أمام الناس عندما يسألوننى لماذا طردت ؟ حرامى .. أم فاسق .. كيف يكون ردّى !؟

— يا أخى الذى يعرفك .. يعرف حقاً من أنت . ولن يتساءل لماذا خرجت .. لأنه واثق أنك لست حرامياً ولست فاسقاً .. والذى لا يعرفك لن يهمه لماذا خرجت .. أما الذين يكوهونك .. فسيقولون عنك .. لص وفاسق .. سواء

أطردت من الجامعة .. أم وليت على إدارتها .

— إنك تقول هذا لأنك لم تجرّب !

— وماذا سيفيدك السفر !

— سأعيش فى جو آخر .. لا يقابلنى فيه كل يوم إنسان يسألنى .. لماذا خرجت .. ولا ألقى فى كل يوم شامتاً أو معزياً .

— أمن أجل هذا تترك بلدك .. وتفضل عليه الغربة ؟!

— ليست غربة بالنسبة لى .. لقد عشت فيها خمس سنوات .. وهى بلد امرأتى .. أم بناتى .. وسأحصل فيها على مركز محترم ومرتب ضخم . سأكون أستاذاً . لا طريد تطهير .

— والبنات ؟.

— مالهن ؟ .. ستدخلان جامعة من خير الجامعات .

ـــ وتعيشان بعيداً عن أهلهما .. ووطنهما ؟!

ـــ هب أنهما فى بعثة دراسية .

ـــ وبعد الدراسة ؟!

ـــ يفرجها ربنا .

ـــ إن حياتهما .. هنا فى بلدهما ، إنهما ستتزوجان هنا !!

ـــ لم يزل الوقت مبكراً .. على الزواج .

ـــ ولكن فرصتهما تبدأ من الآن !!

ـــ الفرصة لن تضيع منهما .. ستجدان حظهما فى أى مكان .

ـــ ولكن فارقاً بين أن تجداه فى وطنهما .. وأن تجداه خارجه .. إنهما فوق كل اعتبار مصريتان ، ولا بد أن تتزوجا مصريين .

ووجه سليمان القول إلى الأم متسائلا :

ـــ أليس كذلك يا لورا ؟!

وهزت « لورا » رأسها وقالت مؤكدة :

ـــ أجل .. أنا أعرف هذا تماماً .. وما حاولت قط أن أحوّلهما عن هذا .

وضحكت « منى » قائلة :

ـــ لقد حوّلناها نحن عن فرنسيتها ، لقد أضحت مصرية ، من تحت الربع أيضاً .

وتساءل سليمان :

ـــ إذن لماذا تتركينه يقول هذا ؟!

ـــ ولماذا أناقشه !! والرد لم يصل بعد من الجامعة .. ألا يحتمل أن يكون بالرفض .. فأوفر على نفسى المناقشة .

وضحك سليمان وقال :

ـــ معك حق .. وفرى مناقشتك إلى حينها .

وقبل أن ينهض عن المائدة ، وهو يلتقط آخر « زبيبة » فى طبق الخشاف قالت

له « منى » :

— لا تنس أن تطلب « عصام » فى الفرسان !؟

وضحك سليمان قائلا :

— « تانى » !

وتفرّق الجميع من حول المائدة .. ما عدا « نادية » فقد جلست مطرقة شاردة .. وقول سليمان يدور فى رأسها :

— « فارق بين أن تجده فى وطنها وأن تجده خارجه .. إنها فوق كل اعتبار مصرية .. ولا بد أن تتزوج مصرياً » .

وتخيلت المصرى .. الطويل القامة ، العريض المنكبين الأسمر الوجه . وأحست أنها لا تستطيع أن تحيا فى أرض .. لا تطؤها قدماه .

(٧)

بصيص يخبو ..!

بعد بضعة أسابيع ، كان الدكتور « مدحت » يغادر غرفة العمليات بمستشفى الدمرداش .. عقب إحدى عمليات الجراحة ، أو « الجزارة » كما كان زملاؤه يسمونها .

واستلقى « مدحت » على « فوتيل » فى حجرة مكتبه .. مرخياً أعصابه بعد ثلاث ساعات من الشد والتوتر .. وكانت الحجرة الصغيرة تطل على الشارع الجانبى للمستشفى المقاطع لشارع رمسيس .. وبين آونة وأخرى كانت تقطع استرخاءته أصوات الباعة وزوّار المرضى الذين تدفقت زرافاتهم متجهة إلى الباب الخلفى للمستشفى .

ـــ وأغمض « مدحت » عينيه برهة ليفتحهما على أقدام تطرق أرض الغرفة وصفير يعلو فى أرجائها .. وصوت زميله « جاد الله » يصيح به :

ـــ صح النوم .

ونظر إليه « مدحت » فى غيظ ، وتساءل :

ـــ ماذا تريد ؟ ..

ـــ الساعة قد قاربت الثانية !

ـــ لتقارب الثانية ! أو الثالثة :

ـــ والذين ينتظروننا فى النادى !

ـــ من هم ؟

ـــ لا تحاول أن تدعى ضعف الذاكرة كالعباقرة .

ـــ لست عبقرياً .. ولا أذكر شيئاً من هذيانك .

ـــ هذيانى أنا .. ألم تدع « ميرفت » وخالتها للغداء معنا اليوم فى

النادى .. ثم نشاهد حفلة السباحة ؟!

ـــ اليوم ؟!

ـــ أجل .. اليوم

وضغط « مدحت » جبينه يا بهامه وسبابته كأنه يحاول طرد الإعياء الذى حل به .. وأجاب فى غير اكتراث :

ـــ أظننى دعوتهما .. لكنى ...

ـــ ماذا؟!

ـــ متعب .. لماذا لا تصحبهما أنت ؟!

ـــ أنا لا أدعو أحداً للغداء .. إنى أستطيع أن أصحبهما فقط لحفلة السباحة .

ـــ سأدفع لك حساب الغداء .

ـــ معقول .. لولا أنى أعرف أنهما يريدانك أنت، .. أو على الأقل .. واحدة منهما .

واعتدل « مدحت » فى مقعده وقال فى لهجة جادة :

ـــ اسمع يا جادالله .. إنى لا أريد أن أعبث بأحد أو أخدع أحداً ..

ـــ ومن قال إنك تعبث أو تخدع !.

ـــ أنت تعرف أنها من أسرة طيبة .. وتعرف أن صلتى بأسرتها نشأت بعد أن أجريت لأمها عملية المرارة ، وأجريت لها عملية الأعور .

ـــ وماذا فى ذلك !؟

ـــ وتعرف أيضاً أن ثمة استلطافاً نشأ بينى وبينها .

ـــ الحمد لله .. لقد اعترفت أنت بنفسك .

ـــ ولكنه لم يكن من جانبى أكثر من استلطاف .

ـــ يكفى هذا .

ـــ ولكنه كان .. من جانبها .. مشروع حب .. ومن جانب الأسرة .. . مشروع زواج .

ــ ولِمَ لا !!

ــ لأنى لا أريد الزواج .

ــ يا غبى .. ترفس النعمة بقدمك .. ترفض ثلاثمائة فدان وعمارتين وأبوها يستطيع أن ينفعك فى مستقبلك .. إنه قد يصبح فى أى وقت عميد كلية مدير جامعة أو وزير صحة !

ــ لا يهمنى أبوها .

ــ ومع ذلك فالفتاة نفسها ليس بها عيب .. وأنت نفسك قلت إ تستلطفها فلماذا تترك الفرصة تفلت منك ؟!

ــ لأنى أكره أن أقيد نفسى .. أنت تعرف أنى أمضى ثلاثة أرباع يومى هنا المستشفى .

ــ ومن أجل هذا يجب أن تجد ما ينقذك من هذا الهوس الذى تعيش فيه .. حياتك أضحت عملية سرطان مستمرة . ولا أحد يسأل عنك أو يسمع منك إلا بضعة « الغلابة » الذين تمزق أجسامهم وتتركهم أنصاف آدميين .

ــ ولكنهم أحياء .

ــ حياة مزعجة .. أنا أفضل الموت على حياة بلا مرىء أو معدة .

ــ أنت مغفل .

ــ وأنت مجنون .. لماذا لا تريح نفسك .. وتريح المرضى .. وتفعل كما أفعل

ــ لأنى جرّاح .. ولست محتالا .

ــ يا أخى .. هناك جرّاحون كثيرون مثلك .. ولكنهم لا يفعلون ما تفعل الجراحة تقول لك .. افتح . وانظر .. ولا تقول لك .. افتح ، ومزّق .

ــ اسمع .. أنا لا أريد أن أناقشك .. أنت إنسان جاهل .. وتجيد الابت والمعاملة أكثر مما تجيد الطب

ــ كل الناس عندك جهلة !!

ــ فعلا .

ـــ إذن قم بنا يا حضرة العالم .. لأن الموعد أوشك أن يحل ، ولا داعى لأن تدع الفتاة تنتظرك .

ـــ قلت لك إنى متعب .. ثلاث ساعات .. وأنا واقف على قدمى .

ـــ ستستريح فى النادى .. ستتغدى .. وتشاهد حفلة السباحة .. وتلعب لك دورين « كروكيه » ثم تواصل جهادك فى تمزيق أعضاء الخلق وتقطيع أوصالهم .. قم بنا .

وجذبه « جادالله » من ذراعه .. فنهض « مدحت » من المقعد وذهب إلى استراحة الأطباء فغسل وجهه وأبدل ملابسه ثم هبط إلى حديقة المستشفى، وبعد لحظات كانت عربة « جادالله » تنهب بهما الأرض فى شارع الخليفة المأمون متجهة إلى النادى .

وكانت الساعة قد بلغت الثانية والنصف عندما وصل الصديقان إلى النادى وأقبلا على مدخله الرئيسى ليجدا المقاعد قد رصت حول حوض السباحة ، ومنصة الحكام قد أعدت ، والميكروفون قد علا صوته منادياً أحد المتسابقين أو الحكام .

وتلفت « جادالله » حوله ثم اتجه إلى القاعة الشتوية المواجهة للمدخل يتبعه « مدحت » ثم دلف إلى الطرقة الزجاجية المحيطة بالنافورة .. فوجد الضيفتين تنتظران على إحدى الموائد المجاورة للحاجز الزجاجى ، و لم يبد هناك فارق كبير فى السن بين الفتاة والخالة ، وبدت الفتاة ـــ فى جملتها ـــ لطيفة .. أهم ما يميزها عينان سوداوان واسعتان ، وفم انفرجت شفتاه عن ضب خفيف ، وشعر أميل إلى الخشونة ، والخالة تقريباً من نفس النوع مع امتلاء فى الجسد ، واكتناز فى الصدر والردفين .

وجلس الجميع حول المنضدة ، وواجه « مدحت » النافذة الزجاجية المتسعة وقد انفرجت عن النافورة وسط الحوض المستدير وقد أحاطت بها أوراق الكلة الخضر ، وزهورها النفيرية البيض ، وانبسط حولها بساط من النجيل تظلله

الكافورة العجوز الضخمة الجذع الممتدة الفروع .

وأقبل « الجرسون » ، فانشغل « مدحت » بانتقاء أصناف الغداء ، وبد شاحباً ، شارد الذهن ، ساهم البصر .

وحاولت « ميرفت » أن تستدعيه من شروده قائلة :

— الحر اليوم شديد .

وأطرق « مدحت » وهو ينظر إلى أوراق شجر الكافور التى تهتز فى خفا كأنما تحركها أنفاس هادئة وأجاب فى اقتضاب :

— أجل .

— ألا تنوى السفر إلى الإسكندرية ؟

— لم أقرر بعد .

— ومتى تنوى أن تقرر ؟!

— المسألة تتوقف على المرضى والعمليات .

وتدخل « جادالله » ضاحكا :

— لن تسافر فى سنتك .. لأن المرضى لا يشفون .. والعمليات لا تنتهى .

وقالت « الخالة » وهى تتناول بطرف الشوكة قطعة من « الخس » الذى امتلأ به طبق السلطة :

— سنسافر إن شاء الله خلال أسبوع .. لقد كنا ننوى السفر إلى أوروبا .. لكن الرجل الكبير غير رأيه واكتفى بسيدى بشر .

وقالت ميرفت :

— وماله سيدى بشر !! إنى أحبه جداً .

— لأنك لم ترى غيره .

ووجهت « الخالة » قولها إلى مدحت :

— لقد سألنى الدكتور عبد الفتاح أن ندعوك للشاى غداً

ورفع « مدحت » عينيه المحملقتين فى أوراق الكافور .

ونظر إليها متسائلا :

ـــ غداً ؟!

ـــ أجل .

ـــ ولكنى .. سأكون مشغولا .

ـــ بعملية ؟!

ـــ بعمليتين .

ـــ أجلهما .

ـــ العمليات لا تنتظر .

ـــ من أجل مريضتك العزيزة ميرفت .

وبدا من قولها كأن « ميرفت » تعنى لديه شيئاً .. ونظرت إليه « ميرفت » نظرة راجية مستعطفة .

وأجاب مدحت قائلا :

ـــ ولماذا الإصرار على أن يكون الشاى غداً .. لماذا لا يكون بعد غد مثلا ؟!

وأسرعت ميرفت تقول :

ـــ ليكن .. كما تريد .

وأردفت « الخالة » مؤكدة :

ـــ اتفقنا ؟!

وهز مدحت رأسه موافقاً .

وقالت ميرفت :

ـــ بعد غد أفضل .. ستكون أختى « نايلة » أتت مع زوجها من السويس .. وستكون فرصة أعرفكما ببعض .

و لم يعلق « مدحت » .. ونظرت إليه « ميرفت » نظرة لم تستطع أن تخفى ما بها من إعجاب .. وأحس « مدحت » بشيء من الارتباك .

واستمرت الفتاة تقول ببساطة :

— لا تدرى كيف يقدّرك أبى .. وكيف يمتدحك .. إن الأسرة كلها باتت تعرفك .. بعد أن أنقذت حياتى .

وضحك « مدحت » مجيباً :

— أنا لم أنقذ حياتك .. إن المسألة لا تستدعى كل هذا . إنها عملية أعور .. لا راحت .. ولا جت .

— ولكن لو لم تنقذنى فى الوقت المناسب لا نفجر وأودى بحياتى .

— من قال لك هذا ؟

— كلهم .

— لا تصدقيهم ، ولا تصدق أن أحداً يموت بالأعور أبدا .

— أنت دائما تحاول إنكار ذاتك !

— بالعكس .. إنهم يقولون عنى إنى مغرور كبير .

— لست أرى ذلك .

— وتدخل « جادالله » قائلا :

— أنت مخطئة .. إنه أكبر مغرور رأيته فى حياتى .

وأقبل « الجرسون » بصحاف الطعام .. وانهمك الجميع فى تناوله .

ودار خلال الطعام حديث عن الجو ، والإسكندرية ، والعمليات . وروى « جادالله » بضع نكات ، وتبادلت ميرفت مع مدحت بعض كلمات عن المستقبل والبيت والأولاد .. وأحس « مدحت » كأن الفتاة تطرق باب حياته .. وتستأذن فى الدخول .. وأحس بباطنه نوعاً من التردد .. فلا هو يصدّها .. ولا هو يفتح لها بابه ويأذن بالدخول .

إنه يجد فيها شيئاً لطيفاً .. ولكنه ليس لطيفاً بالقدر الذى يقيد به نفسه .. ويرضخ له مستقبله .. وحياته .. وحريته ..

والزواج فى نظره .. عملية كبرى .. لا يجد فى نفسه القدرة عليها .. فهو يبعدها دائما عن دائرة تفكيره .

وانتهى الطعام .. وقاموا متجهين إلى حمام السباحة لمشاهدة الحفلة .

وكان الحمام قد احتشد بالنظارة ، والحكام والمتسابقين ، والأجساد المرنة الملفوفة تتواثب فى الماء .. والرذاذ يتطاير .. والميكروفون يضج .. والصفير يتعالى .. وصيحات التشجيع تنطلق من جانب لآخر .

ودلف « مدحت » وأصحابه بين الصفوف واستقروا على بضعة مقاعد من ناحية حجرة الملابس تكاد تكون ملاصقة لحافة الحوض .

وفى مواجهته أسفل المظلة الكبيرة .. استقرت « نادية » وقد أحاطت بها « شلة » النادى من الصبيان والفتيات .. وبدا « صبرى » ملاصقاً لها .

ولم يكد « صبرى » يلمح الدكتور « مدحت » حتى هتف :

ـ الله !! الدكتور مدحت . ومعاه ميرفت .

وبلا وعى سألت نادية :

ـ ميرفت مين ؟!

ـ بنت الدكتور عبدالحميد .. أستاذ الأشعة فى الكلية .

وصمت برهة .. ثم قال كأنما يحدث نفسه :

ـ إذن فالإشاعة لا بد أن تكون صحيحة .

ومرة أخرى سألت « نادية » .. بلا تردد ولا تفكير :

ـ أية إشاعة ؟

ـ إشاعة خطبتهما .. لقد ترددت الإشاعة منذ أن أجرى لها عملية الأعور .. وكنت أنا أول من استنتجها .. منذ أن لاحظنا جميعاً اهتمامه الزائد بها .

وأحست « نادية » كأن عبئاً يطبق على أنفاسها .. ويقبض بقسوة على جوفها .

وبدا لها كأن جانباً جميلا مريحاً .. يوشك أن يُقْتَلَعَ من حياتها .

لم تكن تطمع فى شىء محدود .. وإنما كانت تبصر أملا هادياً مضيئاً يلوح لها

من بعد .. كما تلوح أضواء المرفأ للسفينة الضالة .

هذا البصيص البعيد .. الغامض .. من الأمل .. قد أخذ يبهت ، ويهتز ويتراقص .. لقد عصفت به كلمات الفتى التى ألقاها فى غير اكتراث .. حتى كادت تخمده .

ونظرت « نادية » إلى الفتاة نظرة فاحصة .. واستمر « صبرى » يردد فى لهجته غير المكترثة :

ـــ تبدو فتاة طيبة وأبوها رجل عظيم .. إنه من خير أساتذتنا .. لا شك أنه سيكون زواجاً موفقاً .. بالنسبة له ، وإن كنت أشك فى أنه هو نفسه سيكون زوجاً مريحاً .

وتساءلت « نادية » فى حدة .. كأنما الأمر يعنيها هى .. وكأنها هى التى توشك أن تكون زوجته :

ـــ ولم ؟

ـــ لأنه .. عبقرى ..والعباقرة .. لا يكونون أزواجاً صالحين .. إنه أحياناً يبدو جافاً خشن الطبع ، وأنا لا أتصور زوجة تحتمل أن زوجها يفضل عملياته ومرضاه عليها .

ـــ ومن أدراك أنه سيفضلها عليها ؟!

ـــ لأنه الآن يفضلها على نفسه وعلى راحته .

وتعالى « الميكروفون » .. فغطى على صوتيهما ، وأخذ يردد أسماء المتسابقين فى المسابقة التالية :

« تتابع » مائة متر سباحة حرة .. تيم الهليوليدو .. إبراهيم خورشيد .. صوفى تادرس .. إميليا .. محمود نازى .. تيم الأهلى ..

واستمر « الميكروفون » يردد الأسماء .. حتى وصل إلى فريق النادى ، وسمعت « نادية »اسم عصام ، وتلاه اسمان .. ثم سمعت « الميكروفون » يردد .. « منى فاضل » ستنزل بدل « تونا عبد السميع » لمرضها .

وقفزت « نادية » من مقعدها .. قائلة :

ــ غير معقول .

واندفعت « نادية » من بين الصفوف و « صبرى » يتبعها متسائلا :

ــ ما هذا غير المعقول ؟

ــ غير معقول أن تنزل المسابقة .. إنها لا تستطيع .. إنها مجنونة .. ستجهد نفسها فى المسابقة ، والدكتور حرّم عليها الإجهاد .

وأسرعت « نادية » تخوض بين الصفوف لكى تصل إلى « منى » التى وقفت فى صف المتسابقين الذين استعد أولهم على حافة الحمام .

ووصلت « نادية » إلى قرب حجرة الملابس .. عندما وجدت الطريق قد سد أمامها ، واضطرت أن تسير على الحافة الضيقة التى بين حرف الحمام والصف الأول من المقاعد .. وحتى هذه الحافة قد سدت أمامها .. بمنضدة وضعت عليها الجوائز .

وبدا على « نادية » الضيق وهى تحاول أن تصل إلى « منى » لتمنعها من النزول .

وحانت منها التفاتة إلى يسارها فأبصرت « مدحت » يجلس على قيد خطوة منها .

وأحست بارتباك شديد وهى تجد نفسها على مثل هذا القرب منه ، وزادها الارتباك ضيقاً حتى أحست بأنها توشك على البكاء .

ونظر إليها « مدحت » .. وأحس بأنها فى مأزق وأنها تريد الانتقال إلى الناحية الأخرى .

ودون أن ينطق بكلمة واحدة .. مد ذراعيه فحملها من ذراعيها كما يحمل الطفل ورفعها فوق المنضدة وهبط بها إلى الناحية الأخرى ثم جلس .. معاوداً النظر إلى المتسابقين والحديث مع « ميرفت » وكأنه لم يفعل شيئاً .

ووقفت برهة .. مشدوهة حيرى .. كأنها بها مس .

وعندما آفاقت اندفعت لتصل إلى « منى » .. وكانت « منى » قد قفزت فى الماء ، وأخذت تضرب بيديها بعنف حتى تحافظ على مكان فريقها فى التتابع .

---

(٨)

اعرفهــا جيــدا

كانت « منى » ترقد فى فراشها ، وقد جلست « نادية » بجوارها تقلب إحدى المجلات .. وكانت الشمس قد أوشكت على المغيب ، وبشائر نسمات الليل الرطبة قد أخذت تهب من النافذة البحرية المواجهة للفراش فتحرّك ستائرها « الأورجاندى » برفق وخفة ، وعبق الياسمينة المتسلقة على حافة الشرفة الشرقية المجاورة للفراش يتصاعد إلى الغرفة فى موجات خفيفة متباعدة .

ومدت « منى » يدها فسحبت المجلة من حجر « نادية » قائلة :

ــ أتقرئين .. أم تسرحين ؟!

ــ الاثنين .

ــ أراهن أنك لم تقرئى حرفاً واحداً .

ورفعت « منى » المجلة من أمامها وأردفت قائلة :

ــ سأسألك فى الصفحة التى كنت تقرئينها .

وضحكت « نادية » وردت قائلة :

ــ لا داعى للاختبار .. فتكسبين الرهان .

ــ فيمَ كنت سارحة ؟

ــ فى أشياء كثيرة .

ــ أولها ؟!

ــ سفرنا إلى « جرينوبل » .. الذى يصر أبى عليه .

ــ وماذا يضايقك فيه ؟!

ــ هل تظنين من السهل أن نترك بيتنا وأهلنا ووطننا ، ونرحل كالمهاجرين ..

إلى غير رجعة .. أو إلى رجعة بغير موعد ؟

— من قال هذا ؟!

— أبى .

— كلام .. هو نفسه لن يحتمل أكثر من بضع سنوات . نكون قد أنهينا فيها دراستنا فى « جرينوبل » .. ويكون سخطه قد خف .. وأصابه الملل من فرنسا وعاوده الحنين إلى مصر .

— وإذا استمرأ العيش هناك ؟!

— غير معقول .

— هبيه فعل ؟!

— عن نفسى .. سأترككم عند ما أملّ .. وأعود بأول باخرة ؛ للزواج من « عصام » .. إذا لم يحضر هو قبل ذلك ليختطفنى ويعود بى .. لقد صمم على ذلك .. عند ما أنبأته بعزم أبى على السفر بنا إلى فرنسا .

وأطرقت « نادية » وبدا الحزن على وجهها ، واستطردت « منى » قائلة :

— لست أدرى لماذا تحملين همّ السفر هكذا .. إننا سنغير حياتنا إلى أفضل .. هل تذكرين بضعة الأشهر .. التى أمضيناها فى « جاب ».. الفسحة والمرح ، وتسلق الجبل .. بين المياه المنحدرة .. والأشجار ؟! هل تذكرين البحيرة فى أعلى الجبل ،والبرقوق .. الذى كنا نقطعه من الشجر !! كانت حياتنا لذيذة .

— إلى حين ، وليس إلى الأبد .

— ومن قال إلى الأبد ؟

— إذا كنت قد وجدت من يجىء ليختطفك ويعودبك ، فإنى لم أجد .

— لماذا ؟أيعجز عن اختطافك .. وقد رفعك كالريشة فوق المنضدة ؟

واحمر وجه « نادية » وأحست بقلبها يدق فى عنف .. وضحكت « منى » قائلة :

— لماذا يحمر وجهك هكذا كالأطفال ؟ ولماذا تحاولين إخفاء مشاعرك

عنى .. إنى أذكر لك كل تافهة عن حركاتى وسكناتى ، ومشاعرى وأحزانى .. وأنت تكتمين عنى كل شىء فى صدرك وفى رأسك .. ألا تثقين بى ؟!

وهزت « نادية » رأسها فى اضطراب وحيرة وأجابت :

ــ ليست مسألة ثقة .. إنى لا أجد هناك ما يستحق الذكر .

ــ كيف ؟ .. ألا تحبينه ؟!

وصمتت « نادية » برهة وبدا عليها الشرود ، وأردفت « منى »تتساءل فى إصرار :

ــ لماذا لا تجيبين ؟ .. إنك تحبينه !

وترددت « نادية » وهزت رأسها فى حيرة ثم قالت :

ــ ليست المسألة بمثل هذه السهولة .

ــ كيف ؟!

ــ لا أستطيع ببساطة أن أجمع بضع أحاسيس فى نفسى . لأحدد لها هذه الصفة .. لست أجرؤ على هذا .

ــ تجرئين ؟ .. أيحتاج اعترافك بالحب .. مع كل هذا الذى تحسينه .. إلى جرأة !!

ــ طبعاً يحتاج .. لأنى لا أعرف ماهو الحب .. حتى أقول إن ما بى حب .. هل يمكن أن نسمى .. أوهامنا .. وتمنياتنا .. التى نختزنها فى صدورنا ، وننفعل بها وحدنا .. دون أن يحس بها أحد .. حباً ؟

ــ أنتِ معقدة يا نادية .. تتحدثين عن المسألة .. كأنها درس طبيعة .. أو تمرين هندسة .. لماذا لا تجيبين ببساطة : أتحبينه أم لا تحبينه ؟!

ــ لست أدرى .

ــ قولى لى .. كل ما تحسين به ، وسأخبرك أنا .. هل تحبين رؤيته ؟ إياك أن تقولى لا .. فأنا أعرف جيداً شغفك الفجائى .. بمشاهدة « الكروكيه » .

وضحكت « نادية »وهزت رأسها بالموافقة .. واستمرت « منى » تقول :

ـــ هل تفكرين فيه ؟!

ـــ أجل .

ـــ كثيراً ؟!!

ـــ كلما سنحت لى فرصة للتفكير .

ـــ هل يدخل بينك وبين صفحات الكتب .. أعنى هل يمنعك من المذاكرة ؟

ـــ ليس دائما .

ـــ كان يجب أن يمنعك .. فأنا عندما أكون فى حالة حب لا أستطيع المذاكرة .. ما علينا .. أنت إنسانة غير طبيعية .. تحبين المذاكرة أكثر من اللازم . لنكمل الأسئلة : هل تعجبين بكل شيء فيه ؟!

ـــ تقريباً .

ـــ ما معنى تقريباً !! هل هناك أشياء لا تعجبك فيه ؟.

ـــ لا .. إنما لست أعرف كل شيء فيه .

ـــ هل هناك أشخاص .. يعجبونك أكثر منه ؟!

ـــ لا أعتقد .

ـــ أجيبيى إجابة قاطعة ، لا أو نعم ؟

وضحكت « نادية » وأجابت قائلة :

ـــ لا ...

وصمتت « منى » برهة وبدا عليها التفكير ثم قالت فجأة :

ـــ هل تتمنين أن يقبلك ؟!

وبدا الارتباك على « نادية » واحمر وجهها وأجابت كأنها تنفى عن نفسها جرماً :

ـــ بالطبع لا ...

وبسطت « منى » كفيها وهزّت رأسها فى أسف قائلة :

ـــ واحد من اثنين .. إما أنك لا تحبينه .. أو أنك مغفلة ، والأخير هو الأرجح .

ــ إنى لم أفكر قط فى أمر كهذا . لم يخطر لى ببال . إن ..

ــ إذن فأنت كما قلت .. مغفلة .. إنى أتمنى لو يقبلنى عصام ، ولولا بقية من خجل لم أستطع التخلص منها بعد ..لقبلته أنا .. على أية حال ، إذا وضعنا تغفيلك جانباً ، وجمعنا كل إجاباتك فإننا نستطيع أن نصل إلى نتيجة حاسمة .. مؤكدة .. وهى أنك تحبينه ؟!

وشردت « نادية » بعينيها من الشرفة وعبرت ببصرها أوراق الياسمينة الرقيقة المهتزة إلى السماء التى أخذت زرقتها تبهت وخيوط الغسق الرمادية تنتشر خلالها .

وقبل أن تعاود « منى » حديثها قالت « نادية » فى صوت خافت وكأنما تحدث نفسها :

ــ أنا أكره أن يكون الأمر كذلك .

ــ لماذا ؟!

ــ وددت لو أنه مجرد إعجاب بشخصيته .. وخلقه . ونبوغه ، وأغلب ظنى أن هذا هو حقيقة ما بى .

ــ ولماذا تكرهين أن تحبيه ؟!

ــ ليس هناك مبرر لهذا ، ولا نتيجة له .

ــ مبرر ؟.. ونتيجة ؟.. أتظنينه موضوع إنشاء ؟

ــ لماذا أحبه ؟!

ــ لأنك تحبينه .

ــ إنه لا يحس بى ، ولا يحتمل أن يحس بى .

ــ كيف .. ألم يحملك بين ذراعيه .. فى حفلة السباحة ؟

ــ حملنى كأنى طفلة أعجز عن العبور إلى الجانب الآخر .

ــ هذا ذنبك أنت .

ــ كيف ؟!

— لأنك تتركين هذه الضفيرة السخيفة .. تتدلى حتى تصل إلى ردفيك ، وتلبسين « الفانلة » التى تمسح صدرك ، وهذا الفستان الذى يبديك كطفلة فى مدرسة .. لماذا تصرّين على هذا المظهر الصبيانى السخيف ؟! لماذا لا تفعلين مثلى ؟! إن لك صدرا أكبر من صدرى ، وردفين أملأ من ردفىّ .

— ما هذه السخافة ؟! هل تظنين الحب يكتسب بإبراز الصدر والأرداف ؟!

— لست أقصد هذا ، وإنما فقط أريد أن تظهرى كفتاة يمكن أن تلفت نظر رجل .. لا كصبية تضيع فى غمار صبية النادى الذين يتحتم عليهم الرحيل عندما يدق جرس السابعة ، والذى يمنعهم « هنرى » من دخول القاعة . أفهمت ؟!

— لست أريد أن أجذب نظر أحد .

— انفلقى .. ذنبك على جنبك .. ستظلين .. تحملقين فيه كالبلهاء وهو يلعب « الكروكيه » حتى تلطشه منك « معزة » « الكروكيه » .

ولم تطف بذهن « نادية » معزة « الكروكيه » ولكن طافت بذهنها « ميرفت » وقد جلست بجوار « مدحت » أمام حوض السباحة ، وتذكرت قول « صبرى » إنها شبه مخطوبة له .. وإنها تعتبر بالنسبة إليه « زواجة رابحة » ، وأحست مرة ثانية بذلك العبء الثقيل الذى يطبق على أنفاسها ويعتصر جوفها ، وبدا لها بصيص الأمل يهتز ويترنح ويلفظ آخر أنفاسه .

وبلا وعى أطلقت زفرة حارة وقالت فى شىء من المرارة :

— لا فائدة .. إن الإنسان لا يخشى على ضياع ما لايملك .

— ولماذا لا يحاول أن يملكه ؟!

— لأنه ملك لغيره .

— لست أفهم !!

— إنه خاطب .

— من أنباك ؟

— صبرى ..

— ومن تكون ؟!

— الفتاة التى كانت تجلس معه فى حفلة السباحة .

وهتفت « منى » فى دهشة :

— هذه المعزة الكرتاء .. خطيبته ؟

— كل الناس عندك معيز ؟!

— هذه حقيقة . معزة . ألم ترى ضبها وشعرها الأكرت ؟

— إنها فتاة لطيفة .

— ألم أقل لك إنك مغفلة .. هذه الفتاة تفلح فى « لطشه » وأنت قاعدة تحملقين فيه فى بله .. بضفيرتك ، و « مريلتك » وصدرك المبطط .

ولم تجب « نادية » وعادت تحملق ببصرها من خلال الشرفة فى فراغ السماء الذى تكاثفت الخيوط الرمادية فى نسيجه الأزرق .

واستطردت « منى » تقول فى حماس :

— لو كنت مكانك لما احتمل منى أكثر من بضعة أسابيع .

التفتت « نادية » إليها و تساءلت فى لهجة يائسة ساخرة :

— ماذا كنت ترينك فاعلة ؟!

— أولا .. أكف عن الجلوس خارج الملعب واستراق النظر إليه ، وأنزل إلى الملعب لألعب معه .

— بلا معرفة !!

— هل تظنين كل الذين يلعبون فى معلب « الكروكيه » لهم معرفة .. إنهم ينزلون للعب ثم يتعارفون ويصبحون أصدقاء .. فلماذا لا تفعلين مثلهم ؟

وتساءلت « نادية » فى لهجة حالمة :

— ألعب معه « الكروكيه » ؟

— ولمَ لا ؟ جزّى هذه الضفيرة ، والبسى البلوزة الديكولتيه اللبنى ، والجيب الرمادى الضيق ، وانزلى الملعب .

ومضت فترة صمت .. تخيلت « نادية » خلالها نفسها وقد وقفت بجوار « مدحت » فى ملعب الكروكيه ، وسارا معاً يتحدثان بلا كلفة ، وهى تضرب الكرة وهو يعجب بضرباتها .

وفجأة هتفت يمنى فى خذلان شديد :

ــ ولكنى لا أعرف لعب الكروكيه ؟

وصاحت « منى » فى دهشة :

ــ يا غبية .. إن ثلاثة أرباع الذين يلعبون الكروكيه لا يعرفون كيف يلعبونه . بل ثلاثة أرباع الذين يعملون أى شىء لا يعرفون كيف يعملونه .. انزلى والعبى ، ولا تخشى شيئاً .

ومضت فترة سرحان بنادية ، قبل أن تسألها « منى » قائلة :

ــ ها .. اتفقنا ؟

وأطلقت « نادية » زفرة يأس أخرى وأجابت :

ــ أنا لا أحب هذه الطريقة ، ولا أجيدها ؟

ــ إية طريقة ؟!

ــ طريقة لفت الأنظار .. ووضع الخطط .. ومطاردةالغير .. ثم .. هبى أنى أفلحت فى أن ألعب معه الكروكيه .. هل تظنين كل الذين يلعبون معه إحباءه ؟

ــ أنت وشانك .. ابقى عاجزة كما أنت .. هل تستطيعين أن تخبرينى كيف استطاعت هذه « المعزة » الكرتاء .. أن تجذبه أليها ، وتجعله يخطبها ؟ة

ــ لقد عمل لها عملية أعور .

وأجابت « منى » ضاحكة :

ــ انتهينها .. دعيه يعمل لك عملية أعور أنت الأخرى ، ما دام لا يطب إلا بالعمليات .

وردت عليها نادية مؤنبة :

ــ أنت عابثة .

وأجابت « منى » فى لهجة جادة :

ـــ أبداً والله .. لو كنت مكانك .. لما تركته يفلت منى أبداً ، ولو أدى الأمر .. إلى العملية .

وصمتت « منى » برهة كأنها تفكر فى شيء ثم هتفت فى ثقة :

ـــ هل تحبين أن أحضره لك الآن ؟!

ـــ كيف ؟!

ـــ هاتى التليفون وابحثى عن رقمه فى الدليل .

ـــ ماذا ستفعلين ؟

ـــ ألست مريضة ؟..

ـــ أجل .

ـــ سأستدعيه للكشف علىّ .

ـــ أمجنونة أنت ؟! إن لك طبيباً يعالجك ، وما حدث لك من تعب نتيجة إجهاد نفسك فى السباحة ، وقد سبق أن حذرك من هذا .. فبأى حجة تطلبين طبيباً آخر ، وجرّاحاً .. للكشف عليك ؟!

ـــ سأقول إنى شعرت بمغص شديد .. وخفت أن تكون نوبة أعور .. فطلبت الدكتور مدحت الذى نعرفه فى النادى .

ـــ ولماذا لم ننتظر حتى يحضر بابا أو ماما ؟!

ـــ أنتظر حتى ينفجر الأعور ؟! هاتى التليفون بسرعة ، قبل أن يحضر أحد .

ـــ وعندما يأتى ولا يجد بك شيئاً ؟!

ـــ أقول إن المغص انتهى .. أهى مشكلة !

ـــ وإذا وجد بك شيئاً ، وأصر على حملك إلى المستشفى ، وأجرى لك عملية ، وأطار نصف ما فى جوفك كما يفعل بمرضاه ؟

وصمتت « منى » وبدا عليها الوجوم وقالت :

ـــ هذه هى المشكلة .

ولكنها ما لبثت أن أردفت ضاحكة :

ـــ إذا نوى هذه النية السوداء .. فتذهبين أنت .. ألست تحبينه ؟! ألا تضحين فى سبيله . بأعور ؟! إنها ستكون فرصة العمر .. تصوّرى نفسك راقدة ، وهو يجس نبضك ، ويكشف على صدرك ، ويضع كفه على جبينك ، وتصورى أنه يروح ويغدو حولك ، ولا عمل له إلا الغيار لك والسؤال عنك والاطمئنان عليك .. ماذا تريدين أكثر من ذلك ؟! ستغادرين المستشفى وفى إصبعك خاتم الخطوبة ، ورحم الله « المعزة » الكرتاء .

وصمتت لحظة تمالكت خلالها أنفاسها ثم أردفت فى نصيحة الأم :

ـــ أسرعى بالتليفون .. قبل أن يطير منا .

و لم تتحرك « نادية » وإنما تحرك ذهنها .. ليتخيل كل ما قالته « منى » .. هى راقدة .. فى فراشها ، ومدحت يقف بجوارها .. يمسك رسغها ويتحسس جبينها بكفه الكبيرة .

أى رقدة .. يمكن أن تكون أحب إليها من هذا !؟ لماذا لا تمرض ، حتى تستمتع بجواره ، وتمسك يده !؟ إنها أحست أنها تطير عندما رفعها بين يديه !. لماذا يبخل عليها الله بنعمة المرض .. الذى يهيئ لها السبيل إليه .

وصاحت بها منى :

ـــ لماذا لا تتحركين ؟! إذا لم تأتى بالتليفون سأنهض أنا لآتى به .

وأفاقت « نادية » من أحلامها ، ونظرت إلى « منى » وقالت فى لهجة خليط من اليأس والمرارة .. والسكينة والقناعة :

ـــ لا يا منى ، كونى عاقلة ، ليس هذا مجال عبث ولهو .

وهزت « منى » رأسها وقالت :

ـــ أنا مالى . لقد حاولت أن أمنحك الفرصة ، فرفضتها .

ـــ نحن لا نستطيع أن نتيح لأنفسنا فرصاً .. إنها تتاح لنا ، ونحن نقتنصها .

ـــ أنت عاجزة ؟!

ــ ربما .

وسمع وقع أقدام مزدوجة فى الخارج .. استطاعت كل منهما أن تميز فيها أقدام بيهما وأمهما .

ودخل الاثنان الحجرة ، وجلست الأم بجوار « منى » على الفراش . وضمتها ليها فى حنو ، وجلس « الأب » على مقعد بجوار « التسريحة » قائلا :

ــ كيف حالك يا منى ؟!

ــ الحمد لله .

ــ نريدك أن تشدّى حيلك . حتى لا تؤخرينا عن السفر !

وسألت نادية :

ــ هل تقرر السفر ؟

وأجاب الأب :

ــ أجل .. لقد وصل الرد من « جرينوبل » بالموافقة وسنسافر فى أقرب فرصة .. غداً سأعد جوازات السفر .. وأسأل عن مواعيد البواخر .

ومن جديد .. عادت « نادية » تحس بذلك الشىء الثقيل يطبق على أنفاسها ويعتصر جوفها .. وبدت لها الذبالة التى كانت تتراقص .. قد خبت تماماً .

لم يعد هناك من أمل ..

حتى تلك الوسائل العابثة الصبيانية التى اقترحتها « منى » ، لم يعد إليها من سبيل .

إن « منى » تأمل فى العودة .. لأن هناك من ينتظرها .. ويعدها لو تأخرت أن يذهب ليختطفها .

أما هى فستذهب .. بلا أمل .. لأن أحداً .. لا يحس بها .. ولا يأبه لها .. ولا يعدها باختطاف .. أو حتى بتذكر ..

(٩)

ملك للغير ...

كان اليوم الأخير « لمنى ... ونادية » قبل الرحيل عن مصر ، وكانت التوءمتان قد وصلتا إلى النادى قبيل الظهر .. لتلقيا تحية وداع على الأصدقاء .

وانطلقت « منى » إلى الحمام حيث تزاحم الأعضاء .. وتعالى صياحهم حتى جعلوا من الحمام ما يشبه السوق ، وبدت « نادية » تسير الهوينى بين ممرات الملاعب الخضر فى الحديقة الكبيرة .

كانت تحس بحزن مشوب باليأس والخوف ، ولم يكن بنفسها أى إحساس بفرحة السفر التى تحس بها « منى » .

كان ألم الفرقة أغلب على نفسها ، وكانت تمعن البصر فى كل ما حولها .. كأنما تحاول تثبيته فى ذهنها .. حتى لا تبهت الفرقة صورته ، ولا يمحو البعد ذكراه .

كانت تحب كل هذه الأشياء التى تحيط بها .. هذه الأرض الخضراء ، ومجموعات الزهور ، والأشجار المتناثرة هنا وهناك ، و « الكشك » الأخضر الذى أحاطت به أدوات « الجمنزيم » ، وبوابات الشجر التي تسلقت عليها أعواد الجهنمية ، والشرفات المستديرة العريضة التى تحيط بأبنية النادى ، وملاعب « التنس » التى يعدو حولها صبية « التنس » لجمع الكرات ، وملاعب الاسكواش بلاعبيها الذين تلاحقت أنفاسهم وتصبب عرقهم، وبرج الحمام القائم فى الطريق إلى جانب الجراج الكبير .. بحمامه الأبيض الذى يقف على حافة حوض المياه الصغير ليرتشف الماء فى سلام وسكينة .

كانت تحس بكل هذا ، كأنه قطعة من طفولتها .. ومن صباها .

وكانت تحب كل من به .. عماله .. وموظفيه ..وأعضاءه .. كانوا يمثلون فى نظرها كل مظاهر الحياة .. من كد وجد ، ومرح واستمتاع ، وإحساس بالحياة .

ووسط كل هذه الأشياء والمخلوقات .. يبرز مخلوق بذاته .. ليمنح كل ما حوله قيمة ، ويجعل له معنى .

كان العبقرى .. الطويل القامة ، العريض المنكبين .. بملامحه الجادة ، ووجهه الأسمر ، وعينيه الخضراوين .. يقف وسط كل هذا .. ليخلع عليه هالة من الإشراق ، ويغمره فى فيض من الضوء .

ومرّت بملعب « الكروكيه » ، وأشار لها بالتحية الصبى الأسمر الجالس تحت الشمسية .. فردّت عليه التحية مبتسمة فى رقة .

وافتر ثغر الصبى عن ابتسامة كشفت عن أسنانه الفلجاء ، وقال وهو يقذف إحدى الكرات فى الهواء ويلقفها :

ــ ألا تنوين أن تلعبى معنا يا ست نادية ؟

وأجابت « نادية » ضاحكة :

ــ أنا لا أعرف كيف ألعبها .

ــ إنها سهلة جدًا .. ستتعلمينها وحدك بمجرد النزول إلى الملعب .. ألا تلعبين اليوم ؟

وهزّت « نادية » رأسها وأجابت وهى تستمر فى سيرها المتمهل :

ــ إن شاء الله .

وبرز العبقرى مرة أخرى .. فى ذهنها .. وقد انحنى يضرب الكرة فى دقة وإحكام .

وتذكرت قول منى : « لماذا تكتفين بالفرجة !! انزلى والعبى ولا تخشى شيئاً » !

أجل كان يجب أن تنزل للعب .. تسلم عليه ، وتتحدث إليه ، وتتناول

معه الشاى .

لِمَ لا ! كل الفتيات يفعلن هذا !

أشياء كثيرة كان يمكن أن تفعلها معه ، لو لم تكتف بمجرد الجلوس والفرجة .

كان يمكن أن تمرض ، ويعودها .

كان يمكن أن تشاغله فى التليفون .

ولكن لا .. هذا عبث لا تطيقه ، ولا تقدر عليه .

ثم .. ما الفائدة فى كل هذا الآن ، والرحيل قد أوشك والفرقة قد تأكدت ؟!

وأى رحيل !! وأية فرقة !!

رحيل بلا عودة ، وفرقة بلا أمل فى لقاء .

إن « منى » تجزم بأنهم عائدون ، ولكن « منى » شديدة التفاؤل ، وهى تجد فى حياتها أملا واضحاً يبعثها على هذا التفاؤل ، ويجعل عودتهم مؤكدة .

أما هى ، فماذا يدفعها إلى التفاؤل ؟

أى أمل يمكن أن يحتم عليها ضرورة العودة ؟

حتى الأمل الوهمى .. الذى كان يجعل أمنيتها محتملة التحقيق ، قد تبدد .. بعد أن عرفت أنه غير خال ، وأن مخلوقة أخرى قد تأبطت ذراعه وانطلقت به كى تشاركه حياته .

وعادت أحاسيس اليأس والحزن تتسرّب إلى أعماقها ، ولم يخرجها من أوهامها الحزينة إلا هتاف بلغ سمعها منادياً :

— هالو نادية .

وتلفتت حولها ، فأبصرت صبرى بقامته الطويلة النحيلة ومنظاره السميك وشعره القصير الجعد .

وأجابته فى رفق :

— هالو صبرى .

— مالك تسيرين وحدك .. أين منى ؟

ـ أظنها ذهبت إلى الحمام .

ـ كان يجب أن أعرف ذلك .. فقد أبصرت عصام منذ لحظة يسرع إلى هناك .

ومضت فترة صمت .. كان صبرى يسترق البصر إلى وجهها ، وهو يسير الهوينى بجوارها ، وقد أحس فى قرارته بشعور ممتع .. وبدت له الفرصة سانحة لأن يقول أشياء كثيرة .. طالما حدث بها نفسه ، وهمّ بضع مرات أن ينطق ، ولكنه لم يعرف من أين يبدأ .

ووصلا إلى الشرفة المستديرة التى تتوسطها الكافورة وبدت لهما النافورة تحيط بها زهور الكلة .. وتمهل صبرى قائلا :

ـ أتودين الاستمرار فى السير .. أم تفضلين الجلوس ؟

ورنت « نادية » ببصرها إلى الشرفة الخالية ذات السور المنخفض الذى غرست فيه الجارونيا الحمراء .. ثم جاوزت الشرفة إلى سور الياسمين الذى يفصل الحمام عن الملاعب .. وترامى إلى مسامعها الصخب والضجيج ، وأحست أنها أميل إلى الوحدة والهدوء ، ولم تجد فى « صبرى » الرفيق المقلق الذى يمكن أن يزعج وحدتها أو يقطع الهدوء من حولها ، ووجدت فى عينيه شبه رجاء بالجلوس .. فهزت رأسها قائلة :

ـ لنجلس هنا قليلا .. إذا شئْتَ .

وصعد الاثنان إلى الشرفة المتسعة الخالية ، وجلسا حول المنضدة فى ظلال الكافورة العجوز .

ومرة أخرى ساد الصمت ، وتذكرت « نادية » حديث « صبرى » عن « مدحت » ، ووصفه له بالجزّار العبقرى ، وتمنت لو عاود الحديث عنه .. فقص عنه كل ما يعرفه .. لماذا لا تسأله عنه ؟

حتى السؤال لا تجرؤ عليه ؟

وانطلق « صبرى » .. ليقول شيئاً يقطع به الصمت . ويغطى

به عجزه عن الإفصاح بما يدور فى خلده ويراود أحلامه :

ـــ لقد انتهيت من الامتحان بالأمس فقط .

ـــ حقيقة !؟ وماذا فعلت ؟

ـــ لا بأس ، ولو أنها ضربت لخمة فى الجراحة .. كدت أضيع .. لولا ستر من الله ، ومن الدكتور مدحت .

وتيقظت حواس « نادية » وتحوّل تراخيها فى الإنصات إلى اهتمام شديد ، ورفعت إليه عينيها كأنما تطلب منه الشرح .

ولما صمت « صبرى » عادت تستحثه قائلة :

ـــ ماذا فعل الدكتور مدحتَ ؟

ـــ لقد عاوننى كثيراً .. إنه يبدو شرساً قاسياً ، وكل الطلبة كانوا يخشون الوقوع فى يديه ، ولكننى لم أجد بين الممتحنين من هو أرق منه إحساساً وأشد عطفاً .

ـــ ولكنه يبدو شديد التجهم .

ـــ إنها قشرة زائفة يكسو بها رقته وفرط إحساسه .. هل تصدقين أننى ضبطته مرة فى حجرته ، وهو يغنى .

وضحكت « نادية » .. وأحست بمتعة فى السماع عنه .. وتساءلت فى دهشة كأنما سمعت نبأ عجيباً :

ـــ يغنى ! .. ماذا كان يقول ؟

ـــ أظن الجندول .. أو الكرنك .. أوشيئاً من هذا القبيل .

ـــ و كيف يقضى أوقاته فى المستشفى ؟

وأحست « نادية » كأنما قد كشفت بسؤالها عن نفسها ، فأسرعت تقول :

ـــ أعنى كيف تقضون أوقاتكم فى المستشفى ؟

ـــ بين فصول الدراسة .. وغرف العمليات ، وعنابر المرضى .. تصوّرى أنى منذ يومين حضرت عملية مع الدكتور رمزى ، وأنى ....

وأحست « نادية » أن الحديث قد بدأ يضل الطريق ، وأنه قد ابتعد عن محوره الرئيسي .. فانتظرت حتى سنحت لحظة وقف ، وقالت وكأنها تسأل سؤالا عابراً :

— وخطيبة الدكتور مدحت .. كيف حالها ؟

— خطيبته ؟!

— أجل .. الفتاة التي كانت تجلس معه فى حفلة السباحة .

— ميرفت .. بنت الدكتور عبد الفتاح ؟

— أظنها هى .. ألم تقل لى إنها « خطيبته » .

— قلت إن هناك مشروعا فى خطبة ، وإنها زواجة « لقطة » بالنسبة له .

— وماذا تم فى المشروع ؟

— لا أحد يعلم .. إننا لا نراه إلا فى العمليات .. أوفى النادى ، وقد تكون المسألة مجرد إشاعة .

وأحست « نادية » بشىء من الراحة ، وبدا لها بصيص الأمل ، وقد عاد يتراقص .

ولكن ما فائدته ؟! اشتعل أم خبا ، وهى على وشك الرحيل !

إنه مجرد إحساس مريح .. أليس لها الحق فيه ؟ أم يتحتم عليها أن ترحل وملء نفسها الأسى واليأس ؟

وعاود « صبرى » محاولاته فى طرق باب الحديث الذى لم يفلح بعد فى طرقه .

قال متسائلا :

— متى تسافرون إلى الإسكندرية ؟

ورفعت « نادية » حاجبيها فى دهشة وقالت :

— إسكندرية !؟ . سنسافر غداً إلى فرنسا .

وفغر « صبرى » فاه ، وصاح فى يأس :

ــ غداً !! غداً !!

ــ أجل .. غداً .

وأطرق « صبرى » برأسه فى حزن ،وتمتم قائلا :

ــ هذه إذن زيارة وداع ؟!

ــ أجل ، وداع .. لكل الأعزاء الذين عرفتهم .

وأحس « صبرى» بشىء من العزاء ، وهو يحس أن الوادع قد شمله ، وأنه من بين الأعزاء .

وتساءل فى صوت خافت :

ــ وأنا بينهم ؟

ــ طبعاً

ــ ومتى تعودين ؟

ــ من يدرى .

ــ بعد انتهاء الدراسة ؟

ــ ربما .

وران السكون .. إلا من حفيف أوراق الكافورة وزقزقة عصفور يتواثب على فروعها .

وشرد « صبرى » ببصره فى الملاعب الخضر المترامية وعاد يقول كأنما يحدث نفسه :

ــ وربما لا تعودين ؟!

وشردت « نادية » ببصرها فى نفس الناحية ، ولكن فى اتجاه أكثر تحديداً .. وبدا لها الشبح الطويل ، العريض المنكبين ، يتحرك فى أحد ملاعب « الكروكيه » ، وأجابت على سؤال « صبرى » فى لهجة ملؤها الأسى :

ــ أجل ..

وعاد « صبرى » يقول فى همس المحدث نفسه :

ـــ حتى هذا البصيص من الأمل .. الذى كنا نحوم حوله .. ولا نعرف كيف نقربه .. قد نأت به ريح الفرقة إلى غير رجعة .

وبدت الكلمات التى نطق بها « صبرى » غير غريبة على نفسها ، ورفعت إليه عينيها تستعيد ما قال .

وهزّ « صبرى » رأسه وقال فى لهجته الخافتة :

ـــ هذه أشياء أظنك لم تعرفيها بعد .

وهمت « نادية » بأن تقول : « بل أعرفها جيداً » .. عندما أبصرت « منى » تندفع من باب الممر المؤدى إلى القاعة الشتوية وقد تبعها « عصام » بثيابه الكاكية .

وصاحت بهما « منى » ضاحكة :

ـــ ما شاء الله .. أنتما هنا فى مناجاة حارة .. وأنا أبحث عنك فى كل أنحاء النادى !!

وقال عصام معقبًا :

ـــ مناجاة مع صبرى ؟. غير معقول .. قيس ينطق ؟

ورفعت « منى» يديها مطبقة فى وضع مناجاة .. وهتفت قائلة :

ـــ بربك هل ضممت إليك ليلى .. قبيل الصبح ؟

وقاطعتها « نادية » ناهرة :

ـــ منى .. كفى عبثاً .

ثم نظرت إلى الساعة فوجدتها جاوزت الثانية عشرة .. فتساءلت :

ـــ متى تنوين العودة إلى البيت ؟!

ـــ مازال الوقت مبكرا . ماذا يغريك بالعودة إلى البيت ؟!

ـــ أشياء كثيرة لا بد أن ننهيها .

ـــ مثل ؟!!

ـــ حزم بقية الحقائب .

ـــ لقد حزمت كل حقائبى .

ـــ ومساعدة ماما فى إعداد الأثاث .

ـــ ولماذا نعدّه .. مادمنا سنتركه لعمتى كى تؤجره ؟

ـــ على أية حال لا بد لنا من العودة للغداء .

ـــ مازال الوقت مبكراً على الغداء .. ثم لماذا لا نتغدى فى النادى !.. إن عصام .. يدعونا للغداء !.

وعقبَ عصام مؤكداً :

ـــ أجل .. ونذهب بعد ذلك إلى سينما ريفولى .

ـــ فكرة مدهشة .

ونظرت إليهما « نادية » فى دهشة :

ـــ ما هذا الهذيان!.. غداء.. وسينما !! أنت تعرفين أننا سنبحر غداً .. فى الظهر ، وأننا سنظل طول اليوم والغد فى الاستعداد للسفر ، وأن عمتك وبقية أقاربنا سيتناولون الغداء معنا اليوم .. وبعد هذا تقولين نتغدى فى النادى ونذهب إلى السينما ؟..

ـــ دائماً تعقدينها .

ـــ وأنت دائماً ..

وقاطعها عصام قائلا :

ـــ انتهينا لا داعى للعراك . سنجلس سوياً حتى الغداء . ثم أوصلكما إلى البيت .. وغداً سأذهب إلى الإسكندرية لتوديعكما على الباخرة .. ما رأيك . ياصبرى .. هل تأتى معى ؟

ونظر صبرى إلى نادية قائلا :

ـــ إذا لم أضايق نادية .

وردت نادية :

ـــ بالعكس .. إنى أحب أن أرا كما دائما .. وسأشعر أن هناك من يهتم بنا .. عند الرحيل .

ومرة أخرى .. شرد بصرها فى الملاعب الخضر .. وبدا لها الشبح الطويل لعريض المنكبين .. وكأنه يلوح لها بيده مبتسما ويهتف بها :

ـــ سأنتظرك دائماً .

حمداً لله .. على أوهامنا .. إنها لا تحرمنا بقية أمل .. وبقية عزاء ..

(١٠)

قبيل الرحيل ...

كانت الساعة قد بلغت الثانية عند ما أقبلت « نادية ومنى» من النادى .

وكان البيت يبدو أجرد عارياً .. وقد طويت سجاجيده ، ونزعت فرشه ، وبدت « الأم » فى حركة دائبة بين الحقائب و « الدولاب » .

وعلى مقربة منها جلست العمة « زكية » .. وقد شردت كل منهما فى وادى أفكارها .. لا يجمع بينهما إلا بضع كلمات تتبادلانها بين آونة وأخرى .

وقالت « العمة » وهى تنظر إلى الحقائب التى كدست بها الملابس والمفروشات :

ـــ ما هذا كله ؟! ما الداعى لأخذ كل هذه الأشياء ؟

ونظرت إليها « لورا » وأجابت وهى منهمكة فى ترتيب « البطانيات » :

ـــ وما الداعى لتركها ؟

ـــ لأجل السكان الذين سيستأجرون البيت .

ـــ لا بد أن تكون معهم أغطيتهم .

ـــ إذا كنت تخشين عليها ، فلماذا لا تغلقين عليها أحد الدواليب بدل أن تحملوا أنفسكم كل هذه الأثقال .. إنكم تبدون كأنكم راحلون بلا عودة !

ـــ جائز .

ـــ فال الله .. ولا فالك .. لماذا تقولين هذا ؟

ـــ لست أنا التى تقول .. إنه أخوك .

ـــ لاتصدقيه .. هل تظنين أنه يستطيع أن يهجر أهله وبلده إلى الأبد ؟

ـــ لماذا لا تسألينه ؟

ـــ هل تحبين له أنت هذا !

ـــ أنا أحب له كل ما يحب .. وعلى استعداد لأن أفعل كلما يريد ، وأن أتبعه إلى حيث يشاء .

ـــ وأنا لا أظن سفركم إلا انفعال غضب .. وما أظنكم إلا عائدين عما قريب بمجرد أن تهدأ حالته ، وتستقر نفسه .

ـــ أرجو هذا .. أنا شخصياً لا يهمنى البقاء هنا أو هناك ما دمت مع زوجى وأولادى .

ودخلت « نادية ومنى» ..وأقبلت نادية على عمتها تصافحها .. فضمتها « العمة » وقبلتها قائلة :

ـــ أهلا نادية .. ستوحشينا يا حبيبتى !

ومرت « منى » بالعمة فهزت رأسها قائلة :

ـــ « بونجور تنت » .

وهزّت «العمة» رأسها ومصمصت بشفتيها .. مستنكرة طريقة « منى » فى التحية .

ونظرت الأم إلى « منى » مؤنبة وقالت :

ـــ سلّمى على عمتك .

ـــ سلمت .

ـــ سلمى جيداً .. كما سلمت نادية .

ومدت « منى » يدها بنفور إلى عمتها ، فهزتها « العمة » قائلة :

ـــ نحن لسنا قدر المقام يا ست منى .. أنت لا تحبيننا لأننا بلدى !

ـــ أنا لا أحب .. من لا يحبنى .

ـــ ومن قال إنى لا أحبك ؟

ـــ لقد قلت عنى إننى بنت « فاسدة » .

وضربت « العمة » بيدها على صدرها قائلة فى دهشة :

ـــ أنا؟! أنا قلت هذا عنك ؟!

ـــ وقلت أيضاً .. إن تربية أمي أفسدتني .. وقلت « اكفى القدر على فمها » .

ـــ أنا قلت هذا !! أعدم عيني .

والتفتت الأم إلى « منى » ناهرة وصاحت بها :

ـــ ما هذا الذى تهرفين .. أمجنونة أنت !؟

وأجابت « منى » فى إصرار :

ـــ وأنا مالى .. إن كانت قد قالت هذا .

وهزت « منى » كتفيها واتجهت إلى حجرتها .. واستمرت الأم تقـول معتذرة :

ـــ لا يضايقك كلامها .. إنها بنت مجنونة .. إنها ... وقاطعتها العمة قائلة :

ـــ لا تحدثينى عنها .. إنى أعرفها جيداً .. إن نادية هى بنتنا .

وردت نادية معلقة :

ـــ إن منى طيبة يا عمتى .. إنها تحبك ، ولكن لا تستطيع التحكم فى لسانها .

وتبعت نادية منى إلى حجرتها وهى تقول لها مؤنبة :

ـــ ما هذه السخافة .. التى قلتها !

وأدارت « منى » وجهها إلى « نادية » ونظرت إليها متحدية وهى تقول :

ـــ ألم تقولى لى أنت ذلك ؟!

ـــ طبعاً قلته .. ولكنى لم أتوقع قط أن تقوليه لها .

ـــ ولماذا .؟ لماذا لا أواجهها به حتى تكف عنه . إنى لا أحبها لأنها مخلوقة مرائية .. إنها تكره أمى .. رغم ما تحاول إظهاره لها من المودة .

ـــ يا منى .. نحن لا نستطيع أن نواجه كل الناس بمساوئهم ، يجب أن نتغاضى عنها .. وإلا تحتم علينا أن نعيش بمعزل من الناس .

ـــ انتهينا .. سنسافر من الغد ، ولن نرى لها وجهاً .. لعدة سنوات .. هذه

إحدى محاسن السفر .

وجذبت « منى » حقيبتها من أسفل الفراش .. وأخذت تقلب فيها قائلة :

ـــ لقد نسيت مضرب « الاسكواش » فى النادى .

ـــ لا يهم .

ـــ وكذلك « الشورت » !

ـــ « الشورت » مغسول ومنشور فى شرفة حجرة السفرة .

ـــ ما زال هناك الكثير من ملابسى لم أضعه ، والحقيبة قد أتخمت وهى تكاد لا تغلق .

ـــ لا تحملى هماً .. إنى أستطيع أن آخذها فى حقيبتى .. فمازال بها متسع .

وجلست « منى » على حافة الفراش وقد واجهت مرآة التسريحة، وأخذت تنظر إلى وجهها وجسدها وهى تخلع حذاءها بطرف أصابع قدميها .

ووضعت يدها عند معدتها وهى تحس بقرصة الجوع .. وصاحت بأمها فى الحجرة الأخرى :

ـــ الأكل يا ماما .. جعانة .

ووصل صوت أمها من الحجرة الأخرى يجيب :

ـــ اصبرى قليلا حتى يحضر عمك سليمان وأبوك وسنأكل كلنا سوياً .

وعادت منى تتساءل :

ـــ ماذا سنأكل ؟

ـــ بطاطس .

ـــ فقط ؟!

ـــ اذهبى إلى المطبخ . وانظرى بعينيك ما به . وكفى عن هذا الصياح .

ووثبت « منى »من مكانها على حافة الفراش واندفعت إلى المطبخ ووقفت على بابه ترقب « فاطمة» وهى تقطع الطماطم فى طبق السلاطة وتساءلت قائلة :

ـــ ماذا صنعت لنا يا « داده » ؟!

ـــ صينية بطاطس فى الفرن .
ـــ وماذا أيضاً ؟!
ـــ صينية مكرونة بالباشامل .
ـــ فى الفرن ؟
ـــ أجل .
ـــ وماذا أيضاً ؟
ـــ صينية قرع عسلى .
ـــ ما شاء الله .. هذا يعنى أنى لن أتغدى اليوم .. إنى أكره أكل الفرن .

وأشارت « فاطمة » إلى الفرن البوتاجاز وقد أغلق على الصينيات الثلاث وقالت معتذرة :

ـــ أنت تعرفين أن عمتك وعمك سيتناولان الغداء معنا اليوم ، وتعرفين أيضاً أننا حتى الحادية عشرة كنا مشغولين فى ترتيب الحقائب .. ولم يكن هناك ماينقذنا سوى الصينيات .

ـــ تقصدين .. لم يكن هناك ما ينقذكم سوى « التصلقة .. والكروتة » !

ـــ الصينيات ستعجبك يا ست منى .. وخصوصاً صينية المكرونة .. لقد صنعتها ...

ـــ وحياة أبيك « لا تتفلسفى » ... مهما عملت بها فإنى لا أحبها ، ولا آكلها .. ماذا عندك أستطيع أن آكله ؟

ـــ عندى مخ .. أأقلى لك قطعتين ؟

ـــ أجل .

ـــ حالا . سأوقد « وابو الجاز » حتى يسعفنى .. لابركة لى إلا أنت ياست منى .

وكانت نادية قد وصلت إلى باب المطبخ ووقفت وراء منى تسأل فاطمـة :

ـــ من أخذ السويتر البنى من حقيبتى يا « داده » ؟

— أخذته ماما وأعطته « لأم محمد » لتغسله .

— وأين أم محمد ؟

— فى الحجرة الصغيرة تغسل بدل بابا .

وتركت « نادية » باب المطبخ وسارت فى الدهليز حتى وصلت إلى باب الغرفة الصغيرة التي تعوّدت الأسرة تناول الطعام والحلوى فيها .

وكانت « أم محمد الغسالة » قد وقفت أمام المنضدة ووضعت أمامها طشتاً صغيراً امتلأ بالبنزين ووضعت فيه إحدى بدل الأب ، وأخذت تدعك ياقتها بكفيها .

ووضعت نادية أصبعها على طاقتى أنفها وهتفت بأم محمد :

— أف .. أنا أكره رائحة البنزين هذه .. لماذا لم ترسلوها إلى « المكوجى » لينظفها ؟

— لقد عادت من عنده كما هى .

— لماذا لم ترسلوها إلى التنتلرى ؟

— ليس هناك وقت يا ست نادية .. وقد طلبت منى « ماما » أن أغسلها ، وسأنتهى حالا .

— لقد ملأت رائحة الحجرة بنزيناً .. وسنأكل الآن ..

— حالا يا ست نادية .. دقيقة واحدة .

— لست أدرى لماذا لم تغسليها فى الحمام ؟

— الحمام ملىء بالطشوت والغسيل المعصور .

وأمسكت « أم محمد » بالجاكتة ورفعتها بين يديها وأخذت فى عصرها .

وأقبلت الخادم الصغيرة « عطيات » تحمل الشوكات والسكاكين وأخذت ترصها على المنضدة قائلة :

— عن إذنك يا أم محمد .. نريد أن نجهز الترابيزة .

— سأعصر البنطلون ، وأرفع الطشت حالا .

وعادت «عطيات» إلى المطبخ لتأتى بالأطباق، وبدت آثار أقدامهاواضحة فى الأرض بعد أن ابتلت بقطرات البنزين المتساقطة حول المنضدة من رذاذ عصر الجاكتة.

وتساءلت نادية عن السويتر قائلة :

— هل غسلت السويتر البنى ؟

— من الصبح .

— وأين هو ؟

— منشور فى الشرفة .. ولا بد أنه قد جف .. لأن الشمس تضرب فيها من الصباح.

ودخلت « نادية » إلى الشرفة لإحضار السويتر .. عندما عادت « عطيات » لتحمل الأطباق لرصها على المائدة .

وكانت « منى » قد عادت إلى حجرتها بعد أن أعلنت ثورتها على الصينيات ، وبعد أن اطمأنت إلى وعد « فاطمة » بعمل المخ .. وبعد أن رأت فعلا المخ بعينيها .

ووقفت « فاطمة » أمام وابور الجاز تدفع فيه بالكباس . حتى أخرج بعض الجاز من ثقبه ، وأمسكت بعلبة الكبريت وأخرجت منها عوداً فأوقدته ، ثم أشعلت به الموقد ، وقذفت به إلى الأرض .

ولم تحس « الدادة » بما فعلت ، ولم تبصر عود الثقاب ، وهو يقع على آثار أقدام الخادمة الصغيرة الملوثة بالبنزين ، ولم تشعر بالنار تسرى وراءها كالأفعوان .. متتبعةخطى عطيات .

لم يشعر أحد بذلك التسلل الخاطف ، ولكنهم أحسوا بالحجرة الصغيرة التى كانت تسطع بها الشمس ، والتى امتلأ جوها ببخار البنزين قد هبت بها النيران فجأة فى شدة وعنف . حتى بدت الحجرة كأنها كرة ملتهبة تتأجج بالسعير .

وصرخت « أم محمد » صرخة حادة واندفعت من باب الحجرة .. وقد أحست بالنار تهب حولها .. فارتطمت بالخادمة الصغيرة التى كانت تقف بباب

الحجرة مذهولة .. وتعثرت الاثنتان على الأرض وعلا صراخهما .

واندفعت « نادية» من الشرفة على صوت الصراخ لتواجه اللهب .. وفوجئت أمامها بسد من النيران يحول بينها وبين الصرخات المتعالية من وراء النيران .

ولم تستطع « نادية» أن تدرك حقيقة ما حدث .. وبدا لها البيت كله ، وقد تأججت به النيران .. واندفعت بلا وعى تحاول اجتياز النيران لتنقذ أمها وأختها .. وهى تصيح كالمجنونية :

ــ ماما .. منى .. ماما .. منى .

ولفحها الوهج .. وأحست بلسعته تلهب وجهها وذراعيها فتراجعت متأوهة .. ولكنها عادت مرة أخرى تحاول اجتياز النيران ، وهى تسمع صرخة أمها الحادة ، وهى تصيح : ــ نادية ؟

واندفعت إلى النيران تحاول اجتيارها .. ومرة أخرى ،لفح وجهها الوهج وأحست بلسعته أكثر حرقة ، وأشد إيلاماً .

ومن وراء حاجز النيران سمعت صوت أمها تصيح بها فى لهفة ·

ــ نادية .. أين أنت ؟

وأجابت نادية فى صوت مختنق :

ــ ماذا حدث لكم ؟ أين منى ؟!

ــ لا شيء يا نادية نحن بخير .

ــ إنى أريد أن آتى إليكم .

ــ قلت لك إننا بخير .. اقفزى أنت من الشرفة .

وترددت نادية برهة ، ولكنها أحست بلهب من النيران يلفحها .. وبدا لها كأن جسدها قد احترق ، وسمعت صوت « منى » يصيح بها من وراء النيران :

ــ اقفزى يا نادية من الشرفة .. سألف لآخذك .. نحن جميعاً بخير .. إن النار لم تتعد الحجرة الصغيرة .

واستدارت « نادية» مندفعة إلى الشرفة ، لتجد « منى » تصيح بها ، وقد وقفت بجوار أمها المشدوهة وعمتها المولوله :

ــ اقفزى يا نادية .

وأحست باللهيب يطاردها .. وبالدخان يكاد يخنقها .. وأبصرت وجوه الجيران ، وقد أطلت من النوافذ تصيح بها « اقفزى» ووجدت البوابين والخدم والبقال ، وقد اندفعوا إلى الحديقة يمدون أيديهم إليها .

ولم تكن المسافة بعيدة .. فلم تتردد « نادية » فى القفز ولا سيما بعد أن أبصرت أمها وأختها أمامها بعيدتين عن النيران . وبعد أن أحست بلفح اللهيب يلسع جسدها .

وهبطت « نادية » إلى الأرض بعد أن تمزق ثوبها الذى اشتبك فى حديد الشرفة .. وتلقفتها أمها بين أحضانها .. وخرّت معها راكعة إلى الأرض ، وقد انهارت أعصابها ووهنت قواها .. وأخذت تتحسس وجهها وجسدها .. وهى تئن هامسة فى بكاء مختنق :ــ نادية .. حبيبتى ماذا بك ؟!

وضمت « نادية » أمها إليها ودموعها تنهمر من مآقيها :

ــ لا شيء .. إنى سليمة .. لقد خفت عليكم .. خفت أن يكون الحريق قد أصابكم .

وركعت « منى » بجوارها وأخذت ترقبها فى جزع ، وقد احتقن وجهها وعنقها واحترقت أطراف شعرها ومؤخر ضفيرتها ، ومدت ساقها اليمنى ، وقد بدت قدمها متورمة من التواء أصابها عند سقوطها إلى الأرض وهتفت لها مشفقة :

ــ لماذا اقتربت من النيران يا نادية ؟! لماذا لم تقفزى من الشرفة بمجرد أن أحسست بها ؟

وأجابت نادية باكية : ــ ظننت أن النيران قد أتت على البيت كله .. وخشيت عليكما أنت وأمى .. الحمد لله .. الحمد لله .

وكان الناس قد ازدحموا حول البيت واندفعوا إلى الحديقة ، و كانت النار قد استشرت وسرت من الحجرة إلى المطبخ والممر .. وكانت ألسنة اللهب قد تعالت من النوافذ وأعمدت الدخان الأسود قد أخذت تتصاعد فوق البيت .

وسمع رنين جرس المطافىء ، وأعقبه رنين عربة الإسعاف وأخذ الضجيج يتعالى والازدحام يشتد .

وفى تلك اللحظة أقبلت عربة البكباشى « سليمان » التى أفسح سائقها الطريق لعربتى المطافىء والإسعاف دون أن يدرى سليمان أين تقصد العربتان .. ولم يخطر بباله عندما رأى بوادر الزحام فى أول الشارع أن شيئاً حدث فى بيت أخيه ، ولكنه لم يكد يشق طريقه فى الشارع ويبصر أعمدة الدخان المتصاعدة من البيت حتى ندت عنه صرخة دهشة وصاح بالسائق :

ـــ الله .. أسرع .. أسرع .. إن الحريق فى بيت أخى .

وهبط سليمان من العربة .. ليجد رجال الإسعاف يحملون نادية إلى داخل العربة .. فاندفع إليها صائحاً :

ـــ نادية ؟! مالك يا نادية ؟

وأجابت ، وهى تهز رأسها فى استسلام :

ـــ لاشىء .. الحمد لله .. لم يصب منا أحد .

ـــ وأنت .. ماذا بك ؟

ـــ لست أدرى .. أحس أن وجهى مشدود .. ملتهب .

واندفعت « منى » إلى أحضان عمها ، وهى تبكى :

ـــ عمى سليمان .. نادية احترقت .

وربت سليمان على ظهرها :

ـــ نادية لم تحترق .. إنها بخير .

ـــ وكان رجال الإسعاف قد أقبلوا حاملين « أم محمد » التى أصاب الحريق ساقيها .. وتعالى صياحها .

وقبل أن تغلق عربة الإسعاف بابها قفزت إليها منى .. وهى تصيح باكية : — نادية .. حبيبتى .

وأقبلت الأم تنشج ، وهى تتعثر ، وأمسك بها سليمان قائلا :

— تعالى فى عربتى .. سنسير وراءهما .

والتفت إلى أخته زكية قائلا :

— خذى بالك من البيت .. وعند ما يأتى فاضل أخبريه أننا فى مستشفى الدمرداش .. لا تهوّلى عليه الأمر .. الحكاية بسيطة .. وقولى له إن نادية بها بعض الرضوض .

وجلست الأم بجواره فى العربة .. وقبل أن يتحرك السائق ... صاح سليمان بأخته :

— خذى بالك من فاضل جيداً .. لا تدعيه يصدم .. أنت تعرفين أنه لا يحتمل صدمات .

وأجابت العمة ، وهى تكفكف دمعها :

— حاضر .. ربنا يستر .

واندفعت عربة « فاضل » وراء عربة الإسعاف ، واندفعت المياه من خرطوم الحريق إلى باب الشرقة الذى تعالت منه .

(١١)

أمنية مطرودة

اندفعت عربة الإسعاف تشق طريقها يسبقها رنينها المنذر المتواصل ، وعندما وصلت مستشفى « الدمرادش » انحرفت يمينا فى الشارع الجانبى المفضى إلى باب الاستقبال .. تتبعها عربة « سليمان » الذى بدا عليه الوجوم والشرود ، وهو يربت على كتف الأم .. كلما تعالت أناتها .. قائلا :

ـــ الحمد لله .. ربنا لطف .

وكررت الأم قولها فى لكنتها الأجنبية :

ـــ الحمد لله .

وصمتت لحظة ، ثم عاودها الأنين ، وهتفت منشجة :

ـــ نادية .. بنتى .

ـــ إنها بخير .. ليس بها غير التواء فى قدمها .. والتهاب فى وجهها وعنقها .. سيضيع بالمراهم ، أو بالكمادات .. كل شىء سليم إن شاء الله .

واجتازت عربة الإسعاف البوابة الحديدية .

ووقفت أمام حجرة استقبال الحوادث ، وهبط عاملا الإسعاف ليحملا « المصابتين » إلى الداخل .. واندفعت « منى وأمها » وسليمان فى إثرهما .

وأجريت للمصابتين الإسعافات الأولية .. بالمراهم والضمادات ، ورقدت « نادية » فى النقالة المتحركة ، وقد غطت وجهها الأربطة البيض فلم يبدو منه سوى عينيها اللتين بدت منهما نظرة هادئة مستسلمة .

وهمس طبيب الاستقبال الشاب الذى لم يمض على تخرّجه أكثر من بضعة أشهر :

ـــ أعتقد أنه لا بد من إجراء عملية قص لجلد الوجه .

وجزع « سليمان » من قول الطبيب .. إذ لم يخطر بباله .. من منظر وجه « نادية » ، أن الإصابة تستدعى شيئاً من هذا . لقد بدا له أن الوجه مجرد احتقان من الصهد .. لا يحتاج إلى أكثر من مرهم مهدىء .

ورد على الطبيب متسائلا :

ـــ أترى هذا ضرورياً ؟!

ـــ إذا كنتم حريصين على ألا يشوّه الحريق وجهها .

وأحس سليمان بشيء يلتوى فى باطنه ، وهو يحاول ألا يدع جزعه يبدو على قسمات وجهه :

ـــ طبعاً .. طبعاً .. لا تريد أن يمسها أى سوء .. افعل كل شيء أرجوك .

ـــ لست أنا الذى سيفعل ، سأسأل لك مَنْ من الجراحين مازال هنا . أظن الدكتور مدحت لم يغادر المستشفى بعد ، فقد كان مشغولا فى إحدى العمليات . انتظر لحظة ، سأسأل لك عنه .

وكان « سليمان » والطبيب يقفان بجوار النافذة بعيداً عن نادية الرافدة فى استسلام على النقالة ، وكان الحديث يدور بين الاثنين فى صوت خفيض لم يبلغ مسامع نادية أو منى أو أمهما .

ولم تكن واحدة منهن يدور بخلدها أن المسألة ستحتاج إلى عملية ، وكانت « الأم » تقف بجوار ابنتها ، وقد أمسكت بيدها وكأنما تنتظر أوامر الطبيب بالعودة إلى البيت .

واتجه الطبيب إلى التليفون الموضوع على منضدة فى ركن الحجرة ورفع السماعة قائلا :

ـــ آلو .. محمود ؟ أنا حلمى .. أعطنى الجراحة .

وبعد لحظة أجابه العامل :

ـــ الجراحة معك .

وتساءل الدكتور حلمى قائلا :

ــ مَنْ ؟ .. اسمع يا عباس .. من من الأطباء موجود عندك ؟! .. الدكتور مدحت .. فى حجرة العمليات . متشكر . ووضع حلمى السماعة والتفت إلى سليمان :

ــ الدكتور مدحت موجود فى غرفة العمليات .. أظننا نستطيع اصطياده بعد انتهائه من العملية .

وأثارت كلمة العمليات .. فى الجو .. نذير الخطر .. وأحست الأم أن ساقيها لم تعودا قادرتين على حملها . وتشبثت بقائم النقالة حتى لا تقع

وتساءلت « منى » وقد فغرت فاها وبدا الجزع فى عينيها :

ــ ماذا هناك يا « أنكل » سليمان .. لماذا تريدون الدكتور مدحت ؟!

أما « نادية » ، فلم يعلق بذهنها شىء من كل ما قيل ، غير لفظين هما « الدكتور مدحت » !

لقد بدد اسمه سحابة الاستسلام التى خيمت عليها منذ بداية الحادث .. وأحست بأعصابها تشتد .. وحواسها ترهف .. ولم يعد فى جفنيها ذلك التثاقل الذى كان يطبقهما .

الدكتور مدحت .. موجود .. ؟

أجل .. محتمل جداً . أليس هذا هو مستشفى الدمرداش الذى يعمل به !!

ــ إن ذلك لم يطف بذهنها قط ، منذ أن أقبلت على المستشفى . إن الصدمة لم تترك لها فرصة التفكير فى هذه الحقيقة .

ومع ذلك فقد برزت أمامها فجأة .. لتنبئها أنه موجود وأنه يحتمل أن يقبل عليها بين لحظة وأخرى ، ليفعل بها شيئاً ، تحتمه إصابتها .

ولم تفكر فى طبيعة ذلك الشىء الذى يمكن أن يقوم لها به ، ولا فى مدى خطورة الإصابة التى حتمت استدعاءه ، وإنما فكرت فى الكائن ذاته .. وفى خطورة إقباله عليها .. وتوليه أمرها .

تلك أمنية طالما طافت بذهنها ، فقد كانت طريقها الوحيد إليه .. كانت

بهدوئها وانطوائها وعزلتها .. لا تجد فى أحلامها طريقا إليه سوى المرض ، والرقاد . كانت لاتجسر على الاقتراب منه إلا كمريضة ،يجس نبضها .. ويتحسس جبينها ، ويجلس إذا أمكن على طرف فراشها يحادثها فى رقة ، وينظر إليها فى حنان .

ورقدتها على النقالة . فى حاجة إلى إسعافه .. وهو على بعد خطوات منها .. وكل من حولها فى انتظار معونته .. لقد باتت الأمنية على وشك التحقيق .

ورغم ذلك .. لم تحس لها الفرحة المنتظرة .

ـــ لم يصفق قلبها لا ستقباله كما صفق فى الأوهام .. لقد كان به شيء يثقله .

لم تكن الصورة مطابقة لما رسمته فى أوهامها .. لم يكن هناك من شبه بها .. من قريب أو بعيد .

كانت تتخيل المكان مليئاً بالزهور ، وكانت تتصور السماء من وراء النافذة الزجاجية زرقاء صافية ، تتحرك فيها الأوراق الخضر وتزقزق العصافير ، وكانت تتخيل نفسها على فراش أبيَض نظيف وقد أخفت الأغطية البيض ساقيها وبدا نصفها الأعلى فى ثوبها « اللبنى » وقد أسندت رأسها إلى الوسادة وبدا وجهها نظيفاً يحيط به شعرها الذهبى المسدل على كتفيها .

والحجرة البيضاء النظيفة قد خلت إلا منه . وزهور الزنبق والداليا ، وهمساته الحلوة الحنون .. لا يقطعها سوى صوصوة العصافير المتوأثبة خارج النافذة على الفروع الخضر .

تلك هى صورة أوهامها ، كما رسمتها فى دقة وإتقان ، وكما منحتها من ألوانها الزاهية وأنطقتها بأصواتها السعيدة . وذلك هو الطريق كما خطته أحلامها ، تحيطه الزهور وتتواثب به العصافير .

فأين هى من واقعها ، الأليم المريض فى رقدتها على النقالة .. وأصوات المرضى الواردين .. على الاستقبال .. وسباب الممرضين .. وحدة الأطباء !

أين من زهور أحلامها .. قطع القطن الملوّثة بالدماء والميركيروكروم التى

كوّمت فى ركن الحجرة وعلاها الذباب ، المتواثب على أسفل الجدران السود .

وهى بقميصها الممزق الملّوث بطين الحديقة .. وهباب الحريق .. ووجهها الذى غطاه المرهم وحجبته الضمادات .

والطنين الذى يملأ رأسها ، والصراخ الذى يدوى فى مسامعها . أتلك هى صورة أحلامها !!

أذلك هو طريقها .. الذى طالما سلكته إليه فى أوهامها !

ماذا يمكن أن يرى منها ، أكثر من كتلة ضمادات وأتربة وهباب وثياب ممزقة ؟

وعندما يرفع تلك الضمادات ماذا يمكن أن يواجهه منها .

ابتسامة عذبة تكشف عن أسنانها الحلوة المنضدة البيض وعينين ضاحكتين تبرقان فى بشرتها الصافية .

وأحست برجفة تسرى فى جسدها .. وهى تسائل نفسها فى جزع :

ماذا يمكن أن يجد فى وجهها ؟

كيف أصبح وجهها بعد الحريق ؟

إنها لم تشعر بأكثر من التهاب شد جلده .. بعد أن لسعه وهج الحريق .

ولكن أيمكن أن تكون اللسعة قد تركته على حاله ؟!

لماذا إذن يطلبون عونه .. إذا لم يكن أصابها شىء !!

ومرة ثانية أحست بالرجفة تشتد . وأطبقت على أسنانها حتى تمنع صرخة كادت تنطلق من شفتيها .

أيمكن أن يكون الحريق قد شوّه وجهها .. وأن يكون القدر قد فتح لها الطريق إلى مدحت لكى تواجهه لأول مرة بوجه مشوّه !

أبعد طول التمنى .. يلقى لها القدر بأمنيتها .. فتجزع من مواجهتها ؟

إنها تجزع من أن يقبل عليها مدحت . وهى فى رقدتها تلك ، لينزع الضمادات .. ويبصر وجهها المشوّه المحترق . ليتهم لا يستدعونه .

ليتهم يعيدونها إلى البيت .. لتختبىء فى حجرتها .

وأحست « نادية » بعربة النقالة تدفع بها .. وتوالت على ناظريها أسقف الممرات الضيقة .. وسمعت وقع الأقدام تهرول وراءها . ثم أحست بالعربة تدفع فى المصعد . وبدا لها المصعد بجدرانه الحديدية ونافذته ذات القضبان المتقاطعة أشبه بسجن . وتمنت لو استطاعت أن تصيح بهم متوسلة أن يطلقوا سراحها .. ويعيدوها إلى البيت .

وسمعت صوت الطبيب يقول للممرض الذى يدفع العربة :

— حجرة ٧٥ .

وعادت العربة تسير بهامرة أخرى فى ممرات المستشفى ، حتى توقفت أمام الحجرة . وفتح الباب ودفع بالعربة إلى داخل الحجرة حتى حاذت الفراش الذى توسطها ، وأحست « نادية » بسليمان ينحنى عليها ثم يرفعها بين ذراعيه ليضعها على الفراش .

ثم سمعت صوت نشيج أمها .. وأبصرت وجه « منى » ينظر إليها فى إشفاق وجزع وقد ملأت الدموع عينيه .

ولم يروعها ذلك الجزع بقدر ما روعها صوت الطبيب وهو يقول لسليمان :

— سأذهب لكى أرى الدكتور مدحت لعله يكون قد انتهى من عمليته .

وسمعت سليمان يرد عليه وهو يتبعه قائلا :

— آسفين لما سببناه لك من إزعاج .

— لا إزعاج هناك .. كل ما أرجوه أن أعثر لكم على الدكتور مدحت .. حتى لا يترك الحريق أثراً فى وجهها .

وسار الطبيب الصغير فى الطرقة متجهاً إلى غرفة العمليات وعاد سليمان إلى الحجرة وهو يحاول أن يكسو وجهه ابتسامة يمنح بها من حوله بعض الطمأنينة .

ونهضت الأم تواجهه باكية متلهفة :

— ماذا قال ؟!

ـــ لا شيء .. لا داعي لكل هذا الانزعاج . إن المسألة بسيطة جداً .

ونظرت إليه « منى » نظرة متسائلة فى تحد :

ـــ و لماذا يريدون إحضار الدكتور مدحت ؟ إنه جرّاح .

وهز سليمان كتفيه محاولا التخفيف من أمر الإصابة قائلا :

ـــ من المستحسن أن يكشف على جلد الوجه .. من باب الطمأنينة .. إنها مسألة فى غاية البساطة

و لم يستطع أن يقنع أحداً بكلامه حتى هو نفسه . كان الجزع يملأ القلوب الأربعة .. الثلاثة المتحركون فى قلق ، والرابعة الراقدة فى استسلام ظاهر .. وجوفها يغلى بشتى الانفعالات .

لقد كانت أمنيتها الدائمة .. أن ترى مدحت .

فباتت أمنيتها الوحيدة .. هى ألا تراه .

وكان الدكتور « حلمى » قد بلغ باب حجرة العلميات . وأبصرت الباب يفتح على مصراعيه .. ومدحت يخرج منه بقامته الطويلة و « مريلته » البيضاء .. وقد بدا وجهه متجهماً . والعرق يتصبب من جبينه وسار بخطوات متثاقلة تنبىء عما به من كلال وإرهاق .

واقترب منه حلمى محيياً وهو يقول :

ـــ دكتور مدحت .

ـــ نعم !

وتردد « حلمى » برهة قبل أن يعاود النطق .. كان يحس بحالة « مدحت » المرهقة وكان يعرف استهتار مدحت بمثل هذه العمليات وضيقه بها . وكان يعرف ردوده القاسية ، ولكن خوفه على الفتاة الرقيقة الشقراء .. وإشفاقه من أن يشوّه الحريق وجهها جعله يصر على الاستنجاد به . فقال فى شبه استعطاف :

ـــ هناك حالة عاجلة .

ونظر إليه « مدحت » فى غيظ قائلا :

ـــ لقد مضت على ثلاث ساعات فى غرفة العمليات .. إنى لا أكاد أقف على قدمى .

ـــ إنها حالة مهمة .

ـــ ما هى ؟

ـــ فتاة قد احترق وجهها .. ويخشى أن يشوّه .

ونظر إليه مدحت فى غيظ قائلا :

ـــ ليشوّه يا أخى .. وأنا مالى .

ـــ لا يوجد جرّاح غيرك فى المستشفى .

ـــ لقد عملت أربع عمليات.اذهب إلى أحد العاطلين ، الذين يلعبون الشطرنج . ليس لدى وقت لمثل هذه العمليات التافهة .

ـــ ولكنك ستنقذ بها حياة إنسانة مسكينة .. يوشك أن يشوّه وجهها .

ـــ أنا لست طبيب تجميل .

ـــ ولكنك تستطيع أن تنقذها .. إنها فتاة صغيرة جميلة وحرام أن يقضى على مستقبلها .

وتوقف مدحت ونظر إليه وأصداغه تلعب .. وقال فى نوع من الاستسلام :

ـــ أين هى ؟

ـــ فى حجرة ٧٥ .. سأدلك عليها .

ـــ مالك مهتما بها كل هذا الاهتمام .. أتعرفها ؟!

ـــ أبداً .. رأيتها فقط الآن فى الاستقبال وأجريت لها الإسعافات الأولية .

وتقدم «حلمى » يسبق « مدحت » إلى الحجرة التى استقرت بها نادية .. ودفع الباب يفسح له الطريق .

واقترب مدحت من الفراش بملامحه الصارمة التى بدا عليها الإرهاق .. ومد كفه الضخم فأمسك برسغ نادية يجس نبضها وهو ينظر فى ساعة استقرت فى معصمه .

وخيل لنادية أن قلبها قد تعالت دقاته حتى أوشك أن يقفز من بين أضلعها .. وتلاحقت أنفاسها وأحست أن المرئيات أمامها قد بدأت تطول وتتشابك .

وترك مدحت كفها بغير اكتراث . ولم تصدر من شفتيه لفظة أكثر من حرفين لم يعرف أحد ماذا يعنى بهما وهما « ها » .

ونظر فى امتعاض إلى كل ما حوله .. وقال لحلمى :

ـــ فك الرباط .

وأمسكت « نادية » بحديد الفراش وهى تحس بشىء يثقل جوفها ويسد حلقها .. وكادت تصيح به :

ـــ لا أريد شيئاً من أحد .. اذهبوا إلى البيت لا تكشفوا وجهى .

وتقدم حلمى ومد يده إلى الضمادات التى غطت وجه نادية .. وهـمّ بفكها .. عندما فتح باب الحجرة فجأة وأطل منه أحد الممرضين ثم قال لشخص يقف خارج الباب :

ـــ أجل .. إنه هنا .

واختفى وجه الممرض . واندفع بدله وجه آخر يهتف بمدحت :

ـــ دكتور مدحت .. المريض المصاب بمعدته قد حدث له نزيف .

وبدا الضيق على وجه مدحت . ونفخ نفخة انزعاج من أنفه وقال كأنه يحدث نفسه :

ـــ « حاجة تقرف » .

وكان حلمى قد توقف عن فك الأربطة .. وانتقلت عينا مدحت بين حلمى وبين الطارق الجديد وأخيرا قال له :

ـــ سآتى حالا .

وبدا الامتعاض على وجه « حلمى » وبقية الواقفين حول الطبيب .

وقبل أن ينسحب الطارق قال له مدحت :

ـــ اسمع يا عبد الوهاب ابق هنا .. وسأذهب أنا إلى هناك .

وأشار إلى « نادية » فى غير اكتراث قائلا :

ــ افحص وجهها . وإذا وجدت المسألة تحتاج لعملية قص الجلد .. فقم بعملها .

وتحرك مدحت إلى الخارج بوجهه المتجهم وملامحه الممتعضة ، وأقبل الدكتور عبد الوهاب على نادية ، وهو يهز رأسه متسائلا :

ــ أرينى وجهك .. لا تخشى شيئا .

وبدأ حلمي يفك الضمادات .. وأحست نادية .. وهى ترى كتفى مدحت العريضتين تختفيان وراء الباب .. وشبحه يغيب عن عينيها .. كأن حملا ثقيلا قد انزاح عن كاهلها .

(١٢)
يوم أغبر ...

فك الدكتور حلمى الضمادات التي أحاطت بوجه « نادية » وأخذ الدكتور عبد الوهاب يفحصه .. وكان الجلد قد بدا مشدوداً منتفخاً ، والشفتان متورّمتان .. وفقاقيع بيض مليئة بالمياه قد تناثرت فى الخدين والجبين جعلت الجلد يبدو أشبه بورقة السيجارة أو البالون ، وكان لون الوجه محتقنا عدا جزء من جانب العنق أسفل الأذن اليمنى يمتد حتى الذقن ، قد بدا أسود كأنما لفحته هبة دخان .

ولم يطل فحص الدكتور عبد الوهاب حتى هزّ رأسه قائلا :

ـــ بسيطة .. أحضروها إلى حجرة العمليات .

وانهارت الأم متهاوية على أحد المقاعد وأجهشت بالبكاء .. ولم تستطع « منى » أن تطيل النظر إلى وجه « نادية » المحتقن المنتفخ ، بل أدارت عنقها ودفنت رأسها بين كفيها تحاول أن تكتم صيحات الجزع وأنات الألم .

وحاول سليمان أن يتماسك بأطراف الشجاعة والجلد فنظر إلى الأم وابنتها وقال ناهراً :

ـــ وبعدين ؟! قلنا لكم إن المسألة بسيطة .. هذا لا يصح .. عيب .

ثم هرول وراء الدكتور عبد الوهاب إلى الممر يسأله فى لهفة :

ـــ ماذا بها دكتور ؟

وتوقف الدكتور عبد الوهاب وأجابه فى لهجة مطمئنة :

ـــ الوجه ليس به ما يبعث على القلق .

ـــ ولكنه يبدو منتفخاً مبقعاً .

— لا يهم .. إن ما به حرق من الدرجة الأولى ، وسأنزع عنه هذه الجلدة الرقيقة البيضاء التى كوّنتها الفقاقيع حتى تظهر له جلدة جديدة ، وحتى لا تبدو فى وجهها رقع مشوّهة .

— هل سيؤلمها هذا ؟ هل ستبنجها ؟

— أبداً .. لا ضرورة ألبتة .. لن تتألم كثيراً .

— وهل سيعود وجهها كما كان ؟

— وجهها .. أجل .. أما عنقها فأعتقد أن الحريق لا بد أن يترك به أثراً .. لقد مسته النار مساً مباشراً .. فأصابته بحرق من الدرجة الثانية .. على أية حال .. يجب أن نحمد الله أن النار لم تصبها بحرق من الدرجة الثالثة .. كان يمكن أن يقضى على حياتها .

و لم يستطع سليمان أن يقاوم تجلده وتماسكه ، فعض على شفته السفلى محاولا كبت دمعة فى مقلتيه ، واختلجت طاقتا أنفه وطرفا شفتيه .. وأحس الطبيب بانفعاله .. فربت على ذراعه وقال مطمئناً :

— لا داعي للجزع .. إن المسألة خفيفة بسيطة .. وسأبذل كل جهدى لكيلا تترك أثراً فى وجهها .

— متشكر يا دكتور .. متشكر جداً .

وبعد لحظة كانت النقالة تسير « بنادية » مرة أخرى متجهة إلى حجرة العمليات وقد غطى وجهها بالضمادات .. وبدت عيناها تحملقان فى سقف الطرقة .. فى استسلام ، وقد ملأ قلبها شعور بالخوف والجزع واليأس ، وهى تحس من حولها نذر الخطر .

واجتازت العربة غرفة العمليات ، وشعور الخوف يزداد بنادية .. وسليمان بجوارها محاولا أن يبتسم فى وجهها وهو يقول :

— بسيطة يا نادية .. الدكتور يقول إنها عملية أشبه بقص الأظافر .. إنه يقول إنها عملية تجميلية .. ستخرجين منها بوجه رائع .. سيزول التمش الذى به .

ولم تستطع « نادية » أن تلتقط شيئاً من كلماته المطمئنة .. كانت فى حالة من الذهول جعلتها لا تكاد تحس إلا بالمنظر المخيف المحيط بها ، منظر المناضد البيض والمشارط والمقصات والمصابيح المشعة المطلة عليها من السقف كأنها أفواه مكشرة .

ومرة أخرى أزيلت الضمادات عن وجهها ، وداخلها إحساس جديد بالإضافة إلى أحاسيس الجزع والخوف واليأس.. وهو الإحساس ببشاعة منظرها وهى لا تستطيع أن تحرك شفتيها المتورّمتين المطبقتين .. وتمنت لو انتهى الطبيب بسرعة من عمله حتى يعيد ستر وجهها وإخفاءه عن العيون المتطلعة .. وكانت تحس برجفة كلما سمعت وقع أقدام مقبلة خشية أن يكون « مدحت » قد انتهى من مريضه وعاد ليجرى لها العملية .

وبدأ الدكتور عبد الوهاب العملية ، ولم تكن بالعملية السهلة .. فقد كانت أشبه بعملية السلخ ، أزال بها طبقة الجلد التى أحرقها الوهج والتى انفصلت عن الجلد فى بعض المواضع فى صورة فقاقيع امتلأت المياه .. وانزلقت عنها فى مواضع أخر كما ينزلق طبع الأطفال عن ورقته .

واستسلمت «نادية» لمبضع الجراح.. يسرى فى وجهها، بلا مخدر، إلا تخدير الصدمة المفاجئة التى تركتها ذاهلة .. مأخوذة مروّعة .

وانتهت العملية بعد أن أزيل جلد الوجه كله .. وغطى الطبيب الوجه بالمرهم ، وامتد به حتى جزء العنق الذى أصابه اللهب والذى قال عنه إنه يخشى أن يظل به أثر الحريق .. ثم أحاط الوجه والعنق بالضمادات وألصقها بالبلاستيك .

وتنفس الطبيب الصعداء وارتسمت على شفتيه ابتسامة رقيقة وهو ينظر إلى نادية قائلا :

ـــ انتهينا يا قمورة .

وحاولت « نادية » أن تحرك شفتيها لترد شاكرة ، ولكن النطق

تعذّر عليها فربت الطبيب يدها قائلا :

ـــ لا داعى للكلام .. ستتناولين الطعام سائلا بالإبريق لمدة بضعة أيام حتى يخف الورم .. ويعود وجهك كما كان.

وابتسم الطبيب وهو يردف قائلا :

ـــ وأجمل مما كان .

ومرة أخرى عادت النقالة تشق طريقها « بنادية » إلى الحجرة وقد أخذت الأم و « منى » تهرولان وراءها فى لهفة وجزع .

وقال الطبيب لسليمان وهو يغادر غرفة العمليات :

ـــ اطمئن جداً .. لا شىء سيصيب الوجه كما قلت لك .

ـــ والعنق ؟!

ـــ لا أستطيع أن أجزم .. قد تبقى به بعض الآثار .. ولكنها على أية حال بعيدة عن الوجه .. الحمد لله أن الوجه لم يصبه الحريق مباشرة .

ـــ الحمد لله .. وماذا ستفعل لها بعد ذلك ؟

ـــ لا شىء .. غيار بعد أربعة أيام .. وغيار آخر ، ثم نزيل الضمادات ، ويعود الوجه إلى حالته .. على ألا يعرّض للشمس والهواء إلا بعد بضعة أسابيع .

ـــ هل ستبقى هنا هذه المدّة ؟

ـــ أبداً لا ضرورة ألبتة ، يمكنها أن تعود الآن للبيت إذا أردتم ، وفى موعد الغيار أحضرها لى .. أو أذهب إليها أنا .

ـــ متشكر يا دكتور .. لا ضرورة لأن تتعب نفسك . سأحضرها إليك .. فى الموعد الذى تحدده .. إنى عاجز عن شكرك .. لست أدرى ماذا كنا فعلنا لولا وجودك ومروءتك ؟

وودّع سليمان الطبيب وعاد إلى الغرفة .. فوجد « منى » والأم قد أحاطتا « بنادية » وقد خيم عليهما صمت الكآبة ووجوم الحزن والفجيعة .. وقد بدت « نادية » مغمضة عينيها وكأنها فى سبات أو غيبوبة .

ولم يجد سليمان صعوبة هذه المرة فى تكلف الشجاعة والجلد .. فقد كان يحس فى نفسه نوعاً من الطمأنينة على « نادية » .. أدخلها فى نفسه حديث الطبيب وطمأنته .

وربت سليمان كتف الأم مستضحكاً وهو يقول :

ــ لا داعى أبداً للحزن .. إنها سليمة .. ليس بها شىء ، وسيعود وجهها كما كان .. بل لقد قال الطبيب وأجمل مما كان .

ثم نظر إلى « منى » التى بدت فى عينيها آثار الدموع .. وأردف قائلا :

ــ وأنت يا منى .. كفى عن هذا الوجوم .. إنها عملية تجميل لا أكثر ولا أقل .. وعندما تصحو نادية .. وتعجبك العملية فلا بأس من أن تجرى لك مثلها .. لإزالة هذا النمش الذى يبدو فى أنفك .

ونظر سليمان إلى الساعة وكانت قد قاربت الخامسة وتلفت حوله فى قلق قائلا :

ــ ألم يأت فاضل ؟!

وأجابت « الأم » وكأنما تذكرت زوجها وأقلقها عدم مجيئه حتى هذا الوقت :

ــ لا .. لم يأت .

ــ عجيبة !! ولا سأل فى التليفون ؟!

وهزّت الأم رأسها بالنفى .

وعاد سليمان يتساءل :

ــ وما الذى أخره ؟! لعله لم يعرف ..

وأجابت منى :

ــ غير معقول .. إذا كان قد عاد إلى البيت فلابد أن يعرف . أتظن كل هذا الحريق والضجيج الذى حدث يخفى عليه .

وأردفت « الأم » قائلة وقد بدا عليها الشرود والجزع :

ـــ والمفروض أنه قد عاد ليتناول الغداء كعادته .

وحاول سليمان رغم قلقه أن يبعث الطمأنينة كعادته فى نفوسهم فقال فى ثقة :

ـــ لا بد أن شيئاً ما قد شغله .. إن هناك بعض أوراق للسفر لم يتم استخراجها بعد .. فلا بد أنها أخرته .

ولم يستطع حديثه المطمئن أن يزيل القلق من نفس الأم التى عاودت التساؤل :

ـــ إنه لم يعتد التأخر أبداً .. ترى ماذا حدث ؟

وعاد سليمان يرد محاولا إسكات قلقها .. الذى بدأ يثير فى نفسه القلق :

ـــ لا شىء .. لا شىء مطلقاً .. قد يكون مشغولا بما حدث فى البيت .

ـــ غير معقول أن ينشغل بالبيت عنا . غير معقول أبداً .

ووجد سليمان أن عذره غير معقول فعلا وصمت برهة ثم قال :

ـــ على أية حال سأعود الآن إلى البيت .

وتساءلت منى :

ـــ ونحن ؟

ـــ لقد قال الدكتور إن « نادية » تستطيع العودة الآن إلى البيت ، ولكنى أعتقد أن الأفضل أن تبقى فى المستشفى بضعة أيام حتى تتحسن قليلا ، وحتى يعمل لها الغيار الأول .

وفتحت « نادية » عينيها لأول مرة خلال المناقشة وهزت رأسها فى ضيق وبدت كأنها لا تود البقاء فى المستشفى .

وتساءل سليمان قائلا :

ـــ لماذا يا نادية لا تريدين البقاء فى المستشفى !! إنه أفضل كثيراً من البيت !

وعادت « نادية » تهز رأسها فى إصرار .. لقد كانت تريد الفرار خشية أن يعود « مدحت » ليراها .. إن الصدفة وحدها أنقذتها عندما أقبل الممرض يخبره

أن مريضه قد نزف .

فماذا ينقذها إذا عاد مرة أخرى ليراها ؟

لا .. لا .. يجب أن تغادر المستشفى فى أقرب فرصة .. وما دام الطبيب قد قال إنها تستطيع أن تغادره الآن فماذا يبقيها !

وقالت الأم وهى ترى رفض نادية البقاء :

ـــ إذا كان الطبيب لا يرى ضرورة لبقائها .. فلماذا لا نعود كلنا الآن ؟!

وأجاب سليمان فى ضيق ودهشة :

ـــ كيف نعود بها الآن ؟ هل نعرف ماذا حدث بالبيت ؟

وفغرت « الأم » فاها وصاحت فى جزع :

ـــ ماذا حدث ؟! هل احترق ؟! وفاضل ؟!

ـــ لا أقصد هذا .. لقد تركنا به رجال المطافىء .. وقد أوشكوا على إخماد الحريق .

ـــ ومن يدريك ؟!

ـــ لأنه لم يتعد الحجرة الصغيرة .. وأنا لم أقصد أننا لا نستطيع أن نعود إلى البيت لأنه احترق .. بل لأننا لا بد أن نجد هناك ضجيجاًوزحاماً .. ثم إنه ليس من المستحب أن نعود بها الآن إلى نفس المكان الذى حدثت فيه الحادثة . إن ذلك يؤثر على نفسيتها تأثيراً سيئاً .

وعادت « نادية » تهز رأسها فى ضيق .

وقالت الأم :

ـــ ولكنها تريد العودة .

ـــ وأنا أنصح بعدم العودة .. إن من رأيى أن تبقى هنا ولو هذه الليلة حتى يستقر الحال فى البيت .. لا داعى أبداً لإعادتها ، ومنظر الحادث وآثار الحريق لم تمح بعد .

ـــ إذا سأبقى أنا معها ؟!

وأردفت « منى » قائلة :

ـــ وأنا أيضاً ؟!

وأجاب سليمان :

ـــ كما تشاءان . سأعود أنا الآن إلى البيت لأرى فاضل . وأرى ماذا تم فى البيت ثم أعود إلى هنا .

وقالت الأم :

ـــ حدثنى فى التليفون بمجرد وصولك وطمئننى على « فاضل » .. أخشى أن يكون قد أصابه مكروه .

وأحس سليمان برجفة ولكنه عاد يقاوم قلقه قائلا :

ـــ يا شيخه .. لابد أنه تناول الغداء مع أحد أصدقائه .. وعندما يعود سألقاه وأطمئنه وأعود به إليكم .

ونظر سليمان إلى « نادية » وربت على يدها فى حنان قائلا :

ـــ سأذهب الآن .. هل تريدين شيئاً من البيت ؟

وأجابت الأم :

ـــ غيار لنادية .. دع فاطمة تحضره لك .. وإذا أمكن تحضر لى ثوباً وآخر لمنى .

ـــ حاضر .. لن أتأخر عليكم .

وهبط سليمان إلى الطريق ليعود بعربته إلى البيت . وفى العربة أحس كأنه قد ترك كل شجاعته وجلده بجوار الأم وابنتها فى حجرة المستشفى ، وحل به التعب الذى حاول جهده أن يشد أعصابه ويحشد قواه لمقاومته .

ـــ وبدأت الوساوس تنفذ إلى رأسه .

لماذا لم يأت فاضل ؟!

لماذا لم يسأل عن ابنته ولو فى التليفون ؟

أترى قد أصابته الصدمة بنوبة جديدة من نوبات الذبحة ؟ ربنا يستر .

ليته يكون قد دعى حقاً إلى الغداء مع أحد أصحابه .. وليته لا يعود قبل أن يعود هو إلى البيت ليلقاه .. ويخفف عليه وقع الحادث .

إن هذا يوم أغبر مشئوم .. ترى بمن اصطبح ؟ .. بأى وجه منحوس !

وتذكر « نادية » الطيبة الجميلة .. جالسة فى ارتياح أسفل الشرفة ، وقد أحاطت بها أمها وأختها .. وتذكرها راقدة فى استسلام ويأس على فراشها ، وقد غطت وجهها الضمادات فلم يبد منها سوى عينيها ، وشفتيها .

وتذكر وجهها المحتقن .. المسلوخ .

وساءل نفسه : « أحقاً .. سيعود كما كان !! »

وبدأ الشك يداخل نفسه .. وعاودته الرغبة فى البكاء من أجل الصبية المسكينة .

كيف تعيش بوجه مشوّه .. محروق !

ولكن الطبيب قد طمأنه .. لقد قال إنه سيعود كما كان .. وإلا .. فلماذا أجرى عملية القص التى أجراها !!

لا .. لا .. إنها ستشفى ، وتعود كما كانت .. إنها مخلوقة طيبة رقيقة .. والله لا يمكن أن ينزل بها هذاالعقاب .

وأدار عجلة القيادة فجأة بعد أن كاد يصطدم بعربة واقفة على جانب الطريق .

ومرة أخرى أحس برجفة .

هذا اليوم يأبى أن يمر على خير .

ليته فقط يجد فاضل سليما .

وانحرف بالعربة من الطريق الرئيسى فى شارع الخليفة المأمون .. إلى الشارع الفرعى الذى يؤدى إلى البيت .

وبدا له الطريق خاليًا.. لقد انفض الحشد الذى ازدحم فيه فى الظهيرة ، ولم يعد هناك أثر لعربة المطافىء ، ولا بدت من البيت ألسنة لهب ولا أعمدة دخان .

كان كل شىء يوحى بالهدوء والسكينة .. كأن لم يكن هناك حريق منذ بضع ساعات .

وبدا له باب البيت عندما بلغ منتصف الطريق .. لم يكن هناك شىء يوحى بشر أو ينذر بخطر ، لا شىء أبداً .. إلا عربة « فيات » صغيرة سوداء تقف أمام البيت .

ترى عربة من ؟

لعله صاحب فاضل الذى دعاه للغداء قد عاد به إلى البيت ؟

ووقف سليمان بجوار العربة .

وفجأة تذكر !

وأحس بشىء ثقيل يطبق على أنفاسه ويفرى معدته .

إنها عربة الدكتور شافعى .

الدكتور الذى أشرف على علاج فاضل عندما أصابته نوبة الذبحة الأولى .

واندفع سليمان يقفز السلم ، وهو يلهث .

يارب رحمتك .

يارب .. رفقاً بهم جميعاً .

ولم يكن الباب مغلقاً فدفعه سليمان ليجد « فاطمة الدادة » تقف على باب القاعة ، وقد بدا عليها الوجوم .

ولم تكد تراه حتى اندفعت إليه باكية كالأطفال ، وهى تصيح :

ـــ سيدى سليمان .. أين ست نادية !! كيف حالها ؟!

ولم يجب سليمان ، ووقف فى منتصف القاعة يدور بعينيه فى الأبواب وتساءل فى لهفة :

ـــ أين فاضل ؟!

وعادت فاطمة تبكى .. وأشارت له إلى باب حجرة المكتب قائلة :

ـــ إنه يرقد هنا .. إن عنده الدكتور والست زكية .

ودلف سليمان من باب الحجرة .. ليجد أخاه راقداً على الأريكة التى تعوّد النوم عليها ، وقد بدا شاحب الوجه .. مغمض العينين وقد أخذ يحرك رأسه يمنة ويسرة فى ضيق وملل .

وهتف سليمان بأخته قائلا :

ـــ ماذا به ؟ ماذا أصابه ؟

وأجابت زكية بصوت مختنق ، وهى تقاوم انفجار البكاء :

لم يكد يعلم بالحادث الذى أصاب نادية .. حتى أصابته النوبة .. وتلاحقت أنفاسه .. وصرخ ، وهو يحس أن شيئاً يتمزّق فى صدره .. وأرقدناه على الأريكة ، وأسرعنا فى طلب الدكتور .. ومنذ ذاك الوقت ، وهو على حاله تلك .

ونظر سليمان إلى الدكتور متسائلا فى جزع :

ـــ كيف حاله يا دكتور ؟!

ـــ ربنا يسلم .. لقد أعطيته إبرة منذ أن حضرت .. وأرجو أن تمر بنا الأربع والعشرون ساعة القادمة على خير .

ـــ هل هناك خطورة ؟!

ـــ إن الضغط منخفض قليلا .. ولكن الله يسلم .

وفتح فاضل عينيه ، ولم يكد بصره يقع على سليمان حتى هم بالنهوض .. لكن الدكتور أمسك به قائلا :

ـــ وبعدين .. لقد قلنا .. إنك يجب أن تستريح .. إن حياتك متوقفة على عدم الحركة والانفعال .

وتكلم فاضل قائلا فى صوت خافت :

ـــ كيف حالهم ؟! كيف حال نادية ؟

ـــ الحمد لله .. بخير .

ـــ أين هم ؟!

ـــ فى مستشفى الدمرداش .

ـــ لماذا ؟!

وتدخل الدكتور قائلا :

ـــ قلنا إنه لا داعى هناك للكلام .

وأجاب سليمان :

ـــ صدقنى إنهم بخير .. إن نادية قد لسع الوهج وجهها وقد وضع لها الدكتور مرهم .. وكان المفروض أن أحضرهم الآن معى .. ولكن كرهت أن أواجهها بمنظر الحريق ثانية وفضلت أن تبقى هناك هذه الليلة .. وقد ....

وقبل أن يتم حديثه دق جرس التليفون فى القاعة .. وأحس سليمان بمن المتحدث .. فاسرع إلى القاعة وخطف السماعة من يد « فاطمة » قبل أن تجيب :

ووصل إليه صوت الأم يتساءل :

ـــ سليمان .. أين فاضل ؟!

ـــ فاضل .. إنه .. إنه .. لقد أصابه تعب بسيط .

وقبل أن يتم حديثه سمع صرخة فى السماعة ثم أقفل الخط .

ووضع سليمان السماعة ووقف حائراً ، وقد بدت عليه أمارات الضيق والجزع .

إن خير ما يفعله هو أن يسرع إلى المستشفى ليحضرهم جميعاً .

فلعل وجودهم فى البيت بجوار بعضهم يكون على ما فيه من إزعاج .. أقدر على منحهم نوعاً نسبياً من الطمأنينة .

(١٣)

وجه غريب

مرت بضعة أيام بعد ذلك اليوم الأغبر المشئوم والبيت بمريضيه كأنه المستشفى .. الأب راقد على الأريكة فى حجرة مكتبه يتململ فى ضيق وبجواره الأسطوانة الحديدية الطويلة التى امتد منها الخرطوم ذو القناع يمد المريض بالأكسجين كلما ضاق نفسه .

وفوق المكتب اختلطت زجاجات الأدوية بالكتب و« بالروشتات » . وأمام الأريكة جلست الأم على مقعد صغير ترقب المريض فى جزع وقد علق بصرها برأسه القلق وأنفاسه المضطربة .

وفى حجرة أخرى رقدت « نادية » على فراشها . وقد غطت الضمادات وجهها وبدا من خلالها طرف أنفها وقد أصابه احمرار الجلد المقشور وذهب الورم من شفتيها فلم تعد عاجزة عن النطق وتناول الطعام . ولم يكن هناك ما يؤلمها سوى الجزء الملتهب فى رقبتها وأسفل أذنها .

وكان يبدو فى عينى « نادية » استسلام اليائس .. كانت تتصاعد من شفتيها بين آونة وأخرى زفرة ألم ، تحاول جهدها كتمانها .. ولكنها تفلت منها برغمها .

كانت تتمتم بشفتيها دعوات ، لا من أجل نفسها .. فقد سلمت بأمر بلواها وروّضت نفسها على قبول مصابها .. ولم تعد تملك من أجل نفسها إلا دموعاً صامتة تذرفها كلما خلت الحجرة من روّادها .. ولكن الدعوات كانت من أجل أبيها الراقد فى الحجرة المجاورة .. التائه فى غيبوبة دائمة .. لا تفيقه منها إلا صرخة حادة ، تمزق سكون البيت .. وتشق صيحته .. وتصيب أهله المتحركين كالأشباح برجفة تهز أبدانهم ، وتشيع العجلة والاضطراب فى حركتهم الوئيدة

وخطواتهم المتسللة وأصواتهم الهامسة .

وكانت « نادية » .. ترقد مشدودة الأعصاب ، تنصت إلى كل همسة .. وتصغى إلى كل حركة .. وتحاول أن تستنتج ما يحدث .. وكانت صرخات الأب التى تتعالى عندما تصيبه النوبة .. تصل إليها ، كطعنات المدى ، أو ضربات السياط .

وعندما كانت تهدأ الصيحات .. ويسود الصمت ، كانت « نادية » تشرئب بعينيها محاولة أن تعرف ، طبيعة هذا الصمت .

وعندما يطول بها الإنتظار دون أن يطمئنها أحد من أهل الدار كانت تهتف صائحة فى جزع ..

— « منى » ماذا حدث ؟!

وتقبل عليها « منى » وقد علا وجهها الشحوب وأصابها الهزال ، وتقول لها مطمئنة :

— لا شىء يا نادية .. لقد أعطاه الطبيب حقنة ، وقد نام .

وتجلس « منى » بجوارها منهارة وقد دفنت وجهها فى كفيها ، وتتمتم « نادية » وهى تحدق بعينيها فى سقف الحجرة كأنما تحاول أن تخترقه لتوصل دعواتها إلى الله :

— يارب .. يارب رحمتك .

وكان سليمان يبدو حائراً فى البيت فى جيئته وذهابه .. وهمساته مع الأطباء ..وكان يحاول أن يبدو مطمئناً .. وإن كانت أعصابه تخونه فى كل نوبة فتضطرب حركته ويحتد صوته .. ويخرج همه فى أخته زكية آمراً إياها بأن تكف عن جزعهاوتوقف نهنهتها

— وبين آونة وأخرى كان سليمان يدخل حجرة« نادية » ، ليجلس بجوارها ويربت يدها فى رفق ، محاولا إدخال السكينة على نفسها ، وقد حدثها فى آخر جلسة معها قائلا فى ثقة وطمأنينة :

— كل شىء سينتهى على خير بإذن الله .. لقد أكد لى الدكتور عبد الوهاب ،

بعد أن أجرى لك الغيار بالأمس أن وجهك سيعود كما كان .. بل خيراً مما كان .

وهزت « نادية » كتفيها فى استخفاف وأجابت :

— لا يهمنى وجهى .. ليحدث به ما يحدث المهم هو أن ينجو بابا .

— سينجو إن شاء الله .. إن حالته مطمئنة .. وقد قال الدكتور إنه خلال أيام يستطيع أن يجلس فى الفراش ويتحرك فى الحجرة .

— أحقاً قال هذا ؟!

— إى والله .. وكلها بضعة أيام أخر .. ويستطيع الخروج .

— ربنا يسمع منك .

— ربنا كريم يا نادية .. وأنا واثق أنه لن يضير أحداً منكما .. لا أنت ولا فاضل .

وفى اليوم التالى أقبل الدكتور عبد الوهاب ليقوم بالغيار لنادية . واجتاز الرجل القاعة فى خطى متسللة حتى لا يزعج المريض الراقد . واستقبلته « منى » على باب الحجرة محيية وهى تقول :

— بونجور دكتور .

— بونجور منى . كيف حال نادية ؟

وهزت « منى » كتفيها قائلة :

— أنت أدرى .. كيف نعرف حالها وهى محتجبة وراء هذا الكوم من الضمادات !

وضحك عبد الوهاب وأجاب :

— صدقت .. إنها بخير .. اليوم سأزيل هذا الكوم الذى يزعجك .. لترى بنفسك أنها بخير ، ولتصدق أنى قمت بعملية تجميل .

— إذا كان ارمر كذلك .. فسأشعل فى البيت حريقاً آخر .. من أجلى هذه المرة .

— إياك .. ليست كل الحرائق مجملة .

وجذب الطبيب مقعداً وجلس بجوار « نادية » .. وقد أمسك يدها فى رفق قائلا :

ــ كيف الحال ؟

وبسكينتها المعتادة واستسلامها الطبيعى أجابت نادية :

ــ الحمد لله .

وضحك الطبيب قائلا :

ــ إنك تقولينها من تحت الضرس .. كأنها الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه .

ورفعت إليه « نادية » عينيها وتساءلت وهى تطلق زفرة حارة :

ــ أليس الأمر كذلك ؟

ــ لا أعتقد .. إنك بخير .. وسأريك الآن .

ــ أنا لا أقصد نفسى .

ــ وأبوك سيشفى بإذن الله . إن سليمان أخبرنى أن حالته لم تسؤ .. وإنه إذا لم تحدث مضاعفات .. فسيشفى بإذن الله .

وبدأ عبد الوهاب فى رفع الضمادات عن وجهها .. وبدت على وجهه علامات الرضا ، وهو يقول :

ــ عال .. عال .. ليس هناك أى أثر فى الوجه ، إنه سليم أربعة وعشرين قيراطاً .

ثم أخذ فى فك ضمادات العنق . وأحست « نادية » بالألم وهو ينزع عنها الضمادات .

و لم تبد على وجه الطبيب نفس علامات الارتياح التى بدت عليه عندما فك ضمادات الوجه ، وقال وهو يفحص الجلد الذى ما زالت به قروح الحريق :

ــ هذا الجزء سيحتاج إلى بعض الوقت .. إن إصابته كما قلت ، من الدرجة الثانية .. وقد تترك بعض الآثار .. على أية حال الحمد لله أنها لم تمتد إلى الوجه ..

سأضع عليه هذا المسحوق .. ومن الخير أن نستمر فى رباطه .

ومدت « نادية » أصابعها لتتحسس وجهها .. وأحست ببشرتها ملساء مشدودة .. ثم مدت يدها تتحسس جروح عنقها من أسفل الأذن حتى أسفل الذقن .

وقال الطبيب متضاحكاً :

— ها ؟! ما رأيك ، أظنها قد أضحت أنعم مما كانت ؟

والتفت الطبيب إلى « منى » التى وقفت تحدق فى أختها فى صمت وكأنما تحاول أن تتمالك وتتجلد وقال مازحاً :

— ما رأيك يا« منى » ؟!اهل لك غرض !

ورفعت « نادية » عينيها إلى « منى » وقالت فى غير اكتراث :

— أرينى المرآة يا منى .

— لا تجهدى نفسك الآن يا نادية .. إن وجهك لم يحدث به شىء .

وقالت نادية فى إصرار :

— هاتى المرآة .. إنى لا أخشى شيئاً .

ورد الطبيب قائلا :

— ولكن ليس هناك ما تخشينه .. هاتى لها المرآة يا منى ، إن هذا أفضل نتيجة يمكن انتظارها من إصابة كهذه ، لن يكون هناك أثر للحريق إلا فى العنق كما قلت لك .

وقبل أن تتحرك « منى » لتحضر المرآة الصغيرة ، نهضت « نادية » من فراشها واتجهت إلى مرآة التسريحة .. ووقفت تفحص وجهها .

وبدا لها وجهها أحمر .. بلون الجرح الملتئم الذى أذيلت عنه قشرته .. وأحست فى أول الأمر أنها تنظر إلى مخلوقة أخرى .. وأن هذا الوجه الذى يبدو أمامها ، ليس وجهها .

ورفعت ذقنها ولوت عنقها لتفحص القروح التى به .. وأحست بالغثيان ،

وهى ترقب الجلد اللين المقروح .. وعادت مرة أخرى ترقب وجهها .. ثم أغمضت عينيها وعضت على نواجذها كأنما تكتم آهة .. ثم استدارت لتبعد عن ناظريها .. ذلك الوجه الغريب الذى بدا لها فى المرآة .

ونظرت إلى الطبيب الذى وقف يرقبها فى ألم ، وهو يقول مطمئناً :

ــ هذه الحمرة ستزول بالطبع .. والجروح التى فى العنق ستخف .. على أية حال يمكن تغطيتها بإيشارب أو بياقة عالية .. إن هذا خير ما يمكن الوصول إليه .. الحمد لله أن لم تتعد الجروح إلى الوجه .

وتهاوت « نادية » على فراشها ، وهى تقول

ــ الحمد لله .

ونهض الطبيب ، وقد بدا عليه الأسى وقال مؤكداً :

ــ أؤكد لك أن البشرة ستتحسن مع الأيام... وأنها ستعود تماماً إلى حالتها الطبيعية .. فقط لا تعرضيها الآن للشمس ، أو الهواء . واجتهدى أن تغطى وجهك دائما .. بقطعة من « النشاش » أو « الفوال »

وأجابت نادية :

ــ حاضر يا دكتور .

وأحست « نادية » أنها خذلت الرجل الذى فعل من أجلها ماوسعه .. وأنها رغم ادعائها عدم الاكترات بوجهها .. قد تركت ليأسها العنان .. فرفعت رأسها وهتفت بالطبيب :

ــ أنا متأسفة يا دكتور .. أنا .. أنا ...

وربت الطبيب على رأسها فى حنان قائلا :

ــ إنى أقدر شعورك .. لا داعى للأسف .. لم يكن يجب أن ترى وجهك فى المرآة .. إنه لا شك قد أزعجك .. ولكن أؤكد لك أن البشرة ستعود إلى حالتها .

ــ وحتى إذا لم تعد إلى حالتها .. أؤكد لك أنى لن أنزعج . كل ما أريده أن

يشفى الله أبى ، هذا كل ما أرجوه .

ـــ سيشفيه بإذن الله .. لا تنسى أن تضعى غطاء على وجهك .

ـــ إلى متى ؟!

ـــ أسبوع على الأكثر حتى يشتد الجلد .. وضعى هذا المرهم والمسحوق على جروح العنق .. وسأحاول أن أراك بعد بضعة أيام .

ـــ متشكرة يا دكتور .. مع السلامة .

وقبل أن يغادر باب الغرفة التفت قائلا :

ـــ على فكرة .. لقد سأل عنك الدكتور مدحت .

وانتفضت « نادية » وهتفت مذهولة :

ـــ الدكتور مدحت ؟!

ـــ أجل .. الذى كان يوشك أن يجرى لك العملية .

ـــ سأل عنى أنا ؟!

ـــ أجل .. لقد سأل عنك عندما علم أنى ذاهب للغيار لك .. وطلب منى أن أعتذر إليكم .. حتى لا تتهموه كما يتهمه الناس بالفظاظة .. لقد قال إنه لولا النزيف الذى حدث لأحد مرضاه .. لما تأخر عن القيام بالعملية .

وبدت « نادية » كالشاردة ، وهى تقول كأنما تحدث نفسها :

ـــ هل قال هذا حقاً ؟!

ودهش الطبيب وأجاب :

ـــ طبعاً قاله .. إنه ليس قاسياً كما يبدو.

واستمرت « نادية » فى سؤالها الشارد :

ـــ وهل يعرف من أنا ؟!

وهز الطبيب كتفيه قائلا :

ـــ لا أظن .. إنه لا يهتم بمعرفة الناس ، ولا بما يقولونه عنه ، وإنما فقط كره أن يبدو خاذلا للغير هارباً من غوثه ونجدته .

وأحست « نادية » بشيء من الخيبة .. لقد سرّها أن يسأل عنها .. ولكنها كرهت أن يسأل عنها كمجهولة .. لا يعرف عنها إلا أنها مريضة بين آلاف المرضى .. لا يعرف لها سمة ولا يذكر شكلا .

ولكن .. ماذا يحزن فى ذلك !! ألم تهرب منه ؟

ألم تخش أن تقع عيناه على وجهها المحترق وملامحها المشوّهة !! أمن الخير أن يعرفها كمجهولة !! أم يذكرها .. كوجه مشوّه .. وملامح منفرة !

ثم ماذا تأمل هى منه .. لكى تفرح لذكره لها وسؤاله عنها .. وتحزن .. لعدم تمييزه لها ومعرفته إياها .

ماذا يفرحها منه أو يخذلها فيه ، بعد أن أبصرت وجهها المسلوخ .. وعنقها المقروح .. أليس من الخير .. أن تطرده من أوهامها .. وتعفى خيالها من تصوّره والتفكير فيه ؟

أجل .. يجب أن تكون أكثر من هذا سيطرة على أحلامها .

ونظرت إليها « منى » وقد استغرقت فى شرودها الحزين وهتفت بها :

ـــ نادية .. ماذا بك ؟!

وهزت « نادية » رأسها وأجابت فى يأس :

ـــ لا شيء .

ـــ لا يجب أن تيئسى أبداً يا نادية .. ليس هناك شيء مستحيل فى هذه الدنيا .. لا تحرمى خيالك من بقية أوهامه ، فقد تتحقق فى يوم من الأيام .

ورديت « نادية » فى سخرية ومرارة :

ـــ تتحقق ؟! بعد كل ما حدث ؟

ـــ أجل .. إن وجهك سيعود كما كان .. وحتى إذا لم يعد .. فالحب لا يتقيد أبداً بسمات معينة.. نحن لا نحب نماذج مرسومة.. وإنما نحب سمات موجودة كما هى..نحبها لذاتها.. لا أنها تشابه شكلا معيناً.. وأنت يا «نادية».. لا يمكن أن يشوّهك شيء.. ستظلين دائماً محبوبة.. لأن الناس يحبـــونك أنت.. لا

ملامحك .. ولو كانوا يحبون ملامحك .. لما فضلك عنى أحد .. لأن ملامحى لا تختلف عن ملامحك .. ومع كل ذلك .. فإن ملامحك كما هى .. لم يصبها شيء .. فلماذا تثقلين على نفسك بهذا اليأس المخيف !! لماذا تسلبين نفسك فرصة الأمل !؟

ـــ أى أمل يا منى ؟!

ـــ أمل فى أشياء كثيرة .. ألم تذكرى قول الكاتب « إن فى بقية الزهر عزاء عن النرجس » فلماذا تحاولين أن تتمسكى بالنرجس .

وهزت « نادية » رأسها فى ضيق ويأس وأجابت :

ـــ أنا لا أحاول أن أتمسك بشيء .. إن كل ما أرجوه الآن هو أن يشفى أبى .

ـــ سيشفى بإذن الله .. ولكن يجب أن تشفى تماماً من يأسك .. أم تراك قد اعتدت العجز والا ستسلام !

ودخل سليمان وهو يقول متضاحكا :

ـــ أجل .. معك حق يا « منى » .. لقد تعوّدت العجز والاستسلام .. مع أن كل شيء يدعو إلى التفاؤل .. لقد أفاق أبو كما .. وهو يريد أن يرا كما .

وقفزت « نادية » من فراشها هاتفة :

ـــ حقاً !! أهو يتحدث ؟!

ـــ أجل .

واندفعت « منى » إلى القاعة وهى تهتف :

ـــ بابا ..

ـــ لا تصيحى هكذا أيتها المجنونة .. ادخلى على مهلك . يجب علينا ألا نعرضه لأى حركة ، أو انفعال .

وأجابت « منى » وهى تسير على أطراف أصابعها :

ـــ حاضر .. لن أزعجه أبداً .

وقبل أن تغادر « نادية » الحجرة .. اتجهت إلى التسريحة وأخذت ترقب وجهها فى المرآة .

وأخذ سليمان يرقبها وهو يحاول أن يخفى تأثره قائلا :

ـــ الحمد لله لم يصبك مكروه .. إن أباك يلح فى رؤيتك أنت بالذات .. ولست أدرى ماذا كنا فاعلين لو لم يرفع الطبيب الضمادات عن وجهك .. إن وجهك يبدو طبيعياً تقريباً .. وأعتقد أن من الخير لو لففت وجهك بايشارب يغطى شعرك وعنقك .

ومرة أخرى أدارت « نادية » عنقها المقروح عن الوجه الغريب الأحمر الذى يبدو لها فى المرآة .. وقالت وهى تحاول أن تكبت دمعها :

ـــ هل تظن أن وجهى لن يفزعه ؟!

وأجاب سليمان وهو يغالب ألمه ويحاول التضاحك :

ـــ يفزعه !! ما تظنين نفسك ؟! غولة ، أم عفريتة !! إن وجهك مازال جميلا كما هو !

واقتربت منه « نادية » فأبصر عن قرب عنقها المقروح

وأحس بشىء يعتصر جوفه ، وأردف يقول وهو يحاول التماسك :

ـــ أجل .. لن يلحظ أى تغيير بك .. ولا سيما إذا لبست الإيشارب كما قلت لك .

ونظر إلى بشرتها التى تبدو حمراء مشدودة .. كالجلد المسلوخ وأردف قائلا :

ـــ وضوء الحجرة الضعيف سيبدى لون وجهك على حقيقته .. أجل .. أجل .. لن يلحظ شيئاً .

وأحست « نادية » بالمرارة تسرى فى نفسها وهى تحس أنها قد باتت تحتاج إلى الظلمة حتى تبدو مخلوقة غير مزعجة ، وأنها تحتاج إلى « إيشارب » يلف وجهها .. حتى تخفى ما به من تشويه .

ومدت يدها فى سكون إلى درج التسريحة وأخرجت « إيشارب » أزرق

لفت به رأسها وأحاطت به عنقها وضمت ياقة القميص حول عنقها حتى لم يعد يبدو من وجهها إلا صفحته المواجهة .

وبخطى وئيدة متسللة .. سارت تسترق الخطى خلف عمها .. الذى دفع الباب ببطء وسكون .. ودلف إلى حجرة الأب المريض .

---

(١٤)

صرخات فى الليل

اقتربت «نادية » فى سكون من أبيها الراقد على الأريكة .. وكان شباك الغرفة قد أغلق فلم يسمح إلا لخيوط رفيعة من أشعة الشمس الغاربة بالتسلل إلى الحجرة ، محددة طريقها بذرات بيض ترتجف على امتداد الأشعة .

وعلت شفتي الأب ابتسامة حنون وانطلقت من صدره تنهيدة راحة وهو يرى « نادية » مقبلة عليه وهمّ فى لهفته عليها بأن ينهض بنصفه العلوى فهتف به سليمان :

— وبعدين .. قلنا لا حركة .

ومالت « نادية » تقبل وجهه الهزيل الشاحب وتضمه فى حنان .. ومد ذراعه يضمها إليه ويتحسس رأسها ويتمتم فى شبه همس :

— ماذا حدث لك ياحبيبتى !؟

— لا شىء يا أبتى .. لا شىء أبداً .. إنى بخير .. المهم هو أنت .

وأسندت « الأم » رأسها بكفها وهى تقبع على مقعد فى ركن الحجرة وقد أحست أن الدمع يوشك أن يطفر من مقلتيها وهى ترى « نادية » وقد أحاطت وجهها بالإيشارب لتخفى قروح عنقها .. وحاولت أن تمنح صوتها لهجة الطمأنينة .

وتحدث سليمان محاولا أن يذهب عن الموقف رهبته ويمنحه بعض المرح فتضاحك قائلا :

— كفى سلبطة .. أنتما الاثنان بخير ، وبعد بضعة أيام ستصبحون جميعاً

كالجن وترحلون عنا .. وتريحوننا من حوادثكم .

وهزّ الأب رأسه وهو مازال يطبق بيده على كف « نادية » وقال فى صوت مستضعف :

— لا أظن أنى سأستطيع الرحيل .

وأجابت الأم فى لهجة داعية :

— لا داعى للرحيل . يمنحك الله الصحة . ويحفظك لنا .

وربت سليمان على كتف نادية وقال مطمئناً :

— هذه نادية أمامك .. كالحصان .. لم يكن هناك ما يدعو أبداً .. لهذه الخضة التى صرعتك .

وتهد الأب وأجاب فى صوت خافت :

— لو أبصرتم ما رأيت .. لعذرتمونى .. ذلك الزحام حول البيت والدخان المتصاعد وعربة الحريق .. والبواب يهتف بى أن نادية احترقت وحملتها عربة الإسعاف .

وبدا الألم على وجه الأب .. وخشى سليمان عليه انفعال الذكرى فصاح به :

— انتهينا .. لا داعى لإثارة الآلام ..إنها أمامك .. سليمة أربعة وعشرين قيراطاً .. أنت تعرف تهويل الناس .

واطلق الأب تنهيدة عميقة وقال :

— الحمد لله .. الحمد لله ..

ثم نظر إلى وجه «نادية » فاحصاً وأردف يتساءل :

— هل ترك الحريق أثراً بوجهك ؟

وأسرعت « نادية » تنفى قائلة :

— أبداً .. أبداً لقد كانت لفحة الوهج .. أزال أثرها المرهم .

— مالك إذن تتشحين بالإيشارب ؟!

وضحكت « منى » وقالت تحاول أن تجيب عن « نادية » التى بدا عليها الاضطراب :

ـــ عياقة يا بابا .. فرحانة بالإيشارب .

وقبل أن يعاود الأب تساؤله قال سليمان :

ـــ كفى هذا الآن . لقد أقلقناك . ويجب أن تستريح .. هيا بنا يا بنات . أظن أن موعد الأقراص قد حل يا « لورا » ؟

ونهضت « لورا » وهى تتنهد مجيبة :

ـــ أجل .

ومدت يدها إلى أنبوبة على المكتب فأخرجت منها قرصين وضغط الأب على كف نادية قائلا :

ـــ خذى بالك من نفسك يا حبيبتى .

ـــ أنا بخير يا بابا .. إننا نريدك أنت سليما بيننا .. ليس هنا قط ما يساويك ، ويساوى سلامتك .

ونظرت « نادية » إلى أبيها نظرة ملؤها الحنان ، وأحست بفرط حبها له .. وتمنت لو انحنت عليه لتضمه ضمة أخرى .

ولكن سليمان جذبها قائلا :

ـــ هيا بنا .. يجب أن ندعه يستريح .

وأجاب الأب :

ـــ إنى أستريح أكثر لوجودكم . لماذا تتركوننى وحدى ؟

ـــ أنت لست وحدك .. إننا معك دائما ، ولكن يجب ألا تكثر الأنفاس فى الحجرة ، وأن تريح نفسك من الكلام .

وأجاب الأب فى عصبية :

ـــ إلى متى كل هذا ؟! لقد ضقت بحياتى ذرعاً !

ـــ هانت .. لا داعى للانفعال .. كلها يوم أو يومان وتستطيع أن تجلس فى

الحجرة .. يجب عليك أن تصبر يا فاضل .. إن مرضك علاجه الراحة .. والهدوء .. هكذا قال الأطباء جميعاً .

ورد الأب فى ضيق شديد :

ــ الراحة والهدوء !! إنى أكرههما .. إن هذه الرقدة ستقتلنى .

وحرّك ساقيه فى عصبية وضيق ، فصاح سليمان :

ــ وبعدين .. إنك تؤخر شفاءك بنفسك .. أنت لست صغيراً يا فاضل .

وعضت « نادية » على شفتيها وهى تحس بمدى ضيق أبيها وألمه وقالت له فى حنان ورقة :

ــ تحمل يا بابا يوماً أو يومين .. أو بضعة أيام فى سبيل شفائك .. ليتنى أستطيع أن أرقد بدلا منك .

وجذبها سليمان من ذراعها وهو يضحك قائلا :

ــ هيا .. ستنهضون جميعاً .. ترحلون عنا ونكسر وراءكم مائة قلة .

وتساءلت منى ضاحكة :

ــ إلى هذا الحد زهقت منا ؟

ــ زهقت من حوادثكم .. لقد مضى علّى أكثر من أسبوع .. لم أذق النوم الذى أغمض فيه عينى من العاشرة فلا أفتحها إلا السادسة .

ــ عندما نرحل .. ستشبع نوماً .

وغادرت منى الحجرة تتبعها نادية ونظر سليمان إليها قائلا :

ــ ها . استرحت ؟ اطمأننت عليه ؟ أعرفت أن المسألة لم تكن تستدعى كل هذا الانزعاج الذى أصابك !

وكان الأب قد أغمض عينيه .. وكانت خيوط أشعة المغرب التى تسللت من شقوق « الشيش » قد انسحبت تاركة الغرفة فى شبه ظلمة ، ومدت الأم يدها إلى مفتاح « الأباجورة » الموضوعة على المكتب وهى تتساءل :

ــ هل أوقد النور ، أم يضايق عينيك ؟

وهزّ الأب رأسه فى ملل قائلا فى صوت خافت :

ــ افعلى ما تشائين .. لم يعد يضايقنى شيء أكثر من الضيق الذى أنا فيه .

وأجاب سليمان فى نوع من الزجر :

ــ قلت لك هانت .. إن الدكتور سيأمر بالحركة داخل الحجرة قريباً .

و لم يجب الأب .. وبدت أصابعه تشد على حافة الفراش فى عصبية وفتح فاه وازدادت هزة رأسه المتململة ، وتوترت عضلات وجهه ، فأسرعت الأم إلى أسطوانه الأكسجين وجذبت الخرطوم ووضعت القناع على وجهه ، ومد سليمان يده إلى مفتاح الأسطوانة فأداره .. وبعد برهة استرخت عضلات الأب المشدودة وبدا على ملامحه هدوء نسبى .

وأقبلت « زكية » من الباب ، فلم تكد ترى القناع على وجهه حتى صاحت فى جزع :

ــ ماذا حدث ثانية ؟

وهتف سليمان بها :

ــ كفى عن هذا الصياح .

ــ لماذا وضعت هذا الخرطوم على وجهه ؟

ــ لأن نفسه قد ضاق .

ــ ولكنك لم ترفعه عنه إلا منذ وقت قريب .. فلماذا وضعته ثانية ؟

وأجاب سليمان فى ضيق :

ــ لأن نفسه ضاق ثانية .

ــ ولكن ....

ــ زكية ... كفى عن هذه الأسئلة وتفضلى اجلسى فى القاعة .. لأننا لا نريد ازدحاماً فى الحجرة .

وأدارت « زكية » عنقها وهتفت فى غضب :

ــ ألا أجلس مع أخى !! أأتركه وهو فى هذه الحالة !! ألست أخته ؟! كل ما أقبلت عليه تطردونى !!

وضغط سليمان على ضروسة وهو يكظم غيظه .. وقال فى حدة :

— زكية .. اجلسى فى القاعة وكفى عن هذه السخافات .

— كلكم علىّ .. ألست أولى من هذه الأجنبية برعايته ؟

— إنها ليست أجنبية .. إنها زوجته .

— إنها أجنبية مهما فعلت .. إنها هى تثيركم علىّ .

— إنها لم تتحدث عنك أبداً .. إن لديها من متاعبها ما يجعلها لا تحس بك .

— طبعاً لا تحس بى.. من يوم أن رقد.. وهى لا تنظر إلىّ إلا شزرا كأنى عدوتها.

ودفعها سليمان من الباب إلى القاعة قائلا :

— ليس هذا وقته يا زكية .. اعقلى .. دعيها فى مصائبها .

— إنها هى السبب فى كل هذه المصائب .. ماذا دعاها إلى غسيل البدلة ؟

— هذا قضاء الله .

— لو لم تغسل البدلة لما حدث الحريق .. ولو لم يحدث الحريق لما أصيب فاضل بهذه النوبة .

— قلت لك إن هذا قضاء الله .. ولو لم تصبه النوبة لهذا السبب لأصابته لغيره .. يا شيخة .. ليكن عندك إيمان بالله .. ادعى الله أن يشفيه .. واتركى هذا الصياح الذى لامبررله .

وهبطت العمة على أحد كراسى القاعة وأخذت تتمتم قائلة :

— كانت جوازة نحس .. لو أنه تزوج رشيدة .. أو ثريا لما أصابه هذا .

سمعت « منى » حديثها وهى تجلس فى حجرتها على حرف الفراش أمام « نادية » فوثبت من مكانها قائلة فى ضيق :

— أتسمعين يا نادية ما تقول ! إنى لن أسكت لها هذه المرة .

وأجابت « نادية » بصوت خفيض وهى تجذب « منى » من يدها محاولة إعادتها إلى مكانها :

— إياك أن تقولى لها شيئاً .

ــ أيعجبك ما تقول ؟ إنها تكرهنا !
ــ إن أعصابها متوترة ، مثلنا جميعاً ؛ وهى لا تعى ما تقول .
ــ بل تعيه . إنها نكره أمنا ، وتود لو لم يتزوجها أبى .
ــ يا منى يا حبيبتى .. دعيها تود ما تشاء .. إنه تزوجها وانتهى ، ولن تغير أمانيها من الأمر الواقع شيئاً .
ــ ولكنها تهيننا !
ــ يجب أن نتحملها .. إنها عمتنا أخت أبينا .. وهى لا يمكن أن تضمر لنا شراً .. حتى إذا فلت لسانها .
ــ إنه يفلت دائما .. إن لها لساناً كالمبرد ..
ــ اعذريها .. إنها فى غير وعيها .. إنها فى حالة جزع على أخيها .
ــ إنها مدعية .
ــ حرام يا منى .. إنه أخوها .
ــ إنها تدعى أنها لم تذق الأكل منذ يومين . وبالأمس وجدتها تشتم الدادة .. لأن اللحمة كانت مشوية ، ولم تكن محمرة .. وفى عز النهنهة ، والتأثر .. ترفع رأسها وتسأل عن علبة « المارون » تخشى أن يكون قد أكل منها أحد .
ــ يا منى لا تعلقى على هذه الأشياء . كل ذلك لا يمنع جزعها .
ــ أنا لا أحبها .
ــ لا ضرورة لأن تحبيها .. دعيها وشأنها .. وإياك أن تتصدى لها .. فليس هذا وقت مشاكل . يجب أن نحترمها ونكرمها على الأقل من أجل أبى .
ــ احترميها أنت كما تشائين .. أنا لن أكلمها مطلقاً .
ــ هذا أفضل ، ولست أظنها هى الأخرى تحب كلامك .

وقبل أن تجيب « منى » سمعت فى القاعة حركة مفاجئة .. وخطوات تتحرك فى عجلة ... وألفاظ تتبادل بسرعة .. وسماعة التليفون ترفع وأرقام تدار .
وفجأة وقبل أن تنهض « منى » لتستطلع الأمر دوّت فى أرجاء البيت صرخة

حادة .. تلتها صرخات مختلطة مستمرة واندفعت « منى » من الباب صائحة :

— بابا .

ولم تنطق « نادية » بل تشبثت بكفيها تشد فى أغطية الفراش ، وأحست كأن شيئاً يشدها إلى هاوية عميقة .. ولم تستطع الحركة أو النطق .. لقد التصق زورها ، وتصلبت أعضاؤها .. وفقدت كل مقدرة على الحس والإدراك .. ولم تع من حولها شيئاً إلا هزّة الأصوات الحادة التى تتقاذفها كأنها أكف تتبادل لطمها فى قسوة وعنف .

وزاد الضجيج فى البيت وكثرت الأصوات ، واستمرت الصرخات الحادة تشق الفضاء ، و « نادية » عاجزة عن التفكير ، مشلولة عن الحركة .

وقبل أن يبدأ وعيها بإدراك الكارثة .. وقبل أن يتبين أحساسها حقيقة المصاب .. توقف الصراخ وخفتت الضجة ، وسرت بدلها همسات وزفرات .. واندفعت « منى » عائدة إلى الحجرة ، وهى تقول فى لهجة هستيرية :

— بابا بخير يا نادية .. لم يحدث له شىء .

واسترخت « نادية » وتلاحقت أنفاسها لاهثة كأنها سقطت بعد طول عدو ، وأحست كأن أعصابها المشدودة قد فكت .. وصوتها الحبيس قد انطلق ، ودموعها المتحجرة قد انصهرت .. فاندفعت فى نوبة حادة من البكاء .

وأخذت « منى » تربت جسدها المهتز وتضمها إليها قائلة فى حنان :

— كفى يا نادية .. إن بابا بخير .. لقد كان ما به مجرد إغماء .. إن الدكتور عنده الآن .. وقد أكد لنا أنه بخير .. لا تبكى يا نادية .

ولكن نادية استمرت فى البكاء .. فقد أحست أنها فى حاجة إليه ليعيدها إلى وعيها وإدراكها من الصدمة التى كادت تتركها عاجزة مشلولة .

ومرة أخرى عاد السكون إلى البيت .. إلا من خطوات تسير متسللة .. أو أصوات ترتفع مبحوحة هامسة .

وأخذ الأقرباء يتوافدون على البيت ، واكتظت بهم القاعة والبهو ، ولم تحس

« نادية » رغبة فى الخروج للقائهم .. كان بنفسها ميل إلى الوحدة والانطواء .. كانت تكره تحياتهم وثرثرتهم ...

وكانت تعتقد أن وجهها سيصدمهم ، ويثير شفقتهم ورثاءهم .. وكانت تكره الرثاء وتخشى الشفقة .

وظلت « نادية » رافدة فى فراشها .. تتلقى الأقرباء مستعينة بظلمة الحجرة على حجب وجهها ، وإخفاء ما تتوهمه من تشويه يثير الشفقة ويبعث على الرثاء ، ولفت عنقها جيداً بالإيشارب ورفعت الغطاء حتى أسفل ذقنها .

ورويداً رويداً .. بدأت أقدام الزوار تخف .. وخفتت الهمسات ، وساد البيت سكون شامل .. لا يكاد يقطعه إلا زفرات حارة تتصاعد من صدر الأم .

ولم تستطع نادية النوم .. كانت ترقد فى فراشها .. مفتحة العينين تحملق من خلال النافذة المواجهة لفراشها .. وقد أخذت النجوم المتناثرة فى صفحة السماء الداكنة التى بدت من النافذة تهتز مرتجفة ، وهبت نسمات خفيفة تحرك فروع الياسمين المتسلقة على حافة النافذة ، ومن الحديقة علا صفير متقطع لدنيبة استقرت أسفل الشرفة .

كانت الدهشة تجثم على الدار ، وإحساس بالخوف يرسب فى أعماق « نادية » .. كانت ترتجف لكل صوت .. وتجزع من كل حركة .. كانت تتوقع أن يعود الصراخ الحاد ليشق أجواء الفضاء مرة أخرى ، وكما تجسد العين أشباحاً للمذعور . كانت أذنا « نادية » تجسدان لها الصراخ فى كل صوت ، بل وفى كل سكون .. كانت تنتفض بين آونة وأخرى .. من الأصوات الموهومة التى تنطلق من داخل البيت .

وأخيراً غلبهاالنعاس ، وهى تحدق فى الفراغ ، وتنصت إلى الصرخات الموهومة ، وحملتها أحلام الغفوة ، إلى أحضان أبيها .. تضاحكه وتدلله ، ويضاحكها ويدللها .. مبدياً لها إعجابه بوجهها ونضارتها بعد عملية التجميل التى سببها لها الحريق .

وفجأة .. انطلق الصراخ .. مرة أخرى .

بدأ هذه المرة .. بصرخة حادة .. من أعماق جريحة .. وانتفضت « نادية » من أحلامها جالسة فى الفراش وهى تحس بقشعريرة تهزها من قمة راسها إلى أخمص قدميها .

وبدت لها الصرخة فى أول الأمر .. بقايا حلم .. أو أثراً من آثار الوهم ، ولكن الصرخة تلتها أخرى .. استطاعت « نادية » أن تميز فيها صوت أمها .. فى نحيب يشق صدرها .

وفى هذه المرة قفزت « نادية » ، وفى أعقابها « منى » تهرول صائحة ، وهى نصف نائمة :

ـــ إيه يا نادية !. ماذا حدث لبابا ؟

وانطلقت الصرخات مرة أخرى ، حادة ملحة متوالية . وبدا البيت فى حركة مجنونة صاخبة .. كل يتحرك صائحاً بلا هدف ولا قصد ، وبدا كل إنسان فى البيت لا يستطيع أن يحدد ما يجب أن يفعل .. حتى سليمان جثا على ركبتيه أمام الجسد المسجى باكياً كالطفل ، وهو يصيح فى نشيج مرتفع :

ـــ آه .. يا خويا .. آه يا فاضل .

وبدت « نادية » مشدوهة تائهة ، واندفعت إلى باب الحجرة صارخة ، وفى أعقابها « منى ».

وتلقتها إحدى القريبات فى صدرها ، وضمتها إليها باكية ، وحاولت أن تبعد بها عن الحجرة ، ولكن « نادية » صاحت متشنجة :

ـــ بابا .. أريد أن أراه .. بابا .

واندفعت « نادية » إلى الحجرة واجتازت بابها لتجد أباها فى رقدته كما رأته آخر مرة .. لا يكاد يبدو للموت به أثر .

ووقفت برهة مشدوهة ، ثم خرّت على الأرض ، وهى تحس بقدميها لا تكادان تحملانها ، وأحست بصوت يصيح :

— يا جماعة .. أخرجوا البنت .. حرام .

وأحست بذراعين تحملانها ، واجتازت القاعة ، وهى تحس بالضجيج والصخب ، ورقدت على فراشها ، وهى فى شبه غيبوبة ، ووسط الصخب والضجيج بلغ مسامعها .. صوت يبدو كأنه يتحدث فى التليفون يقول فى نبرات هادئة :

— بمزيد الأسف ننعى فقيد العلم الأستاذ محمد فاضل أستاذ اللغة الفرنسية بالجامعة والد نادية ومنى فاضل بالليسيه و ...

ولم تسمع « نادية » بقية الحديث فقد أطبقت بأسنانها على الوسادة تمزقها ، وهى تحس أن أباها قد أضحى مجرد نعى .

---

(١٥)

مشكلة تحل ..!

انتهت الجنازة .. ومرّ اليوم الصاخب « بنادية » وهى مأخوذة ذاهلة .. وانصرف المعزون الواحد بعد الآخر .. حتى خلا البيت إلا من بعض الأقارب .. يقطعون سكون البيت بأصواتهم المبحوحة ، وتنهداتهم المجهدة .

وآوت « نادية » إلى حجرتها .. وصرخات الليل الحادة ما زالت تدوى فى أذنيها .. وأحداث اليوم تتكأكأ مختلطة متشابكة فى مخيلتها . وكلها صور بغيضة مقيتة مروعة . الرجال ذوو العمائم الذين أقبلوا يتهامسون . ويتفاوضون .. والنعش المستطيل الأجرد .. والكبش الذبيح أمام الباب ، وأمها الصارخة فى ارتياع كأنها كلب يعوى ، وعمتها المنهنهة المثرثرة . وعمها السائر فى انهيار المتحرك كالشبح .

والعربة السوداء تتحرك بالنعش .. والعربات الأخرى تلاحقها وهى قد قبعت فى إحدهما تحلق فى ذهول من وراء الايشارب الأزرق الذى لفت به رأسها وغطت وجهها .

وزحام المعزين حول الجامع المقام فى العباسية والذى كانت تسميه « جامع الأموات » لفرط ما شاهدت حوله من جنازات .. والنعش محمول الأعناق .. وصراخ أمها ينطلق من داخل العربة التى وقفت ترقبه عند تقا الطرق . وعربات تنطلق .. تثير وراءها سحابة من الغبار فى طرق المقابر ووقفة أخيرة عند المقابر .. وهى قابعة فى العربة .. ترقب وترقب .. وترقب وفم فاغر ، وأعصاب مشدودة .. وأحاسيس أرهفت كحد السيف .. ون يهبط من العربة ، والأم تندفع وراءه صارخة .. تريد أن تحتضنه .. و يشسدها بعيدا .. يحاول مواساتها وهو أجدر بالمواساة .

ورجال يغدون ويروحون ، وصبية يتزاحمون ويتصايحون وقرب ترش المياه على الأرض .. وآيات تتلى .. والنعش يخرج خالياً ، والأصوات تهدأ والأيادى تشد على بعضها ، والناس يحشدون فى العربات مرة أخرى ، والقافلة تعود .. فى سحابة من الغبار جديدة .. و .. وينتهى الامر .

وزادت السكينة فى البيت ، وخفتت الأصوات المبحوحة والتنهدات المجهدة .. ولم يعد هناك من صوت .. إلا صفير « الدنيبية » التى كانت تقبع أسفل الشرفة منذ ليلة أمس .

وتثاقلت أجفان « نادية » وما لبثت أن استسلمت لنوم مضطرب لم يستطع أن ينزعها من آلام يقظتها ، بل أغرقها فى نفس الخليط المشوش من صور الفاجعة التى هدت قواها وحطمت أعصابها .. وقضت « نادية » نومها .. بين نعوش تحمل . وكباش تذبح .. ومقابر تفتح .. وصياح يشق أجواز الفضاء .

ومضت الأيام الأولى من الوفاة فى صورة قاتمة .. خليط من الأنين والنواح .. والقرآن يتلى فى أنحاء الدار .. يملأ الجو .. مهابة ورهبة .

ورويداً رويداً .. بدأت أقدام المعزين تخف .. ويخف معها النواح .. وقلت الثرثرة ، ولم يعد فى البيت سوى قلة من الأقارب ما لبثت أن اقتصرت فى النهاية على العمة « زكية »، والعم « سليمان » وقريبة فقيرة .. جاءت تساعد فى خدمة البيت وضيافة المعزين .

بدأ موضوع الحديث يتطور .. لم يعد يدور كله حول المرحوم .. ومرضه ، وأيامه الأخيرة .. بل أخذ يتعداه إلى موضوعات أخر .. عن معاش ، ونقود صرفت ، وديون ، ومجلس حسبى .. وأشياء أخر .. كانت كلها تطرق طرقاً عابراً خفيفاً .. أخذ يزداد مع الأيام تمهلا .. وإلحاحاً .. حتى اتخذ مكانه كموضوع رئيسى .. لا يشغل بال الأسرة سواه .

وكان على « الأم » أن تواجه الأمر ، إذ لم يكن مفروضاً على العم سليمان أن يستمر فى الإنفاق على كل مشكلات الوفاة .

وفى جلسة غداء .. وقد ضمت المائدة الجميع .. مع بعض الأقارب

الآخرين .. بدأ الحديث بصورة واضحة .

قالت العمة « زكية » وهى تلوك لقمة بين شدقيها :

ـــ وصل اليوم إعلان من القسم .. يطلب من « لورا » الذهاب إلى المحكمة ومعها بعض الأقارب القريبين لإثبات صحة الوراثة .. من أجل تقسيم التركة .

وهز سليمان كتفيه قائلا فى استخفاف :

ـــ أى تركة ؟

ـــ البيت .. والأرض .. و ....

ـــ إنى لا أجد هناك ما يستحق التقسيم . يجب أن يبقى كل شىء على ما هو .. وبمجرد أن تنتهى الضرائب من خصم ضريبة التركات .. نكتب كل شىء باسم البنات .. وتتولى « لورا » الوصاية عليهن أمام المجلس الحسبى . ما رأيك يا لورا ؟

وأشارت الأم برأسها موافقة فى إطراق وهى تقول فى لهجة مقتضبة :

ـــ كما تشاءون .

ـــ وإنى على استعداد أن أتنازل للبنات عن نصيبى فى الأرض . إنها ما زالت بيننا على المشاع . وأعتقد أن « زكية » لن تمانع فى التنازل أيضاً عن نصيبها ، حتى نتركها كلها للبنات . إنها كلها لا تتجاوز عشرة الأفدنة ، ولا أظن تجزئتها ستغنينا كثيراً .

وكانت « زكية » قد توقفت عن المضغ .. وأخذت تنقل بصرها بين « لورا وسليمان » فى دهشة مغيظة .. وبدا لها الاثنان كأنهما قد اتفقا على التآمر عليها ، ولم يكد سليمان ينتهى من تساؤله حتى هبت فيه صائحة :

ـــ ما هذا الهذيان ؟! إن الأرض كلها ملكى عدا فدانين يخصانك .. سأدفع لك ثمنهما فى أى وقت تريد .

ورفع سليمان عينيه فى دهشة ، وحملقت « لورا » فى وجهها متسائلة :

ـــ ونصيب فاضل ؟!

ـــ لقد باعه لى .

ـــ متى ؟!

ـــ بعد أن فصل من الجامعة مباشرة ، كان محتاجاً إلى نقود ، فأعطيته مبلغاً وراء الآخر . كيف كنت تظنينه يصرف عليك وعلى بناتك .. بمعاشه الذى لا يتجاوز البضعة عشر جنيهاً ؟

ـــ ودروسه فى الليسيه ؟

ـــ عشرة أخرى ؟ خمسة عشر ؟ كم تصرفين أنت على البيت ؟ هل تصرفين أقل من سبعين جنيهاً ؟. من أين له كل هذا ؟.

ـــ منك أنت ؟

ـــ طبعاً .. أعطيته مائة فى مائة .. حتى ازداد الدين . و لم يجد أمامه أى وسيلة لسداده ، فاقترحت عليه أن أشترى منه نصيبه فى الأرض فقبل .

واندفعت « منى » بين الحاضرين تصيح :

ـــ كذابة .

وهبت فيها العمة صائحة فى حنق :

ـــ اخرسى .. بنت قليلة الأدب .. لم تعرف أمك كيف تربيك ..

ـــ أنت كذابة .. إن أبى لم يقترض منك شيئا .

وصاحت « لورا » فى « منى » ناهرة :

ـــ منى .. ليس هذا شأنك .. اذهبى إلى حجرتك .. ابقى هناك مع نادية ، وتناولى معها الطعام .

وكانت « نادية » قابعة فى حجرتها وقد أحاطت رأسها بالإيشارب الأزرق ، وكفت عن الطعام الذى كانت تتناوله فى حجرتها وحدها .. وأنصتت مرهفة سمعها إلى المعركة الدائرة فى حجرة المائدة .

وقفزت « منى » من مقعدها تصيح باكية وهى تجيب على نهر أمها التى أمرتها بمغادرة الحجرة :

ــ بل سأغادر البيت كله .. لن أبقى فيه .. ما دامت هى فيه .. إنها تكرهنى .. وتكذب على أبى .. إن أبى لم يكن محتاجاً إلى أحد .

وصاحت « العمة » وهى تنظر إليها فى حنق :

ــ طبعاً .. كان يأتى إليكم بالنقود .. ليملأ بطونكم .. لماذا تحسون أنه محتاج !! لماذا تحسون أنه يريق ماء وجهه للاقتراض ، مادمتم متنعمين هانئين .

ووجهت القول إلى « لورا » وصاحت فى لهجة أشد :

ــ ماذا كنت تظنين سبب إصراره على الرحيل والتغرّب ؟!

تمتم سليمان قائلا :

ــ لأنه كان يرى أن كرامته قد مست فى بلده .

ــ كلام فارغ ، وكذب .. إنه أصرّ على الرحيل لأن موارده لا تكفى مصاريفكم .. ولم يجد معى من النقود ما يمكننى من إقراضه ، ولو وجد لما أقرضته .. ليستمر فى دفعه فى بالوعة .. لا تشبع .

وصمتت لحظة ثم أردفت تقول لنفسها :

ــ والآن ، وبعد هذا كله .. مطلوب منى أن أتنازل عن نصيبى فى الأرض .. من أجل امرأة غريبة حمقاء ، وبنتين لم تتربيا .. ماذا تظنوننى ؟ مجنونة !! إنى لن أتنازل عن قرش واحد من نصيبى فى التركة .

ونظر إليها سليمان فى حنق وأجاب وهو يحاول ألا يفقد أعصابه :

ــ ما هذا الذى تقولين يا زكية ؟

ــ إنى أقول ما أعنى .. قرش واحد ، لن أتنازل عنه سآخذ حتى نصيبى فى هذا البيت .. وفى المعاش .. مفهوم !!

وأحس سليمان أنه يجب أن يبذل جهداً لكى يمنع نفسه من صفعها ، وقال وهو يضغط على ضروسه :

ــ على أيه حال .. ليس هذا وقته الآن .. سنبحث هذا الموضوع مرة أخرى .. فى هدوء .

ــ لن أبحث شيئا .. إن لى نصيباً شرعياً فى التركة ، وسآخذه .. والأرض

كلها أرضى .

ــ والبنات ؟!

ــ عندهما المعاش .

ــ هل تظنين المعاش يكفيهما للمعيشة والدراسة ؟!

ــ لقد تعلمتا ما فيه الكفاية .

ــ هل تظنين أنه يمكنهما من مجرد العيش العادى ؟!

ــ ليعيشا على قدره .

ــ هل تعتقدين أن بضعة الجنيهات المتبقية من المعاش بعد أن تأخذ الحكومة نصيبها منه ، وبعد أن تأخذى نصيبك . يكفيهما .. لمجرد أكل ؟!

ــ لماذا لا تشتغلان .. هل هما صغيرتان .. يمكنهما أن تشتغلا فى أى عمل ، وإلا فما فائدة المدارس والتعليم .. إن أصغر منهما يعملن .

وكانت « نادية » قد أسدلت الإيشارب على وجهها وأسرعت تجذب « منى » التى اتجهت إلى باب البيت تحاول الخروج .

وأحس سليمان أن المناقشة مع زكية قد باتت غير مجدية ، فهز رأسه وهو يبذل جهده حتى لا ينفجر فيها وتساءل فى هدوء :

ــ أتريدين حقاً أن تشتغل بنات أخينا ، ونحن على قيد الحياة ؟!

ــ ولم لا ؟! إن أمهما كانت تشتغل .. اسألها .. ماذا كانت تعمل عندما اقتنصته !

واحمر وجه « لورا » وبدت طاقتا أنفها ترتجفان وهى تحاول كظم غيظها وأجابت وهى تنهض عن المائدة :

ــ إنى حقاً كنت أشتغل .. ولكنى لم أقتنصه ، وأظننى أستطيع أن أعود للعمل من جديد لأعول ابنتىّ دون حاجة إلى إحسان من أحد .. حتى ولو كان عمتهما ، وأظننا نستطيع أن نجد فى بلدى قوتاً ، إذا عزّ القوت هنا .. إنه ما زال لدينا بيت نأوى إليه هناك .

وهزت زكية كتفها تقول ساخرة :

ـــ بلدها !! لو كان لديك شيء فى بلدك .. ما رضيت أن تتزوجى غريباً .. أن التى ترضى بالاغتراب لا يمكن أن يكون لديها ما تتشبث به .

ولم تسمع « لورا » بقية الجملة . وهى تتجه إلى حجرتها وكل عضلة فى جسدها تنتفض ، وغشاوة من الدمع قد حجبت عينها .

وصاح سليمان بزكية :

ـــ أنت مجرمة .

ـــ أنت قليل الأدب .

ـــ أنت سافلة .. سأتكفل أنا بهن .

ـــ تتكفل بهن بمرتبك الذى لا يكاد يكفيك .. المفروض أن تتزوج وتتكفل بنفسك .

ـــ أنت جاحدة .. أنانية .. طول عمرك بلا قلب ..

ـــ وأنت مغفل .. وستبقى طول عمرك حماراً .

ونهضت زكية تاركة المائدة وهى تتجه مندفعة إلى الخارج قائلة فى لهجتها الحانقة :

ـــ لن أدخل هذا البيت بعد الآن .. أنا لم أحضر إلى هنا لكى أهان .. ليس لأجد عندى شيء ، وعندما أمرض أو أحتاج ، لن يتكفلنى أحد .. كل واحد يقول: يالله نفسى .

وغادرت البيت ، وساد بعدها سكون مطبق ، وانفض الباقون حول المائدة متسللين واحداً بعد واحد .. حتى لم يبق عليها سوى سليمان وقد جلس متكئاً على المائدة بمرفقيه سانداً رأسه على كفيه .. مستغرقاً فى تفكير عميق .

إنه مسئول عن بنات أخيه وزوجته .. والمعاش الذى يستحقونه لا يكاد يتجاوز بضعة عشر جنيهاً ، والأرض التى اعتقد أنها تعين بإيرادها فى معيشتهن قد استولت عليها زكية ، وهو يعرف عنادها وأنانيتها .. ويعرف أنها لن تقبل أن تعينهن بمليم واحد بعد كل ما قالته .

وهو يستطيع أن يعينهن بجزء من مرتبه .. ولكن إلى متى ؟ لقد كان يفكر تفكيراً جدياً فى الزواج قبل أن يموت أخوه .. بل لقد أقدم على مشروع خطبة .. من أخت زوجة زميل له فى السلاح .

على أيه حال .. ليس أمامه سوى تأجيل المشروع .. وأظنهم سيقدرون السبب .. ولكن هل يمكن أن تنتظره الخطيبة ؟!

وتنتظر إلى متى ؟

إلى أجل غير محدد !

وهل يستطيع بمرتبه أن يفتح بيتاً .. يعول زوجة ، ويتوقع أولاداً .. وهو فى الوقت نفسه يعين أسرة أخيه !! هل يستطيع أن يهىء لها ولنفسه .. الحياة اللائقة !!

لا يظن .. إنه قطعاً يجب أن يصرف النظر الآن عن الزواج .. حتى ..حتى ..

حتى يحلها ربنا ؟

كيف ؟ كيف يحلها ؟

بزواج البنتين ! .. أجل هذا هو خير حل .. وتستطيع « لورا » بعد ذلك أن تدبر أمر نفسها بما يبقى من معاش بعد قطع معاش البنتين ، وإن لم تستطع أن تدبره .. فهى تستطيع العيش مع إحدى بناتها .. وإذا استعصى عليها ذلك .. فيمكنها أن ترحل إلى بلدها .. إن لها بيتاً كما قالت .. وأظنها ستفضل العيش فى بلدها .. بعد أن تتزوج ابنتاها .

أجل هذا هو الحل المعقول ، وزواج البنتين ليس بالأمر المستبعد .. بل إن « منى » تكاد تكون مخطوبة .. ألم تقل ذلك منذ بضعة أشهر ؟ ألم تطلب إليه السعى فى إلحاق خطيبها بسلاح الفرسان .. إنه سيحاول ذلك جهده .. وسيسعى إلى إبقائه فى القاهرة .. حتى ييسر له فرصة الزواج .

هذا نصف المشكلة قد انفرجت .. بقى النصف الآخر .. وهو لا يظن أن

حله يمكن أن يكون بنفس السهولة .

إن « نادية » مخلوقة منطوية .. وقد ازدادت انطواء بعد حادث الحريق .. وباتت لا تكاد تغادر حجرتها .. وازداد نفورها من الناس .. كأنها الحيوان النافر .. ولم تعد تقدر على لقاء أحد إلا وقد لفت وجهها بخمارها الأزرق .. كأنما تخشى أن ينفر الناس منها أو يرثون لها .

وهو قد حاول مراراً أن يرفع عنها النقاب .. حتى يزيل عن نفسها ذلك الوهم المسيطر عليها ، والذى يدخل فى روعها أنها قد باتت مخلوقة مشوّهة منفرة قائلا لها :

ـــ يا نادية يا حبيبتى .. كفى عن هذا البله .. إن وجهك بخير ، وليس به أى أثر للحريق .. هذه الحمرة سرعان ما تزول كما يزول أثر الخدش .. ارفعى عن وجهك هذا الحّجاب .

ـــ إن الطبيب قد أمرنى بوضعه .

ـــ لقد أمرك بوضعه لبضعة أيام .. وقد انتهت هذه الأيام .

ـــ إنه لا يضايقنى .

ـــ ولكنه يضايقنا نحن .

ـــ لماذا ؟!

ـــ لأننا نريد أن نرى وجهك .

ـــ ولماذا تريدون أن تروه !؟

ـــ لأنه جميل ، ونحب أن نراه دائماً .

ـــ لم يعد جميلا .. لقد أضحى شيئاً منفراً .

ـــ أنت موهومة .. إنه لم يتغير به شيء .. لقد أصبحت بشرته أجمل مما كانت .. صارت أشد ضوءاً .. وأنعم ملمساً .

ـــ والجبوب التى ظهرت به ؟!

ـــ سرعان ما ستزول .

ـــ والقروح التى حول العنق ؟!

ــ ما لها !!

ــ أيعجبك منظرها المنكمش المبقع ؟

ــ ولماذا لا يعجبنى ؟!

ــ لا تقاوح يا عمى !!

ــ ليكن ! لماذا لا تغطين عنقك فقط ! لماذا تخفين كل وجهك ؟! بل لماذا تسجنين نفسك داخل حجرتك ؟! يجب أن تكفى عن هذا الانطواء .. يجب أن تستعيدى ثقتك بالناس وبنفسك .

وهزّت « منى » كتفها ، معلنة فى يأس :

ــ منذ متى كان عندها ثقة بنفسها .. أو بالناس .. إنك تطلب منها المستحيل .

أجل .. لقد كان يطلب منها المستحيل ، وهى تجلس قابعة فى حجرتها .. عاصبة وجهها .. لا تكاد تكشف عنه إلا وقت الأكل أو الاستحمام .. وبعد أن تتأكد أن أحداً لا يراها .

أيمكنها بهذا الانطواء والاحتجاب .. أن تتزوج ؟!

أيمكن لنصف المشكلة الآخر أن يحل .. وهو معقد كل هذا التعقيد ؟!

لا يظن .

إنها تحتاج لوقت طويل ؛ وهو فى حاجة إلى هذا الوقت . لأن مشكلته لا تحتمل التأجيل . اللهم إلا إذا عدل عنها نهائياً .

وأحس بشىء من الخذلان .. فالمرء لا يستطيع بسهولة أن يجد فرصته الملائمة للزواج ، وهو لم يغد صغيراً .. لقد جاوز الخامسة والثلاثين ، وليس عليه أن ينتظر طويلا .

وأطلق زفرة حارة .. ورفع رأسه عن كفيه ، ووجد« فاطمة » ترفع بقايا الطعام عن المائدة ، وهى ترمقه بنظرة عطف ، وتتمتم قائلة :

ــ ربنا لا ينسى أحداً .. لاتحمل لهن هماً يا سيدى .. إن لهن رباً كريماً .

أجاب سليمان ، وهو يغادر المائدة :

ـــ أجل يا فاطمة .. ربنا موجود .

واتجه فى خطوات متثاقلة إلى القاعة .. فسمع صوت نشيج خافت يأتى من حجرة الأم .

وطرق الباب .. فهدأ النشيج ، ومضت برهة قبل أن تجيب الأم بصوت خافت :

ـــ ادخل .

ودخل سليمان فوجد الأم تقبع فى أحد المقاعد الجلدية وقد احمرت عيناها .

وانحنى عليها وربت كتفها قائلا فى رفق :

ـــ لا تحملى هماً .. إنى سأتكفل بكل شىء .

ونظرت إليه الأم وهزت رأسها فى يأس وأجابت :

ـــ أنت طيب القلب .. ولن أنسى جمائلك أبداً .. ولكنى لا أريد أن أحملك عبئاً لا طاقة لك به .. إن لك حياتك ، ولك مستقبلك .

ـــ ولكنى ..

ـــ أرجوك يا سليمان .. دعنى أتمم حديثى .. أنا لا أريد أن أفقد عطفك علينا وحبك لنا ، وعندما ما تمر الأيام وتحس أننا أضعنا حياتك ، وألقينا بأعبائنا عليك .. ستكرهنا .

ـــ أنت واهمة .. إنى لن أضيق بكم قط .

ـــ هذا كلام يقال الآن ، والعاطفة مرهفة ..والعبء لم يثقل كاهلك بعد . ن لى رجاء عندك ، هو كل ما أطلبه منك .

ـــ ما هو ؟!

ـــ أن تساعدنى على الرحيل بابنتىّ .

ـــ غير معقول .

ـــ أرجوك يا سليمان .. إنى لست على استعداد للدخول فى مشكلات

وراثة ، ومعاش ، وتركات ، ولست على استعداد لأنى أتحمل مزيداً من إهانات أختك .

— لن تريها بعد الآن .

— ولست على استعداد لأن أحمل نفسى وابنتىّ جمائل غريب .

— أنا لست غريباً .

— إنك كأخي تماماً ، ولكنى مع ذلك .. لن أقبل أن أثقل عليك .. إن كل ما أرجوه منك هو أن تساعدنا على السفر .. أنا لا أعرف شيئاً من إجراءاته ، ولا أظنك تتركنى أستعين بالغرباء .

— إنى على استعداد لأن أفعل كل شيء ، ولكن لا أوافقك أبداً على السفر .

— دعنى أسافر على الأقل الآن ، لكى أغير هذه المناظر التى تحيط بى . إننى لم أنم ليلة واحدة .. بعد موته .

— إذن سافرى أنت ، ودعى البنتين .

— أهذا معقول ؟!

— ومعقول أن تبعديهما عن بلدهما ، وعن أهلهما !.

— ستعودان فى ظروف أفضل .. دعنا نهرب الآن من هذا الجو الذى رأيته اليوم .. جو البغضاء والضغينة .. إنى لست فى حالة تعاوننى على الاحتمال ، ولست أريد أن أفقد أعصابى أبداً .. ساعدنى أرجوك .

— والبنتان راضيتان ؟!

— أعتقد ذلك .. إنهما سيغيران ذلك الجو القاتم الذى أحاط بالكارثة التى حلت بنا .

وأطرف سليمان ، وأحس أن المشكلة المستعصية قد حلها الله بأسرع مما كان يظن .

ورفع بصره إلى « لورا » وتساءل :

— وهل ستجدين هناك مايعينك على عيشة لائقة ؟

— أجل إن لنا بيتاً فى « جاب » وأمى ما زالت تعيش فيه .. وتحيط به مزرعة طيبة ، وأنا أستطيع أن أعمل فى المدرسة هناك .. لا تقلق علينا .. إنى واثقة أنى أستطيع أن أدبر أمرى .. كل ما أريده منك أن تعاوننى على السفر .

— حاضر .. سأفعل لك ما تريدين .. بشرط .

— ما هو ؟!

— أن تعدينى أن سفرك ليس إلا رحلة لتغيير الجو حولك ، وحول البنتين ، وأن تعودى ثانية فى أقرب فرصة .

— سأحاول .

---

(١٦)

حنين إلى وداع

مضت بضعة أسابيع وسليمان يحاول أن يحل مشكلات الأسرة التى فقدت عائلها .. ولكن المشكلات ازدادت تعقيداً .. وتكشفت مع الأيام ديون جديدة كان فاضل قد استدانها و لم يسدد سوى جزء ضئيل .

و لم يستطع سليمان أن يلين من حدة « زكية ».. ويغير من موقفها العدائى الأنانى .. و لم يجد بداً فى النهاية من التسليم بسفر الأم وابنتيها ، كحل مؤقت للمشكلات .. وراحة لهن من جو ملىء بالمتاعب ، مشحون بالنكد والهموم .

و لم تستغرق إجراءات السفر وقتاً طويلا . كانت جوازات السفر معدة .. و لم يكن أمام سليمان إلا السؤال عن مواعيد السفن وحجز التذاكر .

ومرة أخرى بدأت فى البيت حركة التجهيز للسفر .. وفى هذه المرة كانت الأحمال أثقل والحقائب أكثر عدداً ، وكان البيت يسوده الاكتئاب ، وتخيم عليه الوحشة .

كانت الأم تعد العدة لسفر بلا عودة .. كانت تحس بعد ما لاقت من عنت أنه لم يعد لها مقام فى مصر .. و لم تجد فى الرحيل مشقة بالنسبة لنفسها .. فقد تملكها بعد وفاة فاضل إحساس باليأس جعلها تسلم بكل شىء ، وكانت تجد فى العودة لبلدها خاتمة طبيعية لحياتها .

أما بالنسبة لا بنتيها . فقد كان الأمر يختلف كل الاختلاف .. كانت تحس أن تلك البلدة الكائنة فى جنوب فرنسا على قمم الألب العليا .. والتى لم هناك مفر من أن تكون بالنسبة إليها خاتمة المطاف .. ونهاية المستقر .. هذه البلده النائية لا يمكن أن تكون بالنسبة للصبيتين .. مقراً أخيراً .. وموطناً نهائياً .

كانت تحس بمصريتهما تسرى فى دمائهما .. كان كل مابهما مصرى أصيل .. طباعهما .. وحديثهما .. ومشاعرهما . كان ثمة شيء أعمق منها ومن أمومتها .. يسيطر على البنتين ويشدهما لهذه الأرض بأهلها .. وأبنيتها .. وشوارعها .

و لم تستطع الأم أن تقنع نفسها .. أن هذا الرحيل يمكن أن يكون بالنسبة لابنتيها رحيلا أخيراً .. كانت تعرف أن إحداهما ، قد ربطت نفسها فعلا بمخلوق .. من هذه الارض ، ومن بين هؤلاء الناس .. وأنها قد وطدت عزمها على العودة إليها .. ومشاركته حياته .

والثانية .. من يدرى ؟.. لعلها قد شدّت قلبها هى الأخرى بمخلوق آخر .. لاتفصح عنه .

ومع ذلك فهى لا تجد بداً من الرحيل .. فأعصابها لم تعد تطيق البقاء ثانية . وهى إن لم تسرع بالرحيل .. فقد تصاب بالجنون ، والإقامة كذلك من الناحية المادية تكاد تكون منعذرة بطريقة لائقة إلا على أكتاف سليمان .. وهى تكره أن تكون بابنتيها عبئاً على أحد .. أو أن تقيم حياتها على شقاء الآخرين .

فالرحيل إذن لابد منه الآن ، أما العودة فعلمها عند الله ، هو وحده الذى يقرر مصير البنتين .

ومن يدرى ! ألا يحتمل .. أن يكون أرتباطهما بهذه الأرض .. مجرد وهم !! ألا يحتمل .. أن يتعوّدا الإقامة هناك .. ويستسيغا العيش .. وتصبح هذه الأرض وهؤلاء الناس .. بالنسبة لهما مجرد ذكرى ؟

من يدرى ؟!

واستمرت الأم تطوى الملابس وتضعها فى الحقائب .. وكانت « منى و نادية » تقومان بنفس المهمة فى حجرتهما .. ووقفت « منى » بقدميها على حقيبتها وأخذت تقفز محاولة دك الحقيبة المنبعجة .

ونظرت إليها « نادية » وتساءلت فى دهشة :

ـــ ما هذا !! أجننت ؟

ـــ إنها لا تريد أن تغلق .

ـــ طبعاً .. ما دمت قد حشرت بها كل هذه الملابس .

وعادت « منى » تقفز فوق الحقيبة فصاحت بها « نادية » :

ـــ كفّى عن هذا .. وإلا حطمت الحقيبة .

ـــ كيف أغلقها إذن ؟!

ـــ خففى ما بها .

ـــ هل تأخذينه أنت فى حقيبتك ؟!

ـــ بعد كل ما أخذت .. غير معقول .. لقد أضحت حقيبتى شراً من حقيبتك .

ـــ إذن ماذا أفعل ؟! إنى لم أضع بها شيئاً لا ضرورة له .

ـــ إذن أعيدى ترتيب الملابس ثانية .

ـــ يا نهار اسود .. لقد أمضيت ساعتين فى رصها !

ـــ أمضى ساعتين أخريين . ماذا وراءك !

ـــ ماذا ورائى ؟! سأذهب إلى النادى .

ـــ لماذا ؟!

ـــ لأرى عصام .

ـــ ألم تريه بالأمس .

ـــ أجل .. رأيته .. وسأراه اليوم . هل لديك مانع ؟!

ـــ المانع لديك أنت .. وهو أنه يجب أن ننتهى الليلة من تجهيز كل لوازم السفر لأننا سنرحل فى الفجر إلى الإسكندرية لأننا يجب أن ....

وقاطعتها « منى » فى ملل قائلة :

ـــ أعرف كل هذا .. أعرفه .. ومع ذلك .. لا بد أن أذهب لأرى عصام .

ـــ اتفلقى .. افعلى ما تشائين .. ولكن تأكدى أنى لن أمد يدى إلى

حقيبتك .

واقتربت « منى » من « نادية » وأحاطتها بذراعيها محاولة أن تلين من إصرارها ، ودفعتها نادية قائلة :

ـــ ابتعدى عنى .. لم أعد آكل من هذه الحركات .

ـــ يا نادية يا حبيبتى .. لم تعاملينني بهذه القسوة ؟!

ـــ اذهبى أولا وأعدى حقيبتك .

ـــ وأترك عصام دون أن أودعه ؟!

ـــ لقد ودعته بالأمس .

ـــ ولكنه اليوم شيء آخر غير الأمس .

ـــ ماذا به !! على رأسه ريشة ؟!

ـــ بل على كتفه نجمة .. وأنت الصادقة .

ورفعت « نادية » حاجبيها متسائلة فى دهشة :

ـــ متى وضعها ؟

ـــ اليوم .. الآن فى هذه الساعة .

وصمتت « منى » برهة .. ثم وثبت إلى الراديو قائلة :

ـــ يا نهار أبيض .. لقد كدت أنسى .. إن حفلة تخرّجه تذاع من الراديو !!

ـــ حفلة تخرّجه تذاع ؟!

وأمسكت « منى » بمفتاح الجهاز تديره يمنة ويسرة محاولة تغيير الموجة وهى تقول فى غيظ :

ـــ لقد قال لى إنها ستذاع .. لست أدرى أين .

وردت نادية قائلة :

ـــ ربما فى ركن الأطفال .

ونظرت إليها « منى » فى غيظ قائلة :

ـــ دمك خفيف يا شاطرة .

وهزت نادية رأسها متسائلة :

ـــ لست أدرى لماذا يذيعون حفلة تخرّج سى عصام .. ماذا يمكن أن يذاع منها ؟!

ـــ خطبة الرئيس جمال عبد الناصر .

ـــ الرئيس جمال عبد الناصر سيخطب فى حفلة تخرّج عصام ؟!

ـــ أجل..

ـــ لماذا ؟

ـــ لأجل خاطر عصام . إنه صديقه الروح بالروح .. لقد ذهب إلى الحفلة خصيصاً لأجله .

ـــ يا دمك .. أتظنين الرئيس جمال عبد الناصر فاضى ، لكى يحضر حفلة تخرّج سى عصام ؟

وكان الحديث يدور وأصابع « منى » لا تكف عن إدارة مفتاح الراديو .. حتى علا صوته فجأة يقول :

« وقف الرئيس جمال عبد الناصر على المنصة وعلى يمينه القائد العام اللواء عبد الحكيم عامر .. وعلى يساره قائد الكلية الحربية ، وقد أخذ حماة الوطن يمرون رافعى الرءوس ».

وسمعت صوت الخطوات العسكرية تدق الأرض فى قوة .. على دقات الموسيقى .

والتفتت « منى » إلى نادية فى شماتة :

ـــ سمعت .. أصدقت أن الرئيس جمال عبد الناصر . ذهب لحضور حفلة تخرجه ؟!

وضحكت نادية قائلة :

ـــ لقد ذهب حقاً .. ولكن ليس من أجله .

وردت « منى » فى عناد :

ـــ بل من أجله وحده .. ليس هناك من يستحق أن يذهب إليه الرئيس جمال عبد الناصر سواه .

وتعالت النداءات العسكرية .. وسمع صوت يهتف ..

« السرية الثالثة لليمين انظر .. »

وقفت « منى » صائحة :

ـــ هل تسمعين .. السرية الثالثة .. إنها سريته .. إن هذا صوته .. إنى أميزه من آلاف الأصوات . هل سمعته ؟!.

وضحكت نادية قائلة :

ـــ اهدئى يا منى .. وكفى عن هذا الصراخ .

ـــ قولى .. هل سمعته ؟!

ـــ أجل سمعته .

ـــ إياك أن تكذبينى مرة ثانية .. عندما أقول لك إن الرئيس « جمال عبد الناصر » سيحضر الحفل .. يعنى سيحضره .

ـــ وعندما تقولين إنه ذهب من أجل سى عصام .. يعنى من أجله .

ـــ أتهزئين .. لماذا ذهب إذن ؟

وكانت الموسيقى العسكرية قد خفتت .. وعلا صوت المذيع يقول فى حماس :

« أيها المواطنون الرئيس جمال عبد الناصر يقف أمام الميكروفون ليلقى خطبته فى جنود الوطن وحماة المستقبل ».

ومضت فترة قصيرة .. علا بعدها صوت الرئيس جمال عبد الناصر يقول فى هدوء :

« أيها الجنود .

« أشعر اليوم وأنا أقف بينكم فى هذا المعهد أن مصر تمر بنقطة تحوّل فى تاريخها الحديث .

« لقد كنا حين نقف بين أرجاء هذا المعهد .. فى أيام خلت .. نشعر أن مصر غنية بالرجال ، وأن رجالها لا تنقصهم الشجاعة .. ولا تعوزهم القدرة على التضحية .. ولا الإيمان بأوطانهم والثقة فى أنفسهم .. ومع ذلك .. ورغم شعور الثقة الذى كان يملؤنا بأنفسنا وبأوطاننا .. كان ثمة إحساس بالمرارة .. يرسب فى أعماقنا .. وشعور بالحسرة يفعم قلوبنا .. لأننا كنا نعلم أن كل ما نملك من رجال وتضحية وشجاعة وإيمان .. ينقصه الدعامة التى يمكن أن تجعل لكل ما نملك قوة ومضاء .. كان ينقصه السلاح .

« ولم تكن حاجتنا أيها الإخوان إلى السلاح .. عن فقر ، لا .. ولا كانت عن تهاون .. وإنما كانت نتيجة التحكم الأجنبى فينا .. وسيطرة المستعمر علينا .

« وعندما أقف اليوم بينكم .. »

ومدت « منى » يدها إلى الراديو تحوّل المؤشر إلى محطة أخرى وقفزت نادية إلى الراديو هاتفة :

ـــ أيتها الغبية .. إن هذا هو ما أتى من أجله .. اتركى الراديو .

وضحكت « منى » قائلة :

ـــ ما شاء الله .. منذ متى أصبحت سياسية ؟!

ـــ هذه ليست سياسة .. هذا هو مصيرنا .. إنه سيتحدث عن صفقة الأسلحة .

ومرة أخرى علا صوت الرئيس « جمال » فى الراديو يقول :

« .. مصر التى كانت تملؤها المرارة .. وتفعمها الحسرة ، تستطيع اليوم أن تتنفس فى حرية .. تستطيع أن تحس بالطمأنينة والأمن .. لأنه لم يعد .. يعوزها السلاح .. لقد كنا فيما مضى أغنياء بالرجال والشجاعة والتضحية والإيمان .. واليوم نشعر أننا أغنياء بكل هذا .. وبالسلاح أيضاً ! هذه يا إخوانى .. هى نقطة التحوّل التى نمر بها .. »

ونظرت « منى » إلى علائم الاهتمام والإصغاء البادية على وجه نادية وتساءلت ضاحكة :

ــ هل اطمأننت إلى السلاح ؟!

وأشارت « نادية » برأسها بالإيجاب ، واستمرت فى إصغائها .. وعادت « منى » تتساءل ساخرة :

ــ هل ستأخذينه معك إلى « جاب » للدفاع عنا ؟

وجثمت سحابة تجهم على وجه « نادية » وعادت « منى » تقول :

ــ لماذا لا تجيبين ؟!

وصمتت « نادية » برهة ثم أجابت فى صوت خافت :

ــ إن وصولنا إلى « جاب » لا يعنى انقطاع إحساسنا بمصر . لا شىء يا « منى » يستطيع أن يقطع صلتنا بها .. هل تكرهين أن تكون مصر حرّة .. آمنة !؟

ــ كيف أكره هذا .

ــ أن هذا السلاح سيحقق لها الحرية والأمن .

وصمتت « منى » .. وارتفع صوت الرئيس « جمال » فى الراديو يردد :

« لقد كانت يا إخوانى حادثة ٢٨ فبراير الماضى ، حادثة الاعتداء اليهودى المدبر الذى وصفه مجلس الأمن بأنه اعتداء مدبر وحشى على جنود آمنين مطمئنين ، لقد كان هذا الاعتداء الذى دبره بن جوريون والذى شكر من أجل تنفيذه رجالا من الجيش الإسرائيلى . كان هذا الاعتداء هو ناقوس الخطر ، ونحن نحمد الله عليه .. فقد استطاع .. أن ينبهنا إلى مواطن الشر .. وكان مصاب ٢٨ فبراير رغم فداحته .. نعمة علينا لأنه كان لنا بمثابه نذير استطعنا به أن نتلافى مصائب أكبر وندفع أخطاراً أشد » .

ونظرت « منى » إلى نادية .. فى إصغائها إلى الراديو وهزت كتفيها .. ثم أمسكت بحقيبتها .. وقلبتها رأساً على عقب قائلة :

ــ اسمعى .. سأعيد ترتيبها .. كما طلبت .. ولكن عندما يحل الموعد .. لن يستطيع شىء منعى من الذهاب إلى النادى .

— إنه لن يذهب إلى النادى قبل أن تنتهى الخطبة وينفض الاحتفال .. وستكونين خلال ذلك قد استطعت أن ترتبى الحقيبة .

— استطعت أو لم أستطع .. سأذهب إلى النادى فى موعدى .. ولو أدى الأمر إلى السفر بالحقيبة مفتوحة وملابسى فى يدى .

وضحكت « نادية » .. قائلة :

— سأتمم أنا ترتيبها .. فقط أرجوك أن تدعينى أسمع .

— خلاص .. أصبحت وطنية .. إن شاء الله سيدخلونك فى مجلس قيادة الثورة ..

ولم تجب « نادية » وعادت تنصت إلى صوت الرئيس « جمال » يقول :

« منذ ذلك اليوم بدأنا ندقق فى معنى السلام ، وفى معنى توازن القوى فى هذه المنطقة .. فماذا وجدنا أيها الإخوان ! وجدنا التوازن يعنى تسليح إسرائيل ، ومنع السلاح عنا . إننا استطعنا أن نحصل على معلومات أكيدة تثبت أنهم فى الوقت الذى يمنعون عنا السلاح .. يعملون على تموين إسرائيل به .

« إنهم يريدون أن يرونا عزلا مستضعفين .. يريدون أن نبقى دائماً تحت رحمتهم .. لكى نطلب نجدتهم إذا ما اعتدى علينا .

« تلك هى الخدعة الكبرى التى ينادون بها فى أنحاء العالم . تلك هى أسطورة السلام فى الشرق الأوسط ومهزلة التوازن ».

وعلا صوت الأم من حجرتها منادية :

— نادية ..

وتركت « نادية » الراديو واتجهت إلى أمها تجيب :

— نعم يا ماما .

— هل أخذت العلبة المستديرة التى بها العقد والأسورة ؟

— لا .. لم آخذها .. لقد كانت فى درج « الشفونيرة ».

— إنها غير موجودة .

ـــ قد تكون موجودة فى درج آخر .. سأبحث عنها .

وتركت نادية الحجرة .. وأخذت « منى » ترص الملابس فى حقيبتها .. وقد بدأ عليها القلق ، وهى تسمع صوت الرئيس « جمال » ينهى خطبته قائلا :

«بهذا ـــ أيها الإخوان ـــ ستسير مصر فى خطها قدما إلى الأمام.. لا ضعف ولا استسلام بل تصميم وعزم .. إننا سنسلح جيش مصر حتى نتمكن جميعاً من أن ندافع عن حدود مصر ونرد العدوان بالعدوان .. »

ودوت بعد ذلك عاصفة من التصفيق والهتاف .. ولم تحاول « منى » أن تسمع تعليق المذيع .. بل قذفت بقية الملابس التى امتلأت بها أرض الغرفة .. وخرجت من القاعة إلى خارج البيت دون أن يراها أحد .. وسارت تحث الخطى فى طريقها إلى النادى .

وبقيت « نادية » فى حجرة أمها تبحث عن العلبة المنشودة حتى وجدتها ، ثم أخذت تعاونها فى حزم الأمتعة ورص الملابس حتى انتهت من كل ما بحجرة أمها .

وعادت إلى حجرتها مرة أخرى ، فوجدت ملابس « منى » ما زالت مكدّسة فى الحقيبة .. فانهمكت فى ترتيبها حتى انتهت منها ، وأحست بالتعب يتملكها ، فخرجت إلى الشرفة تستنشق نسمات الليل ، المشبعة بعبير الياسمينة التى تسلقت الشرفة .

ودقت الساعة الثامنة والنصف وأحست أن غيبة « منى » قد طالت .. وتملكتها رغبة فى أن تلحق بها لتحضرها من النادى .. ورفعت أصابعها تتحسس وجهها وعنقها ، وتملكتها الرهبة .

إنها لا تجسر على مواجهة الناس ، بوجهها هذا .. لقد باتت تخشى لقاءهم جميعاً ، فكيف تغامر بالذهاب إلى النادى لعرض نفسها .. للقائه .. هو .

كيف تجسر أن تواجهه .. بوجهها المسلوخ .. وعنقها المقروح ؟!

لا ..لا .. يجب أن تأوى إلى فراشها .. يجب أن تدع الليلة الأخيرة تمر بها على خير .. ومع ذلك أحست بالحنين يزداد بها إلى وداع أخير .. ولم تستطع مقاومة

الرغبة الجارفة التى تدفعها إلى أن تطوف بالنادى .. طوفة أخيرة .

ومدت يدها إلى القناع الأزرق فلفت به رأسها وأحكمته على عنقها ثم رفعت « ياقة البلوزة » وضمتها إلى رقبتها . وبخطاً وئيدة تسللت من الباب ، واندفعت فى الطريق تتلفت حولها ، فى خشية وذعر .

---

(١٧)

دعها للقدر ..!

وصلت نادية إلى النادى ، ودلفت إلى الحديقة المتسعة من الباب الخلفى ، كانت الظلمة قد خيمت فى أرجاء الحديقة ، فترامت أطرافها وبدت ملاعبها بلا حدود إلا من أطراف الجازورينا الشاحبة المهتزة أمام هبات النسيم .

وتطلعت « نادية » إلى الشرفة المستديرة التى تضم النافورة والكافورة الضخمة وقد تناثرت فيها المناضد واحتشد الأعضاء يتبادلون الأحاديث والضحكات ، وتملكها خوف من الضوء وخشية من نظرات الناس ، وتمهلت فى سيرها مستترة بالظلمة وراء أسوار التنس العالية ، وأخذت تتطلع فى رهبة ووجل إلى ملعب « الكروكيه » الذى بدت رقعته المستطيلة الخضراء مضيئة وسط الحديقة المظلمة وقد علتها مصابيح النيون المعلقة فى الأسلاك المشدودة من أطراف الملعب .

وفجأة ارتعدت أطرافها وتلاحقت أنفاسها ، وتعالت دقات قلبها متتابعة فى عنف .. عندما أبصرت الشبح الطويل .. يسير الهوينى فى الرقعة الخضراء ، ثم ينحنى بمنكبيه العريضتين ليضرب الكرة الملوّنة فى الضوء الأبيض .

وقفت فى مكانها برهة ، وقد علقت به عيناها تتبعانه فى حركته الوئيدة وراء الكرة بجوار زملائه فى الملعب ، وتمنت لو استطاعت أن تعدو إليه لتودعه وتنبئه أنها ستسافر غداً .. وأنها قد لا تعود .. وتمنت لو استطاعت مجرد الاقتراب .. لتلقى عليه نظرة وداع قبل الرحيل ، ولتختزن من مرآة ما يملأ ذكرياتها .

ولكن يدها امتدت بلا وعى لتجس عنقها وتتحسس صفحة وجهها .

وارتجفت أصابعها ، وضغطت بأسنانها على شفتها السفلى وهى تحس بصرخة

نحيب توشك أن تنطلق من أعماقها .

كيف تجرؤ على هذا التفكير !!

كيف يخطر ببالها أن تقدم على هذه المغامرة !!

بل كيف جرؤت على مجرد الاقتراب من النادى !!

أى رغبة حمقاء دفعتها إلى المجىء هنا ؟!

وأى وداع هذا الذى ترجوه ؟!

وأحست برغبة فى أن تطلق ساقيها للريح ، وتنجو بنفسها قبل أن يبصرها أحد .

ولكنها لم تكد تستدير لتعود من حيث أتت حتى أحست بوقع أقدام تقترب وراءها من الممر ثم سمعت صوتاً يهتف بها :

— نادية .

وتلفتت فى خوف لتجد « منى » وقد وضعت ذراعها فى ذراع عصام ، وسار بجوارهما .. شبح نحيل طويل .. استطاعت « نادية » أن تميز فيه صبرى برأسه الصغير ومنظاره السميك الذى أخذ يلمع فى الظلمة .

وبحركة لا إرادية ارتفعت يدها لتضم الإيشارب حول رأسها وتحكم ياقة البلوزة حول عنقها .

وهتف صبرى فى لهفة :

— نادية ؟!! كنت هنا فى النادى ؟

وترددت « نادية » برهة قبل أن تجيب ، ثم هزت رأسها وقالت :

— أجل .

— لماذا لم نرك إذن ؟

— لقد .. كنت أتمشى فى الحديقة .

— تتمشين فى الحديقة !.. ولماذا لم تأتى لتجلسى معنا ! هيا بنا نعد .

وبدا القلق على « نادية » ونظرت إلى الشرفة المزدحمة وإلى أنوارها المتألقة ،

وأجابت وهى تحاول الاتجاه بهم إلى الباب الخلفى للحديقة :

ـــ لم يعد هناك وقت .. لا بد أن نعود الآن إلى البيت .

وقال عصام :

ـــ لا فائدة من نادية .. إنها لم تعد تحبنا .. ألا تجلسين معنا بضع دقائق .. على سبيل الوداع ؟

وقال صبرى راجياً :

ـــ أجل بضع دقائق فقط .. ألن يوحشك فراقنا !! ألن يوحشك البعد عن نادينا ؟!

وأحست نادية بالخناق يضيق عليها ، ولم تجد ما تستطيع الاعتذار به عن الجلوس معهم بضع الدقائق التى يطلبونها ، وتملكها الذعر عندما وجدت أنها توشك أن تظهر بوجهها وعنقها فى الضوء أمام الناس ، وبطريقتها اللاإرادية مدت يدها إلى عنقها ونظرت إلى « منى » متوسلة .. قائلة فى ارتباك :

ـــ طبعاً سيوحشنى الفراق .. إنى أود أن أجلس معكم ، ولكن ...

وقاطعها صبرى قائلا :

ـــ ولكن ماذا !؟ لا يمكن أن تبخلى علينا ببضع دقائق ، نودعك بها .

وقالت « منى » وهى تنظر إلى يد « نادية » التى أخذت تتحسس عنقها فى الظلمة ، وقد بدا الخوف على ملامحها :

ـــ دعونا نتمشى .. إن جلسة النادى أصبحت مزعجة .

ثم جذبت عصام من يده وسارت تجاه الباب وهى تردف قائلة :

ـــ هيا بنا إن الطريق هادئ ويمكنكما أن توصلانا إلى البيت فنستطيع التحدث دون أن نضيع وقتاً .

وهزّ صبرى رأسه قائلا وهو يضحك :

ـــ موافق بشرط ألا نسير بسرعة .

وسار الأربعة فى الشارع الخلفى للنادى متجهين إلى شارع الخليفة المأمون ،

وكانت « منى » ما زالت تتأبط ذراع عصام ، وسار صبرى مجاوراً لنادية وهو ينظر إليها بطرف عينيه وهى تحس بخوف من نظراته وتضم الياقة حول عنقها كلما اقتربوا من أحد مصابيح الطريق .

ومضت برهة صمت كان صبرى يحاول خلالها كعادته أن ينتقى شيئاً يحدث به نادية ، وكانت نادية شاردة فى مدحت التى لم تستطع فى وداعها له إلا أن تطوف به طواف الأشباح ، وكانت « منى » تفكر فى « نادية » وخوفها من الناس وإحساسها بالتشويه ، وكانت تحس أن فى سفرهم خير علاج لتلك العقد التى أصابتها بعد الحريق ، وكان عصام يفكر فى يومه الحافل وفى غده المجهول .. يفكر فى « منى » ، وفى بذلة الضابط التى ستنتهى غداً من عند « الترزى » ، وفى سلاح المشاة الذى ألحق به ، وفى خطبة « جمال عبد الناصر » عن صفقة الأسلحة ، وفى أشياء كثيرة مختلطة مضطربة .

وكانت « منى » أول من أحس بطول الصمت ، فقالت ضاحكة :

ـــ ما شاء الله ، أتنوون أن تقضوا المسافة هكذا صامتين ؟

ثم وجهت الحديث إلى صبرى ساخرة :

ـــ إيه يا صبرى !! لقد كدنا نصل ، وأنت لم تنطق بحرف .. أهذا هو الوداع الحار الذى تنوى أن تودعنا به ؟!

ونظر صبرى إلى نادية وأجاب قائلا :

ـــ لقد كنت أود أن أقول لنادية أشياء كثيرة ، ولكنى أجد الوقت لا يكاد يسمح إلا بالصمت .. لقد حاولت أن أراها من قبل ، وانتظرتها فى النادى كثيراً ، وسألت عنها « منى » فى كل مرة أراها .. فكانت تقول لى : إنها لا تخرج من البيت ، ولا تلقى أحداً .. حتى الحديث فى التليفون لم أفلح فيه ، واليوم لا أكاد ألتقى بها .. حتى أجدها تبخل علينا ببضع دقائق وداع .. فماذا أقول لها ؟!

وأجاب عصام قائلا :

ـــ قل أى شىء .. حدثها عن صفقة الأسلحة التى قلبت رأسنا بها .

وضحك صبرى قائلا :

ــ تقصد الأسلحة التى جعلت منك ضابطاً بحق ؟

ــ أنا لا تهمنى الأسلحة .. أنا نائب أحكام .

ــ ليكن .. لقد جعلت منك نائب أحكام ، فى جيش به أسلحة .. هل تعلم نه لولا صفقة الأسلحة هذه ...

وقاطعته « منى » وهى تضحك قائلة :

ــ عجيبة !! إن صبرى متحمس للأسلحة ، أكثر منك ؟

وأجاب عصام قائلا :

ــ لأنها أسلحة روسية ، لو كانت أسلحة أمريكية ، لما ..

ــ كلام فارغ .. إنى متحمس .. لأننا لم نعد بعد عزلا ، لقد أضحى عندنا السلاح الذى نستطيع أن ندافع به عن أنفسنا .. إنى أتصور نفسى على إحدى طائرات الميج .. أو داخل دبابة ستالين ...

وقاطعته نادية ضاحكة :

ــ لماذا إذاً لم تدخل الحربية ؟!

ورفع صبرى سبابته وأشار إلى منظاره السميك قائلا :

ــ أدخل الحربية بهذه ؟

وقال عصام ضاحكا :

ــ ولِمَ لا ؟! تستطيع أن تحسس على التخت .

ــ على أية حال إنى على استعداد للتطوع فى أية معركة .. إذا أحسست أنى سأكون ذا فائدة .. أقل فائدة .

وتساءل عصام :

ــ حتى ولو كانت معركة مع روسيا .

ــ ولماذا نتعارك مع روسيا .. إن عدونا هو إسرائيل ، وإنجلترا .

ــ لماذا تتهرّب من السؤال أيها الشيوعى ؟ إنى أسألك . هل أنت على استعداد

للتطوع فى أى معركة ، حتى ولو كانت ضد روسيا ؟

وتوقف صبرى وتساءل غاضباً :

ــ هل لديك شك فى هذا ؟! هل تظنني خائفاً ؟! إنى أحب روسيا .. لأنها تعاوننا ، وليس هناك عاقل يقول لك اكره من يعاونك .

وضحكت نادية وقالت وهى تجذب صبرى من ذراعه قائلة :

ــ لا تغضب يا صبرى .. إنه يضحك معك .

ــ لا .. إنه لا يضحك .. إنه دائماً يتهمنى بأنى شيوعى .

وقال عصام :

ــ ألم تقل لى أنت إنك تحب الشيوعية ؟

وقالت « منى » وهى تضحك :

ــ انتهينا .. فضوها سيرة .. بلا شيوعى بلا أمريكانى . لقد أتيتما لتودعانا .. لا لتتعاركا .

وعبر الأربعة شارع الخليفة المأمون إلى منشية البكرى ، وساروا فى الطريق المؤدى إلى البيت وقد أطرق كل منهم وانطلق فى سرحانه .

وكان صبرى أول من أفاق من شروده وهو يحس أن البيت يقرب دون أن يقول شيئاً .. لقد كان يود لو استطاع أن يخلو « بنادية » ليحدثها عن أشياء كثيرة .. ليقول لها إنه يضعها فى خطط مستقبله كنواة لهذه الخطط ، وإنه يعتبرها دعامة أحلامه ، ومبعث آماله ومنبع أمانيه .

كان يود أن يقول لها ما عجز طوال السنين الماضية عن قوله ، ولكنه كان يحس أن الفرصة قد فاتت ، وأن بضع الدقائق الباقية ، لن تسمح له بأكثر من أن يقول لها وداعاً .

وكان يعلم أيضاً .. أنه ــ حتى لو واتته الفرصة ــ فلن يقول شيئاً ، بل سيضيعها كما أضاع غيرها .. لشد ما يحس بالعجز أمامها .

وأحس أنه يجب أن يقول شيئاً ، فمن غير المعقول أن يتركها تسافر .. دون أن

ـعر أن ثمة خيطاً يربط بينهما .
وأخيراً قال فيما يشبه الهمس :
ــ هل أستطيع أن أكتب إليك ؟
وأفاقت « نادية » من شرودها ، فى الشبح الطويل القامة ، العريض ـنكبين ، الذى ما زال يسير الهوينى وينحنى على السكرة فى الرقعة الخضراء تحت ـضوء الأبيض .
أفاقت « نادية » من شرودها قائلة :
ــ طبعاً .. طبعاً .. يسعدنى أن تكتب إلىّ .
ــ هل أستطيع أن أعرف العنوان ؟!
وأجاب عصام :
ــ إنه معى سأعطيه لك عندما نعود إلى النادى .
وكانوا قد اقتربوا من البيت فتمهلوا فى السير .. حتى توقفوا على بعد خطوات ـن باب الحديقة .
ومدت « منى » يدها إلى عصام فأبقاها فى كفه برهة وقال وهو يشد عليها :
ــ لن تتأخرى .
ــ سأعود بمجرد أن تطلب عودتى .
ــ أنا أطلب عودتك من الآن .. إنى لا أريد أن تسافرى .. إنى على أتم ـستعداد لأن نتزوج الآن إذا قررت البقاء .
وخيمت على وجه « منى » الضاحك .. سحابة حزن .. لم تستطع طبيعتها ـلمرحة أن تبددها ، وحاولت جهدها أن تكسو وجهها ابتسامة ، وقالت ، وهى ـشد على يد عصام :
ــ يجب أن نسافر الآن يا عصام . إن أمى فى حالة معنوية سيئة جداً ، وهى فى ـشد الحاجة لأن تغير المكان والجو ، وأنا لا أستطيع أن أتخلى عنها فى هذه ـلظروف .. يجب أن نسافر سوياً ، وسنعود كلنا عندما تنصلح الأحوال .

ـــ أى أحوال ؟

ـــ أحوالنا جميعاً .. أنت لا تدرى الظروف القاسية التى مررنا بها خلال المدة التى أعقبت موت أبى .

ـــ إذن دعى ماما تسافر وحدها لتستجم .

وضحكت « منى » فى مرارة قائلة :

ـــ إن المسألة ليست مجرد استجمام يا عصام .. إن بقاءنا هنا الآن يكاد يكون مستحيلا .. إن حياتنا أضحت سلسلة من المشكلات .

وهزّ عصام رأسه كأنه لا يصدق وقال فى يأس :

ـــ أعتقد أنك تستطيعين البقاء على الأقل أنت ونادية .

ـــ إن نادية فى حاجة إلى السفر أكثر من أمى .

ثم همست بصوت خفيض :

ـــ إنها لا تجسر أن تلقى الناس منذ الحريق .

وتساءل عصام فى دهشة :

ـــ ولمه ؟

ـــ لأنها تعتقد أن وجهها قد شوّه .

ـــ وهل شوّه حقيقة ؟ هل ترك الحريق به أثراً ؟

ـــ ألم تلحظه ؟

ـــ لم أحقق فيها .. لقد وقفت طوال المدة فى الظلام .

ـــ لأنها تخشى أن يراها أحد .

ـــ ولهذا رفضت الدخول فى النادى ؟

ـــ طبعاً .

ـــ ولكن هل أصابها التشويه حقاً ؟

وهزت « منى » رأسها فى حيرة وحزن وأجابت هامسة :

ـــ لا أظن .. أنا لا أستطيع أن أحكم بالضبط عما أصابها .. أنت تعرف أن

'نسان لا يحس كثيراً بما يصيب القريبين منه من تغيير .. إنى أراها كما هى ..
ميلة ، رقيقة ، حبيبة .. قد يكون لون وجهها أضحى أكثر احمراراً .. وأشد
ماناً ، كالجرح حين يقشر .. ولكنى لا أرى فى ذلك تشويهاً ، والطبيب قد أكد
'ن هذا سيزول مع الزمن .

ــ أهذا هو ما يجعلها تهرب من الناس ؟

وهزت « منى » رأسها وقالت فى تردد حزين :

ــ و .. وعنقها .. لقد ترك فيه الحريق أثراً واضحاً .. ولكنى لا أحس أبداً
نه شوّهها .. إن « نادية » لا يمكن أن تشوّه ..

وأطرق عصام فى حزن وتمتم قائلا :

ــ مسكينة .. نادية .

ــ ولكنها تستطيع إخفاءه .. أؤكد أنك لو رأيتها فى النور ، وهى تلف رأسها
بالإيشارب وتحكم الياقة حول عنقها . لما لاحظت بها أى تغيير .

ــ إنها تحتاج إلى الكثير من الحب ، والحنان .. لكى تعاودها الثقة بنفسها ،
ولكى تقتنع أن ما أصابها لا يمكن أن يترك أثراً فى نفوس الغير .. ليتنى أستطيع أن
أفعل لها شيئاً .

ــ لا فائدة .. إن الرحيل خير علاج لها .. يجب أن ترى أناساً جدداً .. لا
تخشى مواجهتهم .

ــ على العكس .. إنها ستستمر فى انطوائها .. ليتها تبقى .

ثم نظر إلى صبرى ، وقد وقف مع نادية على مقربة من باب الحديقة ، وقد أخ
يرقبها فى إعجاب ويتحدث إليها فى وله ، وهمس عصام فى ثقة :

ــ إنه يستطيع أن يفعل لها شيئاً كثيراً .. لا تتصورى كم يحبها ؟

وهزّت « منى » رأسها هزة الشك وقالت فى مرارة :

ــ لا أظن .. ليس هو .. إن الذى يستطيع .. لا يكاد يحس بها ، ولا أظ
باتت تجرؤ على الاقتراب منه .

وهز عصام رأسه فى يأس هامساً :

ــ مسكينة !

وحاولت « منى » أن تنفض عنهما سحابة الحزن التى لفتهما فقالت ضاحكة :

ــ دعها للقدر .

وأجاب عصام فى مرارة :

ــ وماذا نملك غير ذلك !

وأجابت « منى » فى إيمان :

ــ إنى واثقة أن الله لن يخذلها .. إنها طيبة .

وكانت « نادية » قد بدأت تقلق ، ولم يكن صبرى قد استطاع فى تلك الفرصة التى انفرد بها أن يحدثها عن شىء . أكثر من صفقة الأسلحة وفائدتها ، وعدم تقييدها مصر بأى قيد .. وعما يمكن أن تجنيه .. من الحياد الإيجابى .. وعن موقف الغرب الموالى لإسرائيل ، وعن الفضيحة التى كشفها « جمال عبد الناصر » عندما قرأ الوثيقة الرسمية التى حصلت عليها المخابرات المصرية ، والتى تكشف الأسلحة التى سلمتها بريطانيا لإسرائيل.

واندفع صبرى يردد عن ظهر قلب :

ــ تصوّرى : ٢٠ متيور و ٥٠ يوسناغ و ٢٠ موسكيتو .. وتسعين طائرة .. يعطونها لإسرائيل .. عدا ١٠٠ شيرمان والستاج هاون ؟!

وكان يمكن أن يستمر صبرى فى سرد أرقام الأسلحة .. لولا أن بدأت « نادية » تتحرك فى قلق ، وأحس صبرى أن الهنيهات التى منحها الوداع .. قد قضاها فى السياسة والحرب ، وكره من نفسه هذا العجز الذى يشل لسانه عن أن يحدثها عما يفيض به صدره .

مدت « نادية » يدها مودعة .. وهى تهتف بمنى :

ــ هيا يا منى لقد تأخرنا .

وهمس صبرى فى لهجة ذائبة :

ــ ألن يضايقك أن أكتب إليك ؟

وأجابت نادية مؤكدة ؟

ــ إننى أحب أن تكتب إلىّ .

ثم أردفت ضاحكة :

ــ ولكن .. لا تكتب عن صفقة الأسلحة والحياد الإيجابى .. فقد قلت لى ما الكفاية .

وقال صبرى معتذراً :

ــ هل ضايقتك ؟!

وهزت « نادية » رأسها مؤكدة :

ــ أبداً .. إنى أمزح .

وكان عصام و « منى » قد اقتربا منهما ، وقال عصام وهو ينظر إلى نادية فى لف :

ــ سيوحشنا فراقك يا نادية .

وأجابت نادية :

ــ وأنتم أيضاً .. سيوحشنى فراق كل شىء فى مصر .

ــ عسى إذن .. ألا تطول غيبتكم ؟!

ــ تقصد غيبة منى ؟

ــ بل غيبتكم جميعاً .. إننا نحبكم كلكم .

ومنّ الله على صبرى .. بأن ينطق شيئاً .. مما فى صدره فقال مؤكداً :

ــ وأنا أيضاً ؟

وتصافح الجميع ، واختفت الفتاتان داخل البيت ، ووقف صبرى يحملق فى للمة التى ضمت « نادية » وقد فغرفاه فى ذهول .

وجذبه عصام من ذراعه قائلا :

— هاى .. أتنوى أن تقف هكذا إلى الصباح ؟!

وأجاب صبرى فى وله :

— ليتني أستطيع .

— ماذا قلت لها ؟

— قلت لها .. قلت لها .. لقد حدثتها عن صفقة الأسلحة .. عن العشرين متيور ، والخمسين ..

— يخرب بيتك .. أهذا كل ما استطعت أن تقول ؟! أهذا حديث يقوله المحبون ساعة الوداع ؟

وهز صبرى رأسه الصغير فى يأس وحيرة وقال :

— لست أدرى يا عصام كيف تنطقون أحاديث الحب ، لا أعرف .. إنى أحس بالخجل يشل لسانى عندما أحاول أن أنطق بكلمة حب .

وجرّه عصام من ذراعه قائلا فى سخرية :

— شاطر .

— على أية حال .. سأكتب لها .. سأكتب لها ما عجزت عن قوله .. إنها هى نفسها حذرتنى من الكتابة عن صفقة الأسلحة .. سأقول لها .. إنها أعز وأجمل .. ما فى حياتى ..

(١٨)

نحن لا نصنع السراب !

كانت الساعة الرابعة عندما وقفت عربة الأجرة التى تحمل الأسرة الراحلة أمام كشك تفتيش الجمرك فى ميناء الإسكندرية وهبط منها سليمان متجهاً إلى داخل البناء المزدحم بالمسافرين يتبعه أحد الحمالين بالحقائب ، وما لبث أن خرج يستدعى الأم وابنتيها ، ووقف الثلاثة أمام موظف الجمرك يسألهن الأسئلة التقليدية عما يحملن وهل معهن نقود أو ذهب .

ومضت فترة فى إجراءات لم تدر « نادية » كنهها .. وقدم سليمان إحدى الأوراق للأم فوقعت عليها دون أن تعرف ما بها ، وبعد تفتيش شكلى على الحقائب ، تحرك الثلاثة بحقائبهن إلى الخارج متجهات مع سليمان إلى الباخرة .

وكان اليوم أحد أيام أكتوبر الخانقة .. التى يحاول الحر أن يؤكد فى عناد سمج أنه لم يذهب بعد ، وأنه يستطيع أن يعاود هجماته المحرقة رغم حلول الخريف .

ورغم وجود البحر على قيد خطوات .. لم تحس « نادية » بنسمة تندى وجهها الذى كشفت عنه لأول مرة بعد أن أحاطته « بالإيشارب » إحاطة محكمة فلم يبد منه سوى صفحته المواجهة ، وحجبت الأذنين والسالفتين والجزء الأكبر من جانب الخدين .. وربطت الإيشارب أسفل الذقن فغطى العنق ومعظم الذقن وارتفعت ياقة البلوزة .. المستديرة المغلقة .. لتحكم الحصار حول الوجه .. وتحجب كل أثر مما ترك الحريق .

وبدت البواخر متراصة على الميناء .. بأحجامها المختلفة ، وأعلامها المتباينة .. وتوقف ركب الأسرة بحقائبها على أحد الأرصفة .. حيث وقفت الباخرة « محمد على » بعلمها الأخضر المتهدّل الذى لم تقو الريح الراكدة على

نشره فاسترخى فى سكون وكسل .

وتوقفت الأسرة مرة ثانية أمام حاجز خشبى .. ووضع على الرصيف أمام سلم السفينة ، وأحست « نادية » بالضيق والقلق ، وهى ترى احتشاد الناس من حولها ، وخيل إليها أن العيون كلها ترمقها وتفحص وجهها .. وتمنت لو استطاعت أن تعدو إلى الباخرة لتخفى نفسها فى إحدى قمراتها هاربة من العيون المتطلعة ، والنظرات الفاحصة التى تلاحقها .

وأخيراً عبرن الحاجز متجهات إلى السلم الخشبى الممتد من الرصيف إلى باب السفينة ، وعندما انتهى سليمان من الإجابات والاستفسارات ، ومن إبراز الجوازات وتسليمها .. اتجهن إلى حجرتهن يتبعهن الحمالون بالحقائب .

وتنفست « نادية » الصعداء .. وهى تحس بنفسها مرة أخرى بين جدران أربعة بعيدة عن زحمة الناس وضجيجهم وعيونهم المتطلعة .. وتمنت لو استطاعت أن ترتمى على الفراش ، وتلتف بالأغطية وتظل راقدة طوال الرحلة .

ولكنها كانت تعلم أنه مازال وراءها المزيد من المتاعب ، والمزيد من الاختلاط بالناس فى الباخرة .

ورفعت حقيبتها على أحد الأسرّة الأربعة التى ضمتها القمرة .. والتى وضع كل اثنين منهما واحد فوق الآخر .

وقالت « منى » ، وهى تقذف بحقيبتها فوق أحد الفراشين العاليين :

ـــ سأسكن فى أحد أسرّة الدور الثانى .

وأجابت نادية :

ـــ اسكنيهما معاً فلن يشاركك فيهما أحد .

وضحك سليمان معلقاً :

ـــ معك حق .. إنها البهلوانة الوحيدة فى سكان الغرفة . ولا أظن « ماما » على استعداد لأن تتشعلق فى أحد هذه الأسرّة .

وأجابت « لورا » باسمة :

ـــ إنى أفضل النوم على الأرض .. فهذا أسلم عاقبة .

وسادت برهة صمت .. أحس الجميع خلالها أن الوداع قد حان .. وداخل الثلاثة شعور عميق بالأسى .. وهن ينظرن إلى سليمان وهو على وشك أن يفارقهن .. وشعرن أى سند كان لهن .

وتمنى الثلاثة فى وقت واحد .. لو بقى سليمان معهن .. فقد كن يشعرن بالضياع من غيره .. إنه لم يتركهن فى الأيام الأخيرة لحظة واحدة .. ويخيل إليهن أنهن لولاه لما استطعن مجرد قطع تذاكر السفر إلى الإسكندرية .

وكانت « منى » أول من قطع حبل الصمت فقالت بطريقتها العابثة :

ـــ لقد خطر لى خاطر .

وتساءل سليمان :

ـــ ما هو ؟

ـــ أن نغلق عليك باب الحجرة حتى ترحل السفينة .. ونأخذك معنا .. إننا نشعر أننا لا نستطيع الرحيل بدونك .

وأجاب سليمان فى تأثر :

ـــ أن أيضاً أحس أنى سأفقد أعز ما عندى .

وقالت نادية :

ـــ إذاً عدنا بأن تزورنا فى أول فرصة .. فى الصيف القادم إن استطعت .

ـــ إنى أرجو أن تعدن أنتن قبل الصيف القادم .. كل شىء سيكون قد سوى وأصبح على ما يرام .

ثم نظر إلى الأم متسائلا :

ـــ أليس كذلك يالورا ؟! ألم نتفق على هذا ؟

وهزت الأم رأسها فى يأس وأجابت :

ـــ أرجو هذا .

وأردفت نادية تقول :

ـ وإذا لم نعد .. فلا بد أن تأتى إلينا أنت .. إياك أن تنسانا ؟

ـ أنا لا أنسى أحبائى أبداً .

ونظر فى ساعته ثم خطا إلى خارج الحجرة قائلا :

ـ أظن من الخير أن أترككن الآن .. حتى لا يتحقق خاطر « منى » .. فتخطفنى معها إلى فرنسا .

وسار الثلاثة فى الممر الضيق ، ثم صعدن بضع درجات إلى القاعة التى تؤدى إلى مدخل الباخرة.

وكانت الحركة قد اشتدت إيذاناً ببدء الرحيل .. والمسافرون جميعاً قد اصطفوا على سور السفينة المواجه للرصيف .. وفى الجانب الآخر .. تزاحم المودعون وراء الحاجز الخشبى الذى يفصلهم عن السفينة .

وصافح سليمان الأم .. وضم البنتين وهو يحاول جهده ألا يدع التأثر يغلبه .. وأن يتجلد على انفعال الوداع .. بمظاهر الضحك والمرح .. والمزاح .. وهبط السلم ليتخذ موقفه وراء الحاجز الخشبى بين المودعين .

وارتفعت الأيادى ملوّحة ، واختلطت الدموع بالضحكات .. وأطلقت التحيات من السفينة وإليها ، وذابت فى الطريق مختلطة ببعضها البعض .. ولم يصل منها إلى الطرفين سوى لغط وهمهمة .. لا تميز فيه حروف ولا نبرات .

وبدأت السفينة سيرها البطىء عن الرصيف .. ونظرت « نادية » إلى الرصيف المتباعد من خلال سحابة دمع خيمت على عينيها .. وبدأت مخيلتها ترسم بين الوجوه المحتشدة .. وجهاً حبيباً .. وتخيلت صاحبه بقامته الطويلة .. وكتفيه العريضتين .. وقد رفع يديه ملوّحاً .. ثم أحست به يتباعد مع بقية الوجوه .

وخرجت السفينة من الميناء .. وتفرّق ركابها .. بين الحجرات والأبهاء وحول حوض السباحة الصغير .. وبدا البحر ساكن الأديم .. مشلول الموج .. كأنه صفحة ملساء جرداء .. وبدا الجو مختنقاً .. كأن يدا ثقيلة أطبقت على عنقه

وكتمت أنفاسه .. وذرّات الضباب الرمادية الخفيفة معلقة فى الهواء .. ما قال الشاعر :

« ممسكات بعضها من الذعر بعضاً » .. لا نجد من النسيم هبة تنفخ فيها الحياة .. وترفع ثقلها عن كاهل الهواء .

وعادت « نادية » إلى الحجرة الصغيرة ذات الأسرّة المعلقة .. والطاقة المستديرة .. المطلة على صفحة الماء .. وأحست بنوع من الطمأنينة وهى تنطوى بين الجدران الضيقة ، التى تحجبها عن الناس ، وتحجب وجهها عن عيونهم .

وفتحت « نادية » الحقيبة ، وبدأت تتشاغل فى إخراج بعض ملابسها لتضعها فى الدولاب الخشبى .

ونظرت إليها « منى » متسائلة :

ــ ألا تنوين الصعود لنشاهد أعلى السفينة ؟

وهزت « نادية » رأسها بالنفى .

وعادت « منى » تتساءل فى إصرار :

ــ ستظلين جالسة هنا ؟

وأجابت « نادية » فى لهجة مقتضبة :

ــ أجل .

ــ لِمَه !

ــ سأرتب الملابس فى الدولاب .

ــ وما الداعى لترتيبها ؟! كلها خمسة أيام .. وننزل من السفينة .

ــ عندما ننزل نعيدها إلى الحقيبة .

ــ « تانى » !

ــ أتظنين أنك تستطيعين ارتداء فساتينك وهى مطوية فى الحقيبة أم أنك لن تبدلى الفستان الذى ترتدينه طوال الأيام الخمسة ؟

ــ معك حق .. لا بد من تعليقها على المشاجب .

وانحنت « منى » على « نادية » تربت ظهرها قائلة :

ــ طول عمرك ناصحة .. هل تسمحين أن تخرجى لى ملابسى من الحقيبة ؟

وقبل أن تجيب « نادية » انطلقت تعدو إلى ظهر السفينة .

وتشاغلت « نادية » بإخراج ما يلزم من الملابس خلال السفر من داخل الحقائب وترتيبها فى الدولاب .. وكانت « الأم » قد التقت فى السفينة بصديقة فرنسية عائدة من بيروت إلى فرنسا .. فصعدت إليها فى البهو بعد أن اغتسلت واستراحت .

وبقيت « نادية » وحدها فى « الكابينة » الضيقة واستلقت على الفراش محدقة ببصرها فى السماء من خلال الطاقة المستديرة ، وقد تملكها خليط من مختلف المشاعر وشتى الانفعالات .

كان بها طمأنينة الهارب بعد أن أفلت من مطارديه .. كانت تشعر أنه لم يعد هناك خوف من أن تمسك بوجهها المشوّه وعنقها المحترق .. لقد نجت بجلدها .. جلدها الذى لم ينج من وهج النيران .. وأضحت فى مأمن من العيون التى لا تنال منها غير الشفقة والرثاء .

وكان بها يأس طويل عريض .. لا حدود له .. ولا بارقة لأمل فى أفقه .. يأس الهارب الذى لا يعرف ما بعد هربه .. الضائع فى صحراء جدباء قاحلة .

وطالت رقدتها وهى محدقة من الطاقة الزرقاء .. وأنبوبة الهواء فى سقف الحجرة تدفع إليها بريح ساخنة .. وضربات آلات رتيبة تصل إلى أذنيها خافتة متواصلة .

ووصلت إلى مسامعها دقات ذات رنين .. كأنها دق مطرقة على آنية نحاسية وتذكرت أنها دقات الطعام ، وملأها إحساس بالضيق .. فقد كرهت أن تخرج لتجلس على المائدة بين الناس .. وعاودها النفور من التجمع والأضواء والعيون المسلطة .

وتباعدت الدقات فعاودها الاسترخاء ... وطمأنت نفسها بأنها .. تفضل

لا تتناول العشاء .. لأنها لا تشعر بالجوع .

ولكن لم تكد تمضى لحظة حتى فتح الباب بعنف واندفعت منه « منى » صائحة :

ــ نادية !

ومدت يدها وأضاءت النور .

وضايق النور « نادية » .. فأغمضت عينيها وأجابت فى ضيق :

ــ ماذا تريدين ؟!

ــ العشاء .. انهضى .

وهتفت بها « نادية » قائلة :

ــ أطفئى النور .. واذهبى .. لن أتناول العشاء .

ــ أنت مجنونة ؟! إن خير ما فى السفينة طعامها .. هل تذكرين آخر رحلة لنا .. والطعام الذى تناولناه فى السفينة ؟!

ــ أطفئى النور قلت لك .

ولم تطفىء « منى » النور ، بل أمسكت بحقيبتها وأخذت تفتش محتوياتها بسرعة قائلة :

ــ أين فستانى الدانتلا ؟

وأجابت « نادية » وهى تضع رأسها تحت الوسادة :

ــ معلق عندك فى الدولاب .

وفتحت « منى » الدولاب واختطفت الفستان الدانتلا ثم قذفت بأحد فساتين « نادية » على فراشها صائحة :

ــ خذى .. أبدلى ملابسك بسرعة .

وأخرجت « نادية » رأسها من أسفل الوسادة ، نظرت إلى « منى » فى غيظ وأجابت :

ــ ضعى الفستان مكانه ، وكفى سخفاً .

ـــ لا بد أن ترتدى هذا .. إنهم هنا يحضرون العشاء بثياب السهرة .

ـــ ولهذا لن أتعشى .

ـــ لم يا نادية !! إنها ستكون جلسة لطيفة. إن قاعة الطعام فى منتهى الأناقة .. ستجلسين للعشاء والبحر يحيط بك ويتلاطم حولك .. و « الجرسونات » الأنيقات ينحنين أمامك .. وستشاهدين حولك مختلف أنواع الناس .

ـــ لا أريد أن أرى أحداً من هؤلاء الناس .. وليس لى قابلية للأكل .. وأفضل الراحة هنا .

ـــ وسيعرض فيلم جسر ووترلو .. بعد العشاء .. إنهم يعدون آلة العرض فى البهو الكبير .. هيا بنا يا نادية .. لا تكونى كسولة !

وأجابت « نادية » فى ضيق وملل :

ـــ قلت لك دعينى واذهبى أنت .. إنى أحس براحة أكثر وأنا هنا وحدى فى الحجرة .

ـــ هل تنوين أن تخزنى نفسك فى الحجرة طوال أيام السفر ؟

ـــ أجل .

ـــ ولن تتناولى الإفطار أو الغداء ؟

ـــ سأطلب منهم أن يحضروه إلىّ فى الحجرة .

ـــ الأيام الخمسة ؟

ـــ ولِمَ لا ؟

ـــ ولمَ نعم ؟.. لماذا تحكمين على نفسك بهذا السجن !! أمن أجل هذا الوهم الكاذب عن وجهك !! لقد قلنا إنك ستغادرين مصر .. وتكفين عن هذا الانطواء والخوف من الناس .. كنت تخشين أن يراك أحد من أصدقائك ومعارفك فيشفق عليك ويرثى لك .. كنت تكرهين أن تلقى من ينكر عليك شكلك .. فماذا تخشين الآن ؟! ليس هناك من يعرفك على هذه السفينة .. ولن يكتشف أحد ما تتوهمين من تشويه فى وجهك .. ومع ذلك أنت تستطيعين

باستعمال الإيشارب أن تخفى كل أثر حول وجهك .. فلماذا لا ترتدينه .. كما فعلت فى طريقنا إلى السفينة ؟

ونظرت إليها « نادية » وتساءلت فى مرارة :

— هل تريديننى أن أذهب للعشاء بالإيشارب .. وأنت تقولين إنهم يحضرون بثياب السهرة ؟

وترددت « منى » برهة ، ثم قالت ، وهى تحاول أن تتراجع فيما قالته :

— لم أقل إنه حتم على كل إنسان أن يرتدى ثياب السهرة ، ولكن البعض يفعل كما قال لى السفرجى .. ولكن لن يمنعك أحد بالطبع من ارتداء الإيشارب .

— وهل من اللائق أن أظل أطوف بركاب السفينة وأدس نفسى بينهم وأنا معصوبة الوجه .. كالمبلية .. ماذا ترينهم يظنون بمخلوقة .. تخنق نفسها بالعصابات حول وجهها وعنقها فى هذا الحر الخانق ؟!

وقالت « منى » مكابرة :

— لا شىء .

— بل سيظنوننى إما مجنونة .. أو جرباء .

— ليظنوا كما يشاءون .. أنت حرّة فى أن ترتدى ما تشائين .. ومن غير المعقول أن تسجنى نفسك من أجل ما يمكن أن يظنه فيك بعض السخفاء .. ممن لا يعنيك أمرهم ولا يعنيهم أمرك .. ثم .. إنه لم يعد هناك .. من تخشين رؤيته لك .

واقتربت « منى » من أختها ، وهى تشد الفستان حول جسدها وجلست على حرف الفراش ومالت عليها تقبلها فى حنو قائلة :

— قومى يا نادية .. من أجل خاطرى .. دعينا نسلى أنفسنا .. ويكفى ما لقيناه من شقاء .. دعينا نتمتع برحلتنا فى البحر .. فيعلم الله ما يمكن أن نلقاه فى غدنا .. قومى .. وكفاك حملا للهموم .

وأحست « منى » برطوبة الدموع على خدى « نادية » ، فزادت من ضمتها

لها واستمرت تقول :
ــ لا تبكى يا نادية .. وحدثينى .. إنى على استعداد لأن أخلع ملابسى وأمكث معك .. قولى .. ماذا يحزنك ؟!
وهزت « نادية » رأسها ، وهى تقول :
ــ أبداً .. ليس هناك من شىء .
وعادت تتساءل ، وهى تضمها :
ــ أأحزنك رحيلنا عن مصر ؟
ــ ألم يحزنك أنت ؟
ــ طبعاً .. ولكن ليس إلى حد اليأس والنحيب .. قولى .. ماذا يبكيك حقاً ؟
ولم تجب « نادية » .. وأرادت « منى » أن تصوّب سؤالا إلى الهدف مباشرة فتساءلت :
ــ أأحزنك .. أنه لم يعد هناك .. من تخشين رؤيته لك ؟! قولى .
وأطرقت « نادية » وساد صمت حزين رهيب .. وأحست « منى » بالندم على قولها فعادت تقول فى أسف :
ــ هل آلمتك يا نادية ؟!
ــ أبداً .. ما لجرح بميت إيلام .
ــ ولكن يجب أن تكفى عن التفكير فيه .. والحزن على فقده .. إنى أراه من أول يوم سراباً كاذباً .
ــ معك حق .. ولكن السراب .. خير من لا سراب ، إنه يعللنا بالأمل .. وفى فسحة الأمل .. فسحة للحياة .
ــ إذن اصنعى سراباً غيره .
ــ نحن لا نصنع السراب يا منى .. وإنما تصنعه السماء .
وأطرقت « منى » وبدا عليها الحزن وتمتمت فى صوت خفيض :

— أجل .. معك حق .. حتى السراب الذى نخدع به أنفسنا .. لا نملك نحن صنعه ، وإنما يفرض علينا .

ونهضت « منى » من حرف الفراش وجذبت « نادية » من يدها قائلة :

— ومن أجل هذا يجب أن تقومى معى .. يجب أن نصنع ما نستطيع صنعه من أجل أنفسنا .. قومى يا حبيبتى وانفضى عنك كل أحزانك ، لا تقبعى تحتها .. تستسيغ الرقاد فوقك . ولكن تملصى منها .. هيا .. اغسلى وجهك وارتدى فستانك .

وبعد لحظات كانت « نادية » تقف أمام المرآة تعصب الإيشارب حول وجهها وتحكم ربطه أسفل ذقنها .. وترفع باقة البلوزة بحيث تتصل بالإيشارب وتكون معه وحدة متصلة لا تظهر من وجهها إلا رقعة تبدو مستديرة عند المواجهة .

ونظرت « منى » إلى « نادية » فى المرآة . وقالت بإعجاب :

— هايلة .. والله .. ولا « منى » فاضل .

ثم مدت سبابتها إلى شفتى « نادية » ودلكتهما بشدة .. فصاحت نادية متألمة :

— ما هذا ؟

— اسكتى .. هل تريدين أن تخرجى إلى الناس بشفتيك باهتتين !

وجذبتها من يدها ، ثم اتجهت بها إلى الخارج قائلة :

— هيا نستدعى « ماما » من البهو .. إنه بهو مدهش . لقد عزفت على البيانو الذى به .. و لم أعدم .. بضعة حمير .. صفقوا لى .. وكان من بينهم صحفى مصرى هجم علىّ فى حماس وشدّ على يدى مهنئاً .. وعرّفنى بنفسه قائلا إنه ذاهب إلى سويسرا .. ليتسلم عمله فى السفارة المصرية كملحق صحفى .. وقد قلت له إننا فى طريقنا للاصطياف فى « جبال الألب » لأن أمى فى حاجة إلى الاستشفاء فى فيشى وإفيان .. وقد دعانا للنزول عنده فى سويسرا إذا فكرنا فى

الذهاب إلى هناك .. فخذى بالك .. إياك أن تخطئى أمامه .. لقد حذرت « ماما » قبل أن أنزل إلى هنا .. إنه « قنزوح » جداً .. ولكننى كنت أشد منه « قنزحة » .

ونظرت « نادية » إلى « منى » من طرف عينيها وتساءلت :

— وماذا يهمك إذا كان « قنزوحاً » أو غير « قنزوح » .. هل تنوين أن تنشىء معه علاقة ؟!

وأشارت « منى » برأسها فى اقتضاب وأجابت :

— أجل .. مدة السفر فقط .. على سبيل « الونس » .

— وعصام ؟!

وبنفس البساطة أجابت « منى » :

— إنى أحب عصام .. ولا يمكن أن يكون هذا منافساً لعصام .. لأن عصام لا منافس له فى قلبى .. ولكن هذا مجرد زميل رحلة .. لقد قلت لك .. إنه أنيس .

— أنا لا أفهم هذا الأنيس الذى تدعينه .. أنا لا أعرف إلا الصرامة فى الإخلاص .

— اسمعى .. هبى أنك تسيرين وحدك فى طريق موحش ، ورأيت على الرصيف الآخر مخلوقاً يسير وحده مثلك .. أهناك مانع من تبادل الحديث على سبيل « الونس » وقطع وحشة الطريق ؟

— أبداً .. ولكنى شخصياً أفضل أن أمضى فى الطريق وحدى .. حتى لا أضل هدفى فيه .

وأجابت « منى » ساخرة :

— أنت مالك .. إنك تفضلين السير وحدك .. حتى ولو لم يكن لك هدف .

وكانت الأم قد بدأت الهبوط من البهو .. فصادفاها مع صديقتها « هنريت » فى منتصف السلم فهتفت بمنى :

ـــ لماذا تأخرت كل هذا التأخير ؟

ـــ لم تكن نادية تريد العشاء .. وكان علىّ أن أقنعها .

وعرّفت « الأم » صاحبتها بابنتيها .. وهبط الأربع إلى حجرة الطعام ، وأخذت « نادية » .. بفخامة الحجرة .. ومن ريح الأناقة التى تسرى فى جوانبها .. واتجهت بها « هنريت » إلى منضدة خالية فى جانب القاعة بجوار النافذة الزجاجية العريضة .

وكانت المنضدة تتسع لستة أفراد ، وترددت السيدة أمامها برهة ثم جرت أحد المقاعد قائلة :

ـــ اجلسوا .. فلا أظن أحداً ينوى أن يشاركنا فيها .

واتخذت « نادية » مكانها عند طرف المائدة ، وأقبل « الجرسون » ينحنى فى أدب شديد .. واتخذت « هنريت » موقف المضيفة بعد أن وجدت الخجل يلجم الأم وابنتيها .

وقبل أن يقبل « الجرسون » بالحساء .. لاح بباب القاعة شاب أنيق قد انعكس الضوء على لمعة شعره .. وأخذ يتلفت يمنه ويسرة بين مختلف المناضد .. ولمحته « نادية » فزغدت « منى » هامسة :

ـــ أهذا هو صاحبك « القنزوح » الذى يقف بالباب ؟!

وتلفتت « منى » إلى الباب ، ولم يكد يلتقى بصرها ببصره حتى أشار بيده فى حماس ، ثم أقبل عليهن كأنه لقى صديقاً حميما ، ثم وقف أمام المنضدة وانحنى محيياً وقال معرّفا الأسرة بنفسه « جمال عبد السلام الملحق الصحفى فى سويسرا » .. ثم أردف فى حماس :

ـــ لقد كنت أبحث عنك يا منى .. أين كنت ؟!

وبغير كلفة جذب أحد الكراسى الخالية ثم اتخذ مكانه بجوارهن على المائدة قائلا :

ـــ لقد خشيت أن تكونى تناولت العشاء .

ثم نظر إلى نادية وقال ضاحكا :

ـــ هذه لا شك أختك ؟

ثم أشار إلى الأم قائلا :

ـــ وهذه ماما ؟!

و لم تملك « منى » إلا أن تسايره فى عدم كلفته فأجابت ضاحكة :

ـــ أهذا ذكاء طبيعى .. أم خبرة صحفية ؟!

ـــ الاثنان .

ثم أشار إلى هنريت قائلا :

ـــ وهذه خالتك ؟!

وأجابت « منى » ضاحكة :

ـــ لا .. « هذه طلعت آوت » .

وأقبل الجرسون بالحساء .. وانهمك الجميع فى الطعام وتبودلت بينهم أحاديث عامة .. ثم مالبث الحديث أن انقسم إلى جانبين .. الأم وصاحبتها فى جانب .. والأختان والصحفى فى جانب آخر .

وكان « جمال » ـــ على قنزحته ـــ ثرثاراً لطيفاً .. استطاع بسهولة أن يزيل حجاب الكلفة .. فلم يكد ينتهى العشاء حتى بدا وكأنه صديق قديم للعائلة .

ووقف ينحنى أمام « نادية » .. وهو يقول :

ـــ أظننا نسرع الآن إلى البهو قبل أن يبدأ عرض الفيلم .

ونظرت « منى » إلى أمها متسائلة :

ـــ هل تشاهدين معنا الفيلم ياماما ؟!

وأجابت الأم .

ـــ لا .. إنى فى حاجة إلى الراحة .

وكان « جمال » قد سبقهما إلى أعلى ليحجز الأمكنة .

ونظرت « منى » إلى « نادية » وهى تتبع « جمال » ببصرها قائلة :

ــ ما رأيك .. فى هذا الأنيس ؟

وضحكت نادية .. وأجابت :

ــ إنه معقول .

ثم أردفت هامسة وهى تتأبط ذراع منى :

ــ إن هيافته .. لا تجعل فى ونسه خطراً .

(١٩)

إنسان كريم !

استيقظت « نادية» عقب سبات عميق من نوم ليلة السفر الأولى فى السفينة وأحست بجسدها مستريحاً وذهنها صافياً ، وألقت ببصرها من الطاقة المستديرة ، فراعتها زرقة البحر الفيروزية تترامى على طول امتداد البصر ، وكانت الريح قد أخذت تتحرك .. ومرّت بكفها القلقة على سطح الماء فجعدته وقلبت انبساطه قلقلة وسكينته رجرجة ، ونفخت فى ذرات الضباب الرمادية العالقة فى الهواء ، فصيرتها هباء ، وصفا الجو وشفت السماء ، ولم تعد تحس العين أن هناك ما يحد مدى إبصارها ، وأنها تستطيع أن تنفذ إلى السماوات السبع .

وضغطت « نادية » بأنفها على زجاج النافذة .. فكوّنت حرارة أنفاسها طبقة رقيقة من البخار حجبت عنها البحر والسماء ، فمدت كفها تمسحه فى اغتباط .. كما كانت تفعل ، وهى لم تزل بعد طفلة .

ونظرت إلى الساعة فى رسغها ، فإذا بها لم تتجاوز السادسة وأحست برغبة جارفة فى أن تقفز من فراشها وتعدو إلى سطح السفينة .. لتتمتع بهذا الصباح المشرق الصافى .

وكانت تحس أن تلك هى فرصتها للاستمتاع بالبحر ، وظهر السفينة خال ، والركاب ما زالوا يقبعون فى حجراتهم يغطون فى نومهم أو يتثاءبون فى أسرتهم ، ونظرت إلى « منى » فإذا بها مستغرقة فى سباتها ، وقد انكفأت على وجهها فى فراشها العلوى وتدلت ذراعها فى الهواء .

ومدّت « نادية » يدها فجذبت كفها المدلاة .. محاولة إيقاظها دون أن تقلق أمها ، ورفعت « منى » كفها وانقلبت على جنبها الآخر .

ووقفت « نادية » بجوار الفراش تهزها من كتفها هامسة :

— منى .. منى .

وأجابت « منى » دون أن تفتح عينيها :

— ها .

— انهضى .

ولم تجب « منى » .. فقد كانت النعاس يثقل جفونها .. وعادت « نادية » تهزها قائلة :

— منى .. انهضى .. لكى نصعد إلى ظهر السفينة .

واستدارت « منى » وفتحت عينيها بصعوبة متسائلة :

— نصعد إلى ظهر السفينة ؟

— أجل .. إن البحر رائع ، ونسيم الصباح عجيب .

ونظرت إليها « منى » فى غيظ ، وهى تدعك عينيها وأجابت :

— البحر ، والنسيم .. نامى .. نامى .. بلا عبط ، سنظل خمسة أيام بلياليها .. لا نرى شيئاً غير البحر ، ولا نشم شيئاً غير النسيم .. إياك أن توقظينى من أجل هذه التفاهات .

وأغمضت عينيها ، وعادت إلى سباتها .

وبعد برهة .. كانت « نادية » تنطلق وحدها إلى أعلى السفينة ، وقد أحكمت الإيشارب حول وجهها .

وكانت السفينة قد خلت إلا من البحارة منتشرين على سطحها ، وفى ممراتها .. يغسلون الأرض وينظفون الجدران والأبواب ويلمعون المقابض النحاسية .

وكانت الشمس قد بدأت تتصاعد من الأفق باسطة أشعتها الصفراء على سطح السفينة متسللة من النوافذ الزجاجية إلى الحجرات .

ولمحت « نادية » عجوزين يتريضان بالسير فى نشاط على سطح السفينة ، وقد

كشف « الشورت » عن سيقانهما العجفاء . وصبياً قد تسلل من حجرة أبويه .. ليلهو بلعبة الطوق .

ولم تشعر « نادية » برهبة الأمس .. وملأها خلو السفينة من ركابها بالطمأنينة .. وسارت تطوف بأرجائها ومرافقها ، شاهدت الحمام ، وحجرة الآلات ، ومخزن البضائع . وصعدت إلى حجرة القيادة .. ثم انتهى المطاف بها أخيراً .. إلى مقدم السفينة ، ووقفت ترقب الماء الأزرق ومقدم السفينة يمخر عبابه .

واستقر بها المقام على سور السفينة تسبح ببصرها فى الفراغ الأزرق العريض ، وترقب ارتطام الماء بمقدم السفينة وانداياحه فى خط من الزبد الأبيض .

وأحست بوقع أقدام تقترب منها .. وظنت صاحبها أحد البحارة يباشر عملية النظافة .. ولكن الخطوات تمهلت حتى توقفت بجوارها .. ثم سمعت صوتاً يهتف بحماس :

ــ هالو منى .

والتفت « نادية » فإذا به « جمال عبد السلام » بأساريره المتهللة وابتسامته التى لا تبهت ، وقبل أن ترد « نادية » لتصحح له ظنه بأنها ليست « منى » .. اندفع يقول :

ــ أما مفاجأة هائلة .. لم يخطر ببالى قط أنك استيقظت فى هذه الساعة المبكرة .. وكنت أود أن أذهب لإيقاظك حتى ترى هذا المنظر الجميل .. ولكن خشيت أن أزعجك ، وخشيت أكثر أن تتهمنى أختك بالجنون .. إنها تبدو عاقلة جداً .. عاقلة أكثر مما يجب .. وعندما كنا نتعشى بالأمس ...

وكان على « نادية » أن تقاطعه لتبين له حقيقة الأمر حتى لا يتورّط فى أكثر من ذلك .. إن تهمة العقل محتملة .. أما أكثر من ذلك .. فيجب أن يحذر منه .

وقالت نادية :

ــ يا أستاذ جمال .

— قلنا جمال فقط .. يا منى .

— أنا لست « منى » يا أستاذ « جمال » أنا نادية .. نادية العاقلة أكثر مما يجب .

ورفع « جمال » حاجبيه فى دهشة وتساءل فى شك :

— غير معقول .. أنت تضحكين علىّ يا منى .

ولم تملك « نادية » إلا الضحك من إصراره على الخطأ وأجابت :

— أنت وشأنك .. إذا كنت تصر على اعتبار أنى « منى » فليكن ، ولكن أرجوك أن تكف عن شتيمة « نادية » .. لأن طاقة المرء فى سماع نقائصه محدودة .

وهز جمال رأسه فى دهشة قائلا :

— عجيبة !! الظاهر أنك « نادية » فعلا .. أنا متأسف .. كا يجب أن أعرف ذلك ، ولكن الشبه قريب جداً .. وأنا لم أجلس معكما الوقت الكافى للتمييز بينكما ، ولم أكن كذلك أتصوّر أنك أنت التى ستستيقظين مبكرة ... وتقفين هكذا لترقبى البحر والشمس .. كنت أظنك أعقل من هذا !

— وهل هذا جنون ؟!

وضحك جمال قائلا :

— ليس بالضبط .

— بالتقريب ؟!

— إنه عند بعض الناس تأمل وعند الآخرين جنون . فماذا ترينه أنت ؟

— أنا أعتبره تأملا .

— وأنا أراه مقدمات جنون .

— والجنون .. فنون ؟!

وقهقه جمال .. ثم قال :

— زدت المسألة صعوبة .. كنت أظن أنى أستطيع أن أميز « منى » بروحها المرحة .. ولكن يبدو لى أنه حتى هذا تتشاركان فيه .

ـــ ليس دائماً .. إن حالة المرح عندى حالة عارضة .

ـــ تصيبك من البحر والشروق والنسيم ؟!

ـــ ربما .

ونظر جمال إلى وجهها محدقاً .. وأحست « نادية » لأول مرّة بالاضطراب .. وضياع الثقة ، وهى تجد وجهها قد أضحى موضع فحص ، ومدت يدها بالطريقة اللاشعورية لتتحسسه ولتحكم الإيشارب حوله ولتشد الياقة حول عنقها .

وتساءل جمال ، وهو مستمر فى التحديق فيها :

ـــ لست أدرى إذا كيف يستطيع المرء التمييز بينكما .

وساد الصمت برهة وأشاحت « نادية » بوجهها حتى تبعده عن زاوية الفحص ومجال المراقبة . وأجابت وهى تحاول التمالك :

ـــ لن يصعب عليك الأمر بعد ذلك .. إن وجه « منى » جميل لا يمكن أن يخطئه المرء .

وأجاب جمال وهو يتكئ بذراعيه على سور السفينة :

ـــ وجه « منى » فقط ؟ .. لو كان ذلك لهان الأمر .. إن المشكلة .. هى أن وجه كل منكما أجمل من الآخر .

ـــ هذا من ذوقك .

وتحركت « نادية » مغادرة مقدم السفينة وهى تحس بالرغبة فى الهروب ، وسار جمال بجوارها وهو يتمتم قائلا :

ـــ على أية حال .. لا أظننى سأخطئ بعد الآن .. إن بلك شيئاً مميزا .

ـــ بى أنا ؟!

ـــ أجل شيئاً فى وجهك .

ـــ وأحست « نادية » بضربات قلبها تتلاحق ، وزادت من سرعة خطاها وهى تحس أنها قد باتت فى حاجة إلى أربعة جدران تقيها شر العين الفاحصة .. و لم

تحاول أن تسأله عن الشيء الذى رآه فى وجهها .. كانت تخشى أن تكون بعض آثار الحريق قد أفلتت من الإيشارب .

ولم يدعها جمال تسأل .. فقد أردف يقول مفسراً :

ــ شيء فى وجهك .. لا أعرفه .. شيء مريح .

ولم تستطع « نادية » أن تكتم تنهيدة راحة انطلقت من شفتيها ، وهتفت تتساءل فى دهشة :

ــ مريح ؟!

ــ أجل .. شيء يبعث على الثقة والطمأنينة .

وكانا قد وصلا إلى أولى درجات السلم المؤدى إلى الصالون ، وكانت حركة الركاب قد أخذت تزداد ، ودبيب أقدامهم ينتشر .. وأحست « نادية » من قول جمال كأن التهديد الذى سلط عليها قد رفع ، والخطر الذى أحدق بها قد زال ، وأن مغامرتها التى أقدمت عليها بالظهور أمام الناس .. والخروج من الجحر .. لم تنته ــ كما كانت تتوقع ــ بكارثة .

إذاً فوجهها مازال به شيء .. شيء مريح يبعث على الثقة والطمأنينة ، وليس شيئاً كريهاً يبعث على النفور والاشمئزاز ، وهذا الشيء ــ كما يجزم صاحبها ــ شيء مميز .. يميزها عن « منى » .

ولكن أتراه يقول هذا .. لو رفعت الإيشارب ، وأنزلت الياقة ؟!

وأفزعها الخاطر ، ومدت يدها بسرعة لتتأكد من وجود الدرع الواقية ، ولتثبته فى موضعه جيداً .. حتى لا يبدى من آثار التشويه .. ما يقضى قضاء مبرماً على ذلك الشيء المريح المطمئن .

وقبل أن تنزل يدها من الإيشارب .. تساءل جمال ببساطة :

ــ يبدو أنك معجبة جداً بهذا الإيشارب .. إنك لم تخلعيه منذ أمس !

وأحست « نادية » بالاضطراب يعاودها ، وتمنت مرة أخرى لو أطلقت للريح ساقيها ، وهبطت إلى الحجرة لتختفى بين جدرانها .. لقد كان الحديث عن

الإيشارب اقتراباً من منطقة الخطر ، وكانت تحس أنه عورة .. لا يجب التكلم عنه ، ولكنها لم تملك إلا أن تردد متسائلة .. وهى تسرع الخطا :

— هل يعجبك ؟!

— لطيف .. أحب لونه الأزرق .. والزهور البيض التى به ، ولكن مع ذلك .. أحس أنك بدونه .. أجمل منك به .

ومرة أخرى مدت يدها لتطبق على ربطة الإيشارب .. لقد بدا لها .. أن ذلك الأحمق قد سلط عليها ، وأنه سيكرهها فى النهاية على خلع الإيشارب .

وعاد جمال يقول :

— لقد دهشت من لف رأسك ووجهك به خلال العشاء .. ولكنى ظننت أنك قد استحممت ، وأنك تخشين على رأسك من لفحة الهواء .. رغم أنه لم تكن بالأمس نسمة هواء ، وقلت لنفسى إنك فتاة « موسوسة » .. وعزمت أن أعلمك فى هذه الرحلة كيف تخرجين إلى الهواء .. برأسك عارياً .. وصدرك مفتوحاً .. كما تفعل أختك « منى » .

وازداد الاضطراب بنادية .. وبدت لها خطورة هذا الأحمق ، وأخذت تتمتم قائلة ، وهى تحاول أن تتجنب نظراته إلى وجهها :

— لقد تعوّدت ارتداءه .. لأنى أصبت بنزلة برد .. وأخشى إن خلعته أن تعاودنى النزلة مرة أخرى .

وقال جمال فى حماس :

— هذا بالضبط ما ظننت .. ولذلك يجب أن تخلعيه .. لا برد فى البحر أبداً .. افعلى كما يفعل البحارة .

وقبل أن تجيب « نادية » .. لمحت « منى » مقبلة وأحست نادية فى رؤيتها منجاة لها من مطاردة « جمال » وإلحاحه ، والخلاص من مناقشته فى خلع الإيشارب .

ولم يكد « جمال » يلمح « منى » حتى هتف بها :

ــ هاى منى .. تصوّرى أنى ظننت أن نادية هى أنت !!

وأجابت منى :

ــ لست أول من يخطئ فينا .. لقد كانت المدرّسات يخلطن بيننا دائماً فى المدرسة ، وكانت المسكينة تتحمل كل مساوئ ، وكنت أكافأ عن كل حسناتها .

وضحك جمال قائلا :

ــ تماماً كما حدث هذا الصباح .. لقد تحمّلت مساوئك فى شخصى .. لقد قطعت عليها خلوتها .

ــ تستاهل .. إنها أقلقت نومى .. إذ حاولت أن توقظنى لأتمتع بالبحر والنسيم ولكنى نهرتها .. ثم حاولت النوم فلم أفلح ، و لم أجد خيراً من أن أرتدى ملابسى ثم ألحق بكما .

ــ كنت أظن أنك أنشط منها ؟

ــ أنا أنشط منها عندما تكون هناك فائدة للنشاط .. أعنى فائدة أهم من مراقبة البحر وشم النسيم .

وكان الثلاثة قد وصلوا إلى البهو ، وهمت « نادية » بالانسحاب لتعود إلى حجرتها عندما استرسل جمال قائلا :

ــ كنا نتناقش أنا ونادية حول موضوع الإيشارب .

وبهتت « منى » وفغرت فاها من الدهشة ثم هتفت مستفسرة :

ــ موضوع إيه ؟

وأجاب جمال وكأنه يتحدث فى موضوع مسلّ :

ــ الإيشارب الذى تلف به رأسها .. لقد أدهشنى أن ترتديه خلال العشاء أمس .. ثم علمت منها الآن أنها أصيبت بنزلة برد .. وأنها تخشى خلعه . ولكنى أكدت لها أنها يجب أن تطرد عن نفسها هذا الوهم .

ونظرت « منى » إلى « نادية » وأحست بالاضطراب والخوف اللذين

تعانيهما .. وتبينت الخطورة التى تحس بها ، فهزت رأسها بشدة قائلة :

ــ لا .. لا .. مستحيل . إنها لا تستطيع خلعه .. لقد حذّرها الأطباء من أى هبة هواء . وإلا انتكست .. إياك أن تخلعيه يا نادية .. لا تكونى مجنونة .. إياك أن تستمعى إلى أحد .. وإلا ..

وبدت الدهشة على وجه « جمال » من حماس « منى » وتمتم معتذراً :

ــ أنا متأسف .. أنا .. أنا لم أقصد أبداً .

وأجابت نادية :

ــ لا داعى للأسف .. إنك لم تكن تعرف بالطبع .

ــ كنت أظنها مسألة « وسوسة » .. لا تحذير طبيب .. ومع ذلك فإنى ...

وقبل أن يسترسل فى حديثه قاطعته « نادية » قائلة وهى تحاول الاستئذان :

ــ أتسمحان لى .. سأعود إلى الحجرة وسألحق بكما على الإفطار .

وهتفت بها « منى » وهى تتجه إلى حجرتها :

ــ إياك أن تخلعى الإيشارب .

وأحست « نادية » ببعض الطمأنينة .. بعد أن وجدت عذراً يقيها الفضول طول مدة الرحلة .. بحيث لا تضطر مرة أخرى إلى الانطواء كالسجينة داخل الحجرة .

ولم يعاود « جمال » بعد ذلك الحديث فى موضوع الإيشارب ، وكانت الألفة تزداد بينه وبين الأختين يوماً بعد يوم .. كان مخلوقاً طيب القلب .. ودوداً أليفاً ، وكان كما وصفته « نادية » ثرثاراً لطيفاً .. أو كما قالت عنه « منى » فى أول لقاء لها به .. أنيس طريق ، وصديق رحلة .

وكانت « نادية » تحس فى جلساتهم .. أن عينى « جمال » كثيرة التسلل إلى وجهها .. وكان يصيبها إحساس بالخوف والاضطراب ، وكأنما كانت تخشى أن يكتشف أمر وجهها المعصوب ويعرف ما وراء عصابة « الإيشارب » من تشويه .

ولكن « منى » كانت تعرف ما وراء النظرات .. كانت تدرك بحساسيتها ، أن جمال قد تعلق بنادية ، وأن إحساسه بها لم يعد مجرد إحساس صديق .. بل تعداه أكثر من هذا . وعندما كانت « نادية » تضيق بنظراته كانت « منى » تهمس بها :

— لا تخشى شيئاً ، ألم يقل لك إنه رأى فى وجهك شيئاً مميزاً .. شيئاً مريحا .

وتهز « نادية » رأسها موافقة فتقول « منى » ضاحكة :

— إذن دعيه .. ينظر إليه .. لعله يستريح .

ثم تصمت برهة وتردف قائلة :

— إنه يحبك يا غبية .

وتهز « نادية » رأسها وتقول فى غير اكتراث :

— يحبنى أنا ؟!

— أجل أنت .

— دعيه يحب .

— لماذا تستخفين به ؟! إنه إنسان ممتاز .. لطيف ، ووجيه ، وله مركز محترم ومستقبل مرموق .

وتنظر إليها « نادية » فى دهشة وتتساءل :

— ما هذا كله ؟! ماذا يهمنى أنا من مركزه ومستقبله ؟!

— لكيلا تستخفى به .

— ومالى أنا به .. أستخف أو لا أستخف .

— لا تكونى بلهاء .. لو كنت منك لشجعته .

— على ماذا ؟!

— على التقدم لخطبتى .

— ما هذه السخافة يا منى ؟!

ــ سخافتى أنا !! والله .. ما أسخف على الأرض منك .. رغم ما تبدين به من عقل ورزانة .. هل تظنين أنك ستبقين عانساً ؟! هل تنوين الترهب من أجل هذا « الجزار » الذى لا يحس بوجودك على ظهر الأرض ، الذى رفض نجدتك يوم الحريق ؟!

ــ رفض نجدتى ؟. من قال لك هذا ؟

ــ ألم يتركك دون أن يجرى لك العملية .

ــ أنت تعرفين أنه ذهب لإنقاذ مريض من الموت ، فلا تحاولى تشويه سمعته بالافتراء . ثم إنى لم أكن أعنى لديه شيئاً .

ــ ولن تعنى لديه شيئاً أبداً .

ــ لست أريد أن أعنى لديه .. أو لدى غيره شيئاً .

ــ ولكنك ستتزوجين يوماً ما .. فلا تحاولى أن تجعلى من حبه عقبة تضيع منك الفرص ، وتبعد عنك الناس .

ــ أين هذه الفرص ؟! وأين هؤلاء الناس ؟! أكل هذا تقولينه لمجرد نظرة تطلع من صاحبنا هذا ؟! هل تعتقدين أن نظراته ستستمر لو نزعت عن وجهى الإيشارب ؟.

ــ إذا كان يحبك فلن يضيره أى شىء .

ــ أنت بلهاء .. أؤكد لك أن اليوم الذى سيبصرنى فيه بلا إيشارب .. لن يجد فى وجهى أثراً لذلك الشىء الذى يريحه ويجذبه .

* * *

وبعد بضعة أيام .. أقبل « جمال » على الأختين بعد الغداء وهما فى طريقهما إلى الحجرة وصاح بهما :

ــ لا .. لا .. لا نوم اليوم .. سنبقى مستيقظين .. حتى نشاهد البركان .. سنمر به فى الساعة الثالثة والربع .. أى بعد ساعة وربع .. فهيا بنا نجلس هناك حتى نرقبه .

وأجابت نادية :

ـــ بشرط أن تنتقى لنا ركناً هادئاً لا يزعجنا فيه أحد ؟!

ـــ لكما علىّ ذلك .

وذهب الثلاثة إلى مقدمة السفينة واضطجعوا على مقاعد القماش الطويلة .. وبدأ « جمال » ثرثرته عن رحلاته السابقة .. وعن أول مرة عبر فيها مضيق مسينا ، ورأى بركان فيزوف .

وهب الهواء رطبا .. كأنه الأكف الندية تربت الوجوه .

وأسبلت « نادية » عينيها وأرخت أطرافها ، وبعد لحظة أحست بالهواء .. كالمخدر ، وتثاقلت أجفانها .. وبدأت أفكارها تختلط اختلاط المقبل على النوم ، ولم تعد تلتقط سوى فقرات متقطعة من حديث جمال .. حتى خفت صوته تماماً .

ومضت برهة و « نادية » مستغرقة فى سباتها على المقعد المريح الطويل .. وجمال مسترسل فى حديثه .. و « منى » تتأرجح بين الإنصات والسرحان .

وقال جمال ضمن أحاديثه عن رحلاته :

ـــ وأعجب ما رأيت فى إيطاليا .. مقابر جنوا .. هل رأيتماها ؟

وكانت « منى » شاردة فلم تجب والتفت جمال إلى « نادية » يستحث ردّها فإذا بها نائمة .

وتشبثت عيناه بوجهها ، وظل ينظر إليه كالمأخوذ .

كان الإيشارب قد انزلق من رأسها وبدا أسفل صدغها ، وقد ظهرت به آثار الحريق .. وبدت به النقط البيض التى بدت بالجلد عقب شفائه من الحريق .

وأصابت جمال رجفة ، وأحس بألم يثقل جوفه .. وهو يكشف سر إصراره على عصابة وجهها .. وبغير وعى وجد نفسه يميل فى مقعده ويمد ذراعه .. يمسك طرف الإيشارب بإبهامه وسبابته ، ويشده على رأسها فى سكون .

وأحست « منى » بصمته ، وتلفتت إليه . لتجده يشد الإيشارب على وجا

« نادية » بعد أن اكتشف آثار الحريق .

وخيل إلى « منى » أن المقعد يغوص بها فى خشب السفينة ومضت بها برهة ، وهى تلهث كأنما تقف على شفا هاوية .. وأخذت ترقب عينى « نادية » ، وهى تدعو الله أن يثقل أجفانها فلا يجعلها تحس بما حدث .

والتقت عينا « منى » بعينى جمال .. وأخذ كل منهما يحدق فى الآخر دون أن ينطق بكلمة .

وأخيراً قالت « منى » فى رجاء حازم :

ـــ لن تذكر لها شيئاً .

وهز جمال رأسه بالنفى دون أن ينطق .. فقد كان يخشى أن يخونه صوته وتخذله عبراته .

وعادت « منى » تتساءل هامسة :

ـــ ولن تغير معاملتك لها ؟!

وعاد جمال يهز رأسه فى تأكيد وهمس قائلا :

ـــ سأغيرها .. إلى أفضل .

ونظرت « مني » هامسة :

ـــ متشكرة .. متشكرة جداً .. أنت إنسان كريم .

(٢٠)

وهم وحقيقة

اقتربت السفينة من مرسيليا .. وبدا الميناء الفرنسى من بعيد بأسقفه الحمر المنحدرة ، وبيوته المكدسة على الشاطئ ، كحائط ممتد .. وكان الجو قد تلبد بالغيوم ، والمطر قد أخذ يتساقط فى غزارة .. و « جمال » قد وقف بجوار الأختين يتكئون على حرف السور فى أحد الممرات يرقبون المرشد وهو يصعد من القارب البخارى إلى السفينة ليقودها إلى الميناء .

وأحست « منى » بشىء من الأسف على فراق « جمال » فقد وجدت فيه خير مؤنس لوحشة « نادية » ولا سيما بعد أن أدرك سر انطوائها وعرف ما وراء العصابة التى تشد بها وجهها .. فازداد إقبالا عليها .. وعناية بها .

ولم تشك « منى » أن ازدياد إقبال « جمال » على « نادية » قد سببه الإحساس بالرثاء والشفقة .. وكانت شديدة الحذر من أن يساور « نادية » أقل شك فى حقيقة مشاعر « جمال » ، فقد أحست أن هذه المشاعر ، رغم عدم نفاذها إلى نفسها .. إلا أنها منحتها بعض الثقة .. وأبعدت عنها الاعتقاد بأنها أضحت مخلوقة مشوّهة ينفر منها الناس .

وكان « جمال » قد بدا عليه السرور وأخذ يسترق النظر بين آونة وأخرى إلى « نادية » وقد بدا جانب وجهها مشدوداً بالإيشارب ، وأحس برغبة شديدة فى أن يتحسس رأسها ويضمها إليه فى رفق .

لقد أحس أن الفتاة الشقراء الهادئة المعصوبة الرأس .. لم تعد مجرد عابر سبيل .. عبرت طريقه . بل أضحت بعد بضعة أيام السفر .. وكأنها جزء من كيانه .

وحوّل بصره إلى « منى » .. وبدا فى عينيه .. كمن نوى أمراً .. ومد يده .. فمس كتفها .. والتفتت إليه « منى » متسائلة بعينيها عما يريد .

وبدا عليه الارتباك .. ثم أشار برأسه إلى داخل السفينة فهزت « منى » رأسها تطلب مزيداً من الشرح .. ولكن « نادية » التفتت قائلة وهى تجد المطر يزداد انهماراً :

ــ تصوّروا الفارق بين الجو الذى صعدنا فيه إلى السفينة والجو الذى سنغادرها فيه ؟ من النقيض إلى النقيض !

وعلقت « منى » قائلة :

ــ أنا أفضل هذا الجو .. مهما هطلت السماء .. فهو خير . من الجو الراكد الذى يحس فيه المرء بالاختناق .

ونظر « جمال » إلى « منى » وهو يقول :

ــ عن إذنكما .. سأذهب لأخرج حقائبى من الحجرة .

وقبل أن يستدير مغادراً قال « لمنى » :

ــ ألا تريدين المجلات التى طلبتها يا منى ؟!

وأجابت منى :

ــ أجل .. سآتى معك لآخذها .

وسارت « منى » لاحقة به وهو يتجه إلى الداخل . وقبل أن يصلا إلى حجرته هتفت منى :

ــ أحقاً تريدنى من أجل المجلات ؟!

وتوقف « جمال » وقد بدا على سيمائه التفكير وأجاب فى شرود :

ــ بل أريدك لشىء أهم من هذا كثيراً .

ــ ما هو ؟!

ــ هل تجلسين فى حجرتى ؟!

ــ يتوقف على نوع حديثك .

ثم أردفت مازحة :

ــ فإذا كان غزلا .. فمن الخير أن نجلس على الأريكة .. أو على حافة الحمام .

ــ بل هو حديث جاد .

ــ وهل الغزل حديث غير جاد ، طبعاً لسنا قدر المقام !

ولم يكن يبدو على « جمال » أى ميل للمزاح .. فقد مدّ يده وجذب « منى » إلى داخل الحجرة قائلا :

ــ اسمعى يا منى .. ليس لدينا وقت للمزاح .. أريد أن أطلب منك شيئاً هاماً .

ــ ما هو ؟!

ــ إنى أريد أن أخطب نادية .

وكانت « منى » تتوقع أن يحدثها عن « نادية » .. ولكن لم يطف بذهنها أن يصل حديثه إلى حد الخطبة .

كانت تتوقع أن يحدثها عن ألمه لإصابة « نادية » .. وعن استعداده لأن يكتب إليها .

كانت تتوقع .. كل أنواع المساعدة التى يمكن أن يقدمها إنسان كريم أثيرت شفقته .. ولكنها لم تنتظر أبداً أن تصل المساعدة إلى حد الخطبة .

وعقدت الدهشة لسانها فلم تنبس بكلمة .. وطال الترقب « بجمال » .. وهو يحدق فى قسماتها المذهولة وتساءل مستحثاً :

ــ لماذا لا تجيبين ؟!

وأجابت « منى » مترددة :

ــ لأنى .. لأنى .. مندهشة .. هذه مفاجأة لم أكن أتوقعها .

ــ لماذا ؟!

ــ لأنى لم أظن الشفقة تبلغ بك هذا الحد من الاندفاع .

ــ شفقة .. واندفاع ؟! ما هذا الذى تقولين !

ــ أليس ما دفعك إلى خطبتها .. إحساسك بالشفقة عليها ؟

ــ طبعا لا .

ــ هل قرأت قصة « حذار من الشفقة .. لزفيج » ؟!

ــ طبعاً .. لا .

ــ إذاً فاقرأها أولا .

ونظر إليها « جمال » وتساءل فى غيظ :

ــ أهذا كلام !! أقول إنى أود أن أخطب « نادية» .. فتقولين لى اقرأ قصة ؟!

ــ أجل .. إنك سترى نفسك فى هذه القصة .. ستجد البطل الذى دفعته الشفقة إلى خطبة مشلولة مقعدة .. ثم يندم بعدها .. ويهجرها .. فتنتحر .

ونظر إليها « جمال » وهتف قائلا :

ــ ما هذا الذى تقولين ! من قال إنى أشفق عليها ؟!

ــ ما الذى يدفعك إذاً لخطبتها بمثل هذا الحماس !؟ إنك لم ترها سوى بضعة أيام .. فلماذا كل هذا الاندفاع ؟

ــ لأننا نوشك أن نفترق .. بعد بضع ساعات . ومن يعرف متى نلتقى بعد ذلك ؟.

ــ أتظنك لو لم ترها ساعة مرورنا بالبركان وقد كشف الهواء عن وجهها .. أكنت مقدماً على خطبتها الآن ؟!

وأجاب « جمال » مؤكداً :

ــ طبعاً .. إنى أعرف مشاعرى جيداً !

وأطرقت « منى » برهة .. وبدا عليها التفكير .

هذه فرصة العمر قد أتاحها القدر لنادية .. هذا المخلوق الذى لا يعيبه شىء يتقدم لخطبتها .. تدفعه أحاسيسه لكى يرفعها من هوة يأسها .. إن القدر لم

يقذف إليها بأنيس رحلة . ولكن بشريك عمر !

ترى ماذا سيكون رأى « نادية » ؟! أتراها ، ستشكر القدر على منحته .. وتقنع نفسها بهبته ؟! أم ستظل فى عنادها .. متعلقة بخيوط واهية .. من الأوهام .. والأشباح .. والسراب الكاذب !!

ونظر « جمال » إلى « منى » وعاد يتساءل :

ـــ ما رأيك يا منى ؟!

ـــ رأيى .. رأيى ؟!!

ورفعت رأسها وسألته فجأة :

ـــ ولماذا لا تسألها هى ؟! ما قيمة رأيى أنا فى موضوع يخصها وحدها !

ـــ أنت أقرب الناس إليها .. وأدرى الناس بها .. ماذا تظنين سيكون رأيها ؟!

وبدت على « منى » الحيرة وصمتت برهة ثم أجابت :

ـــ يبدو لى أنك أدرى منى بموقعك من نفسها !!

ـــ لست واثقاً منه .. أو على الأصح لا أستطيع أن أعرفه بالتحديد .. إنها تقبل علىّ .. وتعاملنى برفق .. ورقة .. وتشعرنى بثقتها فىّ وترحيبها بصداقتى .

ـــ فقط ؟!

ـــ أظن هذا .

ـــ وأنت ؟! ما هو موقعها فى نفسك ؟!

ـــ أكثر كثيراً .. إنى يا منى .. باختصار .. أحبها .

ـــ وهل تحس هى بذلك ؟!

ـــ لا أعلم .

ـــ ألم تحاول أن تشعرها ؟

ـــ لم أدر كيف .. لم تمنحنى فرصة واحدة لذلك . بالرغم من جلستنا معاً .. حتى الساعات التى جلسناها سوياً على ظهر السفينة .. والليل ..

والقمر .. والنسيم .. والموج . وما هيأته حولنا كل عناصر الشاعرية والحب .. لم تستطع أن تخرج من شفتى كلمة حب .. كنا نتكلم فى السياسة والوطنية والأدب والفلسفة .. وفى كل شىء عدا ذلك الشىء الذى أحس لها به فى صدرى .

وصمت « جمال » .. ونظرت إليه « منى » متسائلة :

ـــ وماذا أستطيع أنا أن أفعل ؟!

ـــ تستطيعين أن تفعلى شيئاً كثيراً ، تستطيعين أن تدركى مدى استعدادها لقبول مطلبى .. إنك تعرفين مشاعرها جيداً وهى لاشك حدثتك عنى .. فما رأيك ؟!

وأحست « منى » بالحرج . وترددت برهة قبل أن تقول :

ـــ رأيى .. إنى فى الواقع لا أعرف خبايا صدرها .. وإن كنت أحس أن بها ميلا إليك .

ـــ ميلا من أى نوع ؟!

ـــ ليس شيئا أكثر من ذلك الذى تشعر به .. صداقة .. وود .

ـــ ولا شىء أكثر من ذلك ؟!

ـــ لست أدرى .

وبدت خيبة الأمل على وجه « جمال » .. ولكنه مالبث حتى هز كتفيه قائلا :

ـــ على أية حال .. لا أظن ذلك يعنى أنها ترفض .

ولم تعرف « منى » كيف تجيب .. إنها لم تستطع أن تحدد لنفسها ، ماذا يمكن أن يكون رأى نادية فى عرضه .

ولم يطل الصمت بجمال حتى سألها فى رجاء :

ـــ هل تستطيعين أن تسأليها ؟! أعنى أن تجسى نبضها ؟!

وأطرقت « منى » .. ومرة أخرى بدت عليها الحيرة . لقد كانت تحس فى قرارة نفسها أن « نادية » سترفض .. ولكنها كانت تحب أن تسوق إليها

الفرصة .. لتعرف أن هناك من يحبها .. وأنه على استعداد لخطبتها .. وأن ذلك التشويه الموهوم فى وجهها .. لا أثر له .

ومن أجل ذلك كانت تحب أن يتقدم إليها « جمال » بنفسه لأنها كانت تعلم أن « نادية » قد لا تأخذ عرضها مأخذ الجد .. بل ستظن حديثها من بنات أوهامها ومبتكرات أفكارها .

ولكنها كانت تعرف أيضاً .. أن « نادية » ستعتقد أن « جمال » سيتقدم لخطبتها .. لأنه لا يعرف سوى شكلها الظاهر .. وأنه لو عرف ما تحت الإيشارب .. لانصرف عنها .. ولما فكر فى التقدم إليها .

ومن غير المعقول أن ينبئها « جمال » .. أنه يعرف أن بعنقها آثار حريق ، وأنه يحبها رغم ذلك .

إذاً فعليها أن تتركه يتقدم إليها .. لتتأكد أن المسألة حقيقة واقعة .. وأنها ليست من تأليف « منى » .

وعلى « منى » بعد ذلك ، أن تنبئها أنه يعرف الحقيقة .. وأنه رآها بلا إيشارب ، وأنه يحبها رغم ذلك .

كل هذه الفروض .. قد افترضتها « منى » .. على أساس استبعاد الوهم المعلق فى رأس « نادية » .. والسراب الكاذب الذى يلوح أمامها .

وقال « جمال » يستحث « منى » ويخرجها من أفكارها :

— لماذا لا تجيبين ؟! أتستطيعين أن تجسى نبضها ؟!

— إنى .. إنى أفضل .. أن تتحدث إليها بنفسك .. إن ذلك أفضل كثيراً .

— ولكن .. أخشى .. أن ..

— تخشى ماذا ؟!

— أعنى .. ربما كان فى قلبها .. إنسان .. آخر!

وعادت « منى » تطرق .. وأردف جمال يقول :

— وأنت طبعاً . تستطيعين أن تعرفى ؟!

ورفعت « منى » رأسها .. وقالت فى صوت خافت :

ـــ أجل .. إن فى قلبها شيئاً .. ولكنه ليس إنساناً .. إنه وهم .. ولذلك أسألك أنت أن تتقدم إليها ، فلعلك تقضى عليه .. لعل واقعك يقهر أحلامها .. تقدّم .. وليفعل الله ما يشاء .

وقبل أن تستدير « منى » لتنصرف من الحجرة .. عادت تقول مؤكدة :

ـــ ولكن أرجوك قبل أن تقدم على أى شىء ، أن تتأكد من حقيقة مشاعرك .. تأكد من أنها ليست شفقة .. لأنى أكره أن أعرض « نادية » لمصير بطلة زفيج ؟!

ـــ قلت لك إنى أعرف مشاعرى جيداً .

ـــ إذاً هيا بنا .. إنى ألمح أبنية الميناء تقترب .. هيا بنا نخرج الحقائب .. إن أمامنا مشكلات كثيرة حتى نصل إلى « جاب ».لقد وفر عمى سليمان علينا كل هذه المتاعب فى مصر .

ـــ وأنا هنا سأحل محل عملك سليمان .. دعى لى كل شىء .

وكانت السفينة قد أخذت تتهادى داخل الميناء حتى توقفت على الرصيف .. وتعالت من أسفل صيحات رجال الميناء والحمالين . وصعد البوليس الفرنسى .. وجلس مع رجال السفينة يفحص الأوراق .. ووقفت « نادية ومنى » مع أمهما يفحصان الوجوه المتراصة على الرصيف .. وكان يبدو على وجه الأم سيماء الحزن والأسى .. وهى تشعر بوحدتها .. وتتخيل بين آونة وأخرى أن فاضل سيقبل من ورائها لينبئها أن الجوازات قد ختمت وأنهم يستطيعون النزول .. وتتلفت حولها فلا تجد سوى ابنتيها تقفان متطلعتين إلى الرصيف كأنهما تتوقعان أحداً يلقاهما كما يحدث لبقية المسافرين .

وأخيراً أقبل « جمال » يهتف بهن قائلا :

ـــ هيا بنا .. لقد انتهى كل شىء .

وأخذوا يهبطون السلم المعلق بين السفينة والرصيف ، وقد تعالى الضجيج ،

من حولهم ، واشتد الصياح ، وأقبل عليهم أصحاب عربات الأجرة والحمالون وهم يتبادلون الصياح والسباب .

وقال « جمال » ، وهو يدفعهم بيده :

ــ لابد أن نحذر هؤلاء الأفاقين إنهم شر رجال الموانى .

ووقف الأربعة مرة أخرى تحت سقيفة الجمرك .. ورصت الحقائب على منصة طويلة .. و لم يطل بهم الأمر حتى كانت إحدى عربات الأجرة تحملهم خارج الميناء وقال « جمال » للسائق :

ــ إلى القنصلية المصرية .

واعترضت الأم قائلة :

ــ لماذا لا نذهب إلى المحطة رأساً .

ــ إن لى صلة بالقنصل .. ويمكنه أن يعاوننا فى إبدال العملة بالسعر الرسمى .. ونستطيع كذلك أن نعرف مواعيد القطارات بدل أن نذهب لننتظر فى المحطة .

وهزت الأم رأسها قائلة :

ــ كما تشاءون .

ووقفت العربة بعد فترة أمام القنصلية المصرية ، وكان المطر ما زال يتساقط بشدة . والمارة يعدون فى عجلة حاملين المظلات مرتدين معاطف المشمع . وهزت « نادية » رأسها متعجبة :

ــ لم أتصوّر قط أننا سنقابل فجأة يمثل هذا المطر والبرد .

ثم نظرت إلى « منى » ، وقد أحست أنها تنتفض .. وتساءلت فى قلق :

ــ هل تشعرين بالبرد يا منى ؟! أتأخذين سترتى ؟!

ــ لا .. لا .. إنى أشعر بانتعاش فى هذا الجو .

وكان « جمال » قد صعد إلى القنصلية ، وبعد لحظات أقبل يناديهم :

ــ تفضلوا .. إن القنصل يصر على أن نشرب فنجاناً من القهوة .

ودخل الثلاثة يتبعون « جمال » إلى داخل القنصلية ، وقال « جمال » للسائق :

ـــ لن نغيب أكثر من خمس دقائق .

ورحب القنصل بهم .. وكان شاباً وسيما لطيفاً .. وسألهم أن يصرفوا العربة لأن موعد القطار لم يحن بعد .. وأصرّ على أن يوصلهم بعربته ، وأكد لهم أنه سيقوم بكل إجراءات السفر وتغيير العملة .

وجرى الحديث عاماً عن الجو وعن السياسة .. وقال القنصل وهو يهز رأسه مؤكداً :

ـــ إن صفقة الأسلحة .. أطارت صوابهم .. إنهم يشيعون هنا أن مصر قد أصبحت دولة شيوعية .

وأجاب جمال :

ـــ ليشيعوا ما يشاءون . المهم أننا قد أصبحنا نملك السلاح .

وقالت نادية :

ـــ هل سمعتم عن الوثيقة الفرنسية التى كشفها « الرئيس جمال عبد الناصر ، والتى توضح كميات الأسلحة التى سلموها لإسرائيل .. ماذا يقولون عنها هنا ؟!

ـــ الشعب هنا لا يهمه إلا الضرائب التى تفرض عليه .. أما فيما عدا ذلك فلا يهمه شيء .. والساسة .. يكرهوننا لأننا نحارب الاستعمار .. إنهم يكرهون تأييدنا للجزائريين ومساعدتنا فى ثورتهم ضد الفرنسيين .

ولم يرق الحديث منى . ونظرت إلى الساعة فى قلق وقالت :

ـــ أظن الوقت قد حان للرحيل ؟

ونهض « جمال » قائلا :

ـــ أجل .. هيا بنا .

وحملتهم عربة القنصل إلى المحطة ، وكانت « منى » تحس بقلق جمال وهو يجد

أن فرصته الوحيدة قد باتت معلقة برحلة القطار .

وقالت الأم وهم يغادرون العربة :

ـــ سنأخذ القطار الذاهب إلى « جرينويل » وسننزل فى « فين » ثم نأخذ من هناك القطار المتجه إلى « جاب » .

وأجاب جمال :

ـــ سآخذ معكم نفس القطار ، وسأواصل السفر به إلى جنيف .. سيغادر القطار مرسيليا فى الساعة السابعة وسيصل إلى « فين » حوالى العاشرة ؟ وسيتحرك القطار المتجه إلى « جاب » فى العاشرة والنصف .. فلن يطول انتظاركم فى محطة « فين » .

ووصلوا إلى القطار .. وكانت المحطة على اتساعها قد امتلأت أرصفتها بالقطارات وقالت « منى » على سبيل المزاح :

ـــ خذ بالك .. حتى لا تذهب بنا إلى باريس ؟

وأجاب جمال ضاحكا : ـــ يا ليت !

وأخيراً استقر المقام بهم فى مقاعد القطار .. وتعمدت « منى » أن تجلس بجوار أمها حتى تمنح « جمال » فرصة الجلوس بجوار « نادية » .

وتحرك القطار .. واتكأت الأم بظهرها إلى مسند مقعدها .. وأغمضت عينيها ، وقد بدا عليها التعب والإرهاق .

وألقت « منى » ببصرها من النافذة . وكان ضوء النهار ما زال منتشراً .. وقد كف المطر عن التساقط .. وانكمشت السحب .. مفسحة لأشعة الشمس التى أخذت تتسلل لتلقى ضوءها الأحمر الخافت على قمم الشجر وأعالى البيوت .

وبدت الأسقف المنحدرة لامعة .. وقد أخذت مياه المطر تتساقط من جوانبها .. وبدت تربة الطريق بجوار شريط سكة الحديد حمراء قانية .. كأن ترابها قد اختلط بالدماء .

وأسندت « منى » رأسها إلى زجاج النافذة .. وأخذت ترقب المرئيات تتتابع

على النافذة .. وأحس « جمال » أن الجو قد خلا له .. وأصابه الارتباك .. وهو يشعر أنه قد بات يواجه نادية وحده .. ولم يعرف .. من أين يبدأ ، ولا كيف .

وكان لابد له أن يبدأ بشيء عام فقال :

ـــ بعد برهة سنبدأ الصعود .. وستختفى هذه السهول ، وتبدو لنا المساقط الجبلية الرائعة .. وقد كستها الخضرة وهبطت منها شلالات المياه .

ـــ ليت الضوء ينتظر حتى نستمتع بمشاهداتها .

ـــ طبعاً سينتظر الضوء .. إن الشمس لن تغيب قبل الساعة الثامنة ، وكلها نصف ساعة وندخل فى المنطقة الجبلية ؛ إن أجمل ما فيها .. القمم البيض تعلوها الثلوج .

ـــ أجل .. إنها أكثر ما يعلق بذهنى من رحلتنا الأولى إلى « جابب » .

وأحس « جمال » كأن دورات عجل القطار .. تقطع من فرصته .. وأنه يجب عليه أن يبدأ .. وكره من نفسه هذا الارتباك .. أمام الصبية الهادئة المعصوبة الرأس .

وقال وهو يلم بأطراف ذكائه ويرمقها بطرف عينيه وهى تحدق من النافذة :

ـــ ستكون رحلتى هذه أكثر رحلاتى رسوخاً فى نفسى .

وأحست « نادية » بقوله نوعاً من المجاملة .. ولم تعرف كيف تجيب فقالت ببساطة :

ـــ لقد كانت رحلة لطيفة .

ـــ كان ألطف ما فيها لقائى بك .

ـــ متشكرة .

ـــ إنى أعنى ما أقول .. لقد أحسست عندما لقيتك أنى لقيت شيئاً كنت أفتقده .

وحارت « نادية » .. فيما يقصد إليه « جمال » .. أهى مجاملة أخرى .. أم تراه يقصد من ورائها شيئاً ؟! ولم تجد أمامها إلا أن تفترض حسن النية .. وقالت

ترد المجاملة :

ـــ إنك فى الواقع .. هيأت لنا صحبة لطيفة .. ولسنا ندرى كيف كان يمكن أن تكون الرحلة .. لو لم نقابلك !! إن « منى » قالت عنك فى أول الأمر إنك تصلح أنيساً لرحلة ، ولكنى وجدتك تصلح صديقاً دائماً .

وأحس « جمال » أن « نادية » تدفعه فى الطريق الصحيح ، فصمم أن يتخذ فيه خطوة طويلة .. فقال وهو يحوّل وجهه إلى النافذة حيث أخذت تحدق ببصرها :

ـــ ليت معرفتنا تدوم حقاً ؟!

ـــ ولِمَ لا !! إنى سأكتب إليك .

ـــ أقصد دواماً أقوى من الكتابة .

ـــ عندما تتاح الفرصة لأحدنا .. فلا أرى هناك شكا فى أننا سنتزاور .. إننا نرحب بك دائماً فى « جاب » .

وصمت « جمال » .. ثم هتف قائلا :

ـــ نادية !

وأحست « نادية » من لهجته .. بدقة خطر .. كانت تحس أنه يوشك أن يقول شيئاً أكثر من مجرد مجاملة .. ولم يكذب إحساسها . وسرعان ما أعقب « جمال » هتافه بقوله :

ـــ نادية .. إنى أحس أنك لست مجرد صديقة سفر .. ولا أنيسة رحلة .. إنى أحس بك أكثر من هذا .. أحس أنك غدوت شيئاً لا غنى لى عنه .. إنى أشعر أن هناك رباطاً خفيّاً يشد أحدنا إلى الآخر .

وأحست « نادية » بارتباك شديد ، وألجم لسانها ، وجمدت شفتاها .. كانت تجد « جمال » قد اندفع فى اعترافه بحبه ، ولم تجد فى نفسها أى استعداد لقبول اعترافه أو للرد عليه .. ولم تستطع أن تفعل أكثر من الاستمرار فى التحديق من النافذة .

واستمر « جمال » يقول :

ـــ إنى لا أعرف كيف أشرح ما أحسه لك ولا أدرى كيف أصف لك قيمتك عندى .. ولكن كل ما أستطيع أن أفعله هو أن أعرض عليك نفسى .. وحياتى .. ومستقبلى .. أنا لا أريد أن أمتدح نفسى .. ولكننى أعتقد أنى سأكون زوجاً طيباً .. لك أنت ..

وأحست « نادية » برجفة . وبدا لها العرض .. مفاجأة ضخمة لم تخطر لها ببال .. لقد تحوّلت ظنون « منى » إلى حقيقة واقعة ، إنه يطلب زواجها بمنتهى الإخلاص والحرارة .

وفجأة مدت يدها إلى عنقها ، وتحسست أصابعها المتشنجة جلد عنقها من فوق الإيشارب .

إنه يطلبها باعتبار الوجه البادى له .. إنه لا يعرف حقيقة ما وراء هذا الحجاب .. من تشويه .

إنها خدعته وغررت به .. يجب أن تذكر له الحقيقة .. يجب أن تنتزع عن وجهها هذا الحجاب .

ولكن لماذا تفعل ؟ هل هى تقبل زواجه ؟!

وأحست بالرد الأكيد ينبع من صدرها : لا .. لا ..

إنها لا تريد الزواج .. لا تريد أن تقطع بيدها حبل الأوهام التى تتعلق بها .

حقيقة إنها حبال من الوهم .. تعلقها بآمال من السراب ، ولكنها مع ذلك .. لا تريد أن تقطعها .

إذاً فأى مبرر لأن تقول له .. إنها مشوّهة ؟!

يكفى أن تعتذر برقة .. وينتهى الموضوع .

ورفعت يدها عن عنقها .. وهمت بالرد .. ولكن قبل أن تنطق كلمة .. سمعت جمال يقول بلهجة ملؤها الحنان :

ـــ لا يهم هذا يا نادية .. إنى أحبك كما أنت .

وذهلت نادية ونظرت إليه فى ارتياع وهى تهتف :

— كما أنا ؟ .. هل تعرف ؟

— أجل .. لقد انزاح الإيشارب عن رأسك عندما غفوت على المقعد ونحن نمر بالبركان فأعدته إلى رأسك .

— بعد أن رأيت الحرق ؟

— أجل .. و لم أحس بأى فارق بينك وأنت بالإيشارب وأنت بدونه .

— حقا ؟!

— أجل .. لقد صممت منذ ذاك الوقت أن أخطبك .

— شفقة بى ؟!

— أبداً .. إنى أحبك يا نادية .

وأطرقت « نادية » ثم أسندت جبينها إلى كفها .

وهتف جمال متسائلا : — ما رأيك يا نادية ؟! أجيبى !

ورفعت « نادية » رأسها وقد ترقرقت دمعتان فى عينيها ، وهى تتطلع إلى الوجه الذى يرقبها فى لهفة :

— إنى آسفة .. لا أستطيع أن أرتبط بأحد .. الآن .

— وبعد الآن ؟!

— من يدرى .. ولكن أؤكد أنك ستكون أول من ألجأ إليه عندما أفكر فى الارتباط .

وعادت تحدق من النافذة .. وأخذت مرتفعات « الألب » تظهر .. بسفوحها الخضر .. وهاماتها التى يعلوها البياض ومساقطها التى تنحدر منها المياه .

ونظرت « منى » إلى « جمال » وقد أغمض عينيه وبدا الأسى فى ملامحه .

لقد كانت تعرف النتيجة سلفاً . كانت تعرف مدى تسلط الوهم الذى يحل قلب « نادية » ومدى قدرته على هزيمة كل حقيقة .

(٢١)

لا ندم ...

وصل القطار إلى بلدة « فين » الواقعة على مفترق الطريق المتجه غرباً إلى جاب وشمالا إلى « جرينوبل » ثم جنيف .. وكانت الساعة قد جاوزت العاشرة والنصف ، والمحطة قد بدت خالية إلا من بضعة حمالين ، وناظر المحطة بمنظاره السميك ، ووجهه الأحمر المنتفخ ، وجسده الأكرش المترهل .

وكانت برودة الليل قد اشتدت .. والضباب قد تكاثف ، وبدت مصابيح المحطة المتناثرة وقد أحيطت بهالة بيضاء من ذرّات الضباب ، وبقايا المطر تتساقط من حواف الأسقف فى قطرات ثقيلة تقرع أرض المحطة فى طرقات منتظمة .

وفتح « جمال » النافذة ليدفع بالحقائب إلى أحد الحمالين الذى وقف بجوار القطار يفرك يديه وينفخ الضباب من منخريه ، وصاح به « جمال » وهو يناوله إحدى الحقائب :

— إلى القطار الذاهب إلى « جاب » .

وأجاب الحمّال وهو يضع الحقيبة بجوار قدميه :

— سيحضر بعد نصف ساعة .. لقد تأخر قطاركم .. ولكن القطار التالى سيتأخر أكثر .

وأجابت « منى » :

— ونصف ساعة محتملة .. كان يمكن أن ننتظر أكثر من ذلك .

وأحست الأم بلفحة البرد التى هبت من النافذة فصاحت بمنى :

— أخرجى الجاكتة الصوف من حقيبتك .. نحن لا نعرف متى يحضر القطار .

وألقت « منى » نظرة سريعة على الحقائب فوجدت حقيبتها فى يد « جمال » يوشك أن يناولها للحمال فهتفت به :

ــ لحظة واحدة حتى أخرج منها الجاكت .

وتناولت « نادية » الحقيبة من « جمال » قائلة :

ــ هاتها .. وإلا قلبت « منى » كل ما بها .. أنا أعرف أين وضعت الجاكت وسأخرجها فى ثانية .

وفتحت « نادية » الحقيبة ومدت يدها وأخرجت الجاكت . فتناولتها « منى » ودفعت ذراعيها فى أكمامها وضمتها إلى صدرها ثم دفعت برأسها من النافذة وهى تقول :

ــ ليس الجو يمثل هذه البرودة التى تدعونها .. إنه محتمل جداً .. ماذا تقولون إذن عندما يقبل علينا الشتاء الحقيقى فى « جاب » .. هل تذكرين يا نادية ؟!

وجذبتها « نادية » من ذراعها وهى تتجه نحو الباب قائلة فى عجلة :

ــ هيا بنا .. ليس هذا وقت ذكريات .. إن القطار أوشك على المسير .

وقال « جمال » للحمال وهو يسلمه الحقيبة الأخيرة من حقائب الأسرة :

ــ على أى رصيف سيقف للقطار ؟

وصاح الحمّال :

ــ نفس الرصيف .

ــ انتظرنى إذاً .. حتى آتى إليك .

ــ وبقية الحقائب ؟!

ــ ستبقى فى القطار .. لأنى مستمر حتى جنيف .

وأسرع « جمال » يهبط من القطار وراء « نادية » .. وبعد أن منح الحمال أجره ، وقف يودع الأسرة .. وقد أخذ يرمق « نادية » فى حنين وأسى .

وصاحت « منى » تستحثه على العودة إلى القطار :

ــ أسرع إلى القطار .. وإلا سار وتركك .

ـــ أتخشين أن أبقى معك ؟!

ـــ أبداً .. إنى أخشى أن يسير بحقائبك .. ليتك تجىء معنا .

ـــ لو كان لدىّ فسحة من الوقت ، لصحبتكن إلى « جاب » .

وقالت الأم :

ـــ إذن عدنا أن تزورنا عندما يسمح لك وقتك .. إننا لن ننسى جمائلك .

ـــ العفو يا مدام .. إنى لم أفعل شيئاً .. لقد جعلتنى أشعر أنى واحد من أسرتكن .

وكانت « نادية » صامتة شاردة ، وعاد « جمال » يرمقها بنظراته اللهفى قائلا :

ـــ سأحاول أن أعود إليكن .

ثم أخفض من نبراته وقال بصوت هامس لا تكاد تسمعه سوى نادية :

ـــ إذا لم تضايق زيارتى نادية !

وهزت « نادية » رأسها كأنها تفيق من غيبوبة وأجابت :

ـــ إنى أرحب دائماً بزيارتك .. وسأنتظرك دائماً ،

وأجاب « جمال » بنفس الطريقة الهامسة :

ـــ شىء فى داخلى يؤكد لى أنى سأراك ثانية .. أنا لا أصدق أن هذا يمكن أن يكون اللقاء الأوّل والأخير .. لقد تركت فى نفسى أثراً عميقاً .

وآذن القطار بالمسير ، فشد « جمال » على أيديهن ثم أسرع إلى القطار .

ووقف « جمال » فى نافذته يلوّح بيده .. وانساب القطار ببطء من المحطة .. ثم اندفع مسرعاً ليلقى بنفسه فى ظلمات الليل والضباب .

وأخذت « منى » ترقب القطار وهو يختفى ثم هزت كتفيها وهمست لنادية :

ـــ كأنى به وميض أمل قد ابتلعته الظلمات .. لست أدرى لماذا تركته ينساب منك ؟

وهزت « نادية » رأسها وأجابت فى هدوء :

ـــ أنا أيضاً لست أدرى .

وصمتت برهة ثم أردفت قائلة :

ـــ أنا لا أدرى إلا أنى فعلت ما يريحنى .. ولست أشعر بندم على فعله .

ـــ قد تشعرين بالندم بعد ذلك .

ـــ من يدرى ؟ .. إننا لا نستطيع أن نقيد أفعالنا .. باحتمالات الندم .. يكفى أن نفعل ما يريحنا الآن .

وكانت « الأم » قد اتجهت إلى مظلة بجوار حجرة ناظر المحطة وجلست على مقعد خشبى طويل أسفلها .. وصاحت تنادى ابنتيها :

ـــ اجلسا .. فما زال أمامنا نصف ساعة انتظاراً حتى يأتى قطار « جاب » .

وقالت « منى » وهى تتجه مع أختها إلى المظلة :

ـــ لست أدرى ما الذى لم يعجبك فيه .. إنه حقيقة مخلوق ممتاز .. رغم ما يبدو منه من خفة .. توهم الناس بأنه .. كما وصفته فى أول لقاء ـــ إنسان هايف .

ـــ لست أظنه كما وصفته .. إنه خير بكثير .

ـــ ألم يترك فى نفسك أثراً ؟!

ـــ أعتقد أنه ترك .

ـــ إلى أى حد ؟!

وترددت « نادية » برهة قبل أن تقول :

ـــ إلى أى حد ؟ .. لست أدرى .. ولكنى أحس بأنه يذكرنى .. بصبرى .

وقالت منى :

ـــ صبرى ما زال تلميذاً .

ـــ أنا لا أقارن بين مركزيهما ، وإنما أقارن بين أثر كل منهما فى نفسى .

ـــ ولكن جمال .. يستطيع أن يتزوجك .. وأن يكوّن لك بيتاً .

ـــ ومن قال إنى أريد بيتاً ؟!

ــ ماذا تريدين إذاً ! . هل تظلين قابعة فى « جاب » ؟

وجلست « نادية » بجوار أمها وهى تجيب قائلة :

ــ دعينا الآن من هذا .. المهم أن نصل إلى « جاب » .

ثم وجهت حديثها إلى الأم متسائلة :

ــ ترى هل سنجد أحداً ينتظرنا فى محطة « جاب » ؟!

وأجابت الأم :

ــ لقد أرسل عمك سليمان تلغرافاً إلى أمى .. ولاشك أنها سترسل من ينتظرنا ، وعلى أية حال نحن نستطيع أن نأخذ إحدى عربات الأجرة ، ونفاجئها بوصولنا .

وتساءلت « منى » وهى تهز ركبتيها :

ــ ماذا ننوى أن نفعل فى جاب !؟

والتفتت الأم إلى « منى » مستفسرة :

ــ ماذا ننوى أن نفعل ؟ نعيش .

ــ أعنى كيف سنعيش ؟!

ــ كما يعيش الناس فى « جاب » .. لدينا البيت والمزرعة ، وأستطيع أنا أن أعمل فى المدرسة .

وقاطعتها « نادية » قائلة :

ــ بل أنا التى سأعمل .

ورفعت « منى » كتفيها قائلة :

ــ اعملا أنتما الاثنتان .. أما أنا فلا أريد أن أعمل شيئاً . سأتسلق الجبل .. وآكل الكريز ، وأجلس على شاطئ البحيرة .. حتى يرسل عصام فى طلبى .

وقالت الأم :

ــ افعلى ما يحلو لك . ولكن احذرى البرد ، والإجهاد . إنى لا أريد مزيداً من المتاعب .

وكأنما أعطى إنذار « الأم » إيحاء « لمنى » بصدرها المريض ، فسعلت بضع سعلات قصار .

وبدا القلق على وجه الأم .. ونظرت « نادية » إلى « منى » فاحصة .. لترى هل تتصنع السعال .. أم أنها تسعل حقيقة ، وتساءلت فى خوف :

ــ ماذا بك ؟

وردت « منى » ، وهى تزدرد ريقها :

ــ لا شىء .

وقالت الأم محذرة :

ــ ارفعى الياقة حول عنقك .. وعندما نصل إلى البيت لا تغادرى الفراش .. حتى يراك الطبيب .

وأدارت « منى » رأسها فى دهشة ، وقالت فى غيظ :

ــ ما هذا ؟! أمحرَّم علىّ أن أسعل ؟!

وقالت الأم مترفقة :

ــ نحن نخشى عليك يا منى .. لا تدرين كم يزعجنى صوت السعال الذى سمعته منك .. إنه يذكرنى بأيام مرضك .

ــ لا تنزعجى .. لن أسعل بعد الآن .

وسادت فترة صمت انطلقت كل منهن بأفكارها فى ميدان أوهامها .

الأم فى ذكرياتها الأليمة عن الأب .. ومرضه ووفاته . وخوفها من المستقبل المجهول الذى لا تبدو له سمات محددة .

و« منى » فى آمالها المزدهرة وأمانيها المورقة الناضرة .. فى الانزلاق على الجليد .. والانطلاق فى المزارع .. فى حاضرها الجميل فى « جاب » ، ومستقبلها الباهر .. فى القاهرة . تضع ذراعها فى ذراع « عصام » يعدوان إلى بيتهما الصغير .. وحديقته الأنيقة .. وتستمر فى الانطلاق لترى طفلا يحبو لتحمله بين ذراعيها ويناديها ماما .. و .. و .. أشياء كثيرة جميلة .. تزخر بها

الحياة .. ويمتلئ بها المستقبل .

و« نادية » فى خضم من اليأس يتكاثف فيه ضباب لا تبين منه سمات ولا تبدو ملامح .. خضم تبدو فيه أشباح . جمال ، وصبرى .. ومنى .. والأم .. والأب الراحل .. والعمة القاسية .. والعم الحنون الطيب ، ووراء كل هذه الأشباح التى يلفها الضباب .. يجثم شىء لا يرى ، ولا يكاد يبدو منه حتى مجرد شبح .. تقصر عن رؤيته العين ، ويعجز الذهن عن التسليم بوجوده .. ولكنه رغم ذلك كائن .. موجود .. يؤكد وجوده .. عن إيمان وثقة .. قلب يخفق بين الضلوع يستقبل إرسالاته ، ويلتقط إشاراته .

وتتجاوز « نادية » فى انطلاقة أفكارها .. كل هذه المرئيات الملموسة .. لتستقر فى سكينة على هذا شىء .. الذى لا وجود له ، ولا أحساس به ، إلا من نبضات القلب ، والذى تنكره عليها ، كل أدوات الحس ووسائل المنطق والإقناع .

وخيم على المحطة السكون .. وسادها الصمت .. إلا من طرقات أقدام ، وهمهمة ، ونحنحة .

وبدأ الثلاثة يحسسن بوطأة البرد .. فازددن تلاصقاً ، وقالت « منى » ، وهى تضع كفيها تحت ساقيها وتهز ركبتيها بطريقة عصبية :

ـــ لقد بدأت أغير رأيى .. إنى أفضل الحر الخانق .

وقبل أن يجيبها أحد .. بدت فى المحطة حركة نشاط .. ثم سمع ضجيج قطار مقبل ، وانتفض الحمّال الذى وقف واضعاً كفيه فى جيبيه ، ورأسه بين كتفيه يقول فى تكاسل :

ـــ قطار « جاب » .

وبعد لحظات كان القطار يقف على الرصيف ، وأسرعت « منى ونادية » ووراءهما الأم إلى داخله ، و لم يصعب عليهن العثور على الأماكن فقد كانت العربة شبه خالية ، وأخذ الحمّال يرص الحقائب على الأرفف .

و لم تطل وقفة القطار حتى عاد ينساب مرة أخرى بين مرتفعات « الألب » فى طريقه إلى « جاب »، وكانت الظلمات قد طوت الجبال .. فلم يعد يبدو على جانبى الطريق من معالم سوى أضواء خافتة مرتجفة لا تكاد تميز العين أبعادها .. أو دلائلها .

وأخذ النعاس يتسلل إلى جفون الثلاثة ، والتعب يرخى أعصابهن ، وبدأ التثاؤب يمضغ الكلمات والغفوة تطوى الأحاديث ، وتثاقلت الرؤوس ، وتراخت الأعناق ، وألقت بحملها على الصدور تارة ، وعلى الأكتاف تارة .

ومدت كل منهن ساقيها على المقعد أمامها .. وأخذت الأجساد تشكل أوضاعها بحيث تمنح أعضاءها أقصى ما تستطيع من الراحة .. وبعد بضع حركات قليلة .. انتهى الثلاثة إلى سكينة النوم التى لا ترى معها إلا اضطراب الصدور ، ولا تسمع فيها سوى حفيف الأنفاس .

ولا يقطع ملل السفر ويطوى ساعاته كسلطان النوم .. أو حديث الهوى .. و لم تحس المسافرات الثلاث بالطريق إلى « جاب ».. إلا بقدر غمضة عين وانتباهتها .. فقد أمسك النوم بتلابيبهن .. فلم يتركهن إلا عند وقوف القطار فى « جاب »، وضجيج المحطة .. واختلاط أصوات الركاب بالحمالين .

وحاولت « منى » أن تستسلم مرّة أخرى للنعاس .. وهى تتوهم وقفة القطار فى إحدى محطات الطريق ، ولكن « نادية » جذبتها من ذراعها قائلة ، وهى تنفض الكرى عن أجفانها :

ـــ هيا يا منى .. لقد وصلنا .

ونظرت « منى » محملقة من النافذة إلى فناء المحطة .. وهزّت رأسها وتساءلت متشككة :

ـــ وصلنا ؟! إلى أين ؟!

ـــ إلى « جاب ».. انهضى حتى ننزل حقائبنا .

وقامت « منى » وهى تتمطى وتقول فى دهشة :

— غير معقول !! إنى لم أنم أكثر من بضع دقائق .

وأجابتها « نادية » فى غيظ :

— يا غبية .. الساعة الآن الثانية عشرة والنصف.. هيا أنزلى حقيبتك.. ليس أمامنا وقت للتمطى والتثاؤب .

وكانت الأم قد أخذت تتناول الحقائب وتقذف بها من النافذة إلى أحد الحمالين ، وهى تفحص الواقفين على الرصيف وتعبر بعينيها سور المحطة باحثة عن إحدى عربات الأجرة .

ولم تكد تقذف بآخر حقيبة حتى لمحت عجوزاً أعجف يقف على باب المحطة ، وقد تدثر بمعطف رث وكبس قبعة رمادية إلى أذنه .

وهتفت الأم فى فرحة تنادى العجوز :

— بول .. بول .

ثم وجهت الحديث إلى ابنتيها مشيرة إلى الرجل :

— إنه بول .. خادم أمى .. لا شك أنه ينتظرنا .. نادى عليه يا منى .

وصاحت « منى » تنادى الرجل .. ولكن الأم أسكتتها قائلة :

— لا فائدة .. إن صممه لا شك قد ازداد .. انتظرى حتى نهبط إليه .

واتجه الثلاثة إلى باب القاطرة وهبطن إلى الرصيف ، وهرعت « منى » إلى العجوز المنكمش فى معطفه وصاحت به :

— بول ؟!

والتفت إليها الرجل فى دهشة .

وعادت « منى » تصيح به :

— بول .. ألا تعرفنى !! إنى « منى »! ألا تذكرنى ؟ لقد زرتكم مرّة وأنا صغيرة .. مع أبى وأمى وأختى ؟!

وفغر الرجل فاه وعلت وجهه أمارات التأثر والفرحة ومد ذراعيه يضم إليه « منى » وهو يهتف :

ـــ أخيراً وصلتن .. لقد كبرت جداً .. إنى لم أعرفك ، لقد ظللت أنتظركن منذ أول أمس ، وكنت أرقب كل قطار يصل إلى « جاب ».. وأعود إلى سيدتى خائب الرجاء .. أين ماما وأختك ؟!

وأشارت « منى » إلى أمها وقد وقفت بجوار الحقائب .. وقالت :

ـــ إنها هناك تنقد الحمال أجره .

ـــ حمال .. وماذا جئت أفعل ؟! مازال عندى ساعدان قويتان .. إنى أفعل كل شىء فى المزرعة .

واندفع الرجل إلى الأم صائحاً وقد اختلجت شفتاه بالبكاء :

ـــ مدام لورا .

ومدت الأم يدها .. تشد على يد العجوز قائلة فى تأثر :

ـــ كيف حالكم يا بول ؟! كيف حال ماما ؟!

ـــ إنها لا تكاد تسير .. منذ عام والروماتزم يقعدها ، ولا تكاد تبل منه إلا بضعة أسابيع فى الصيف .. ولكن الحادث قد هدّها هذا العام .. لقد هدّنا كلنا يا سيدتى . لقد كنا نحب سيدى « فاضل » كثيراً .. كنا دائماً نذكره بالخير .

وجذبت « منى » الرجل من ذراعه بعد أن أحست أنه يوشك أن يقلب المحطة إلى « محزنة ».. وقالت وهى تحمل إحدى الحقائب :

ـــ هيا يا بول .. دع الحديث الآن .. لدينا فى البيت وقت كاف .

وقال الرجل وهو يحمل بقية الحقائب ويتجه إلى الباب :

ـــ كم فرحنا لمجيئكن .. إن سيدتى الكبيرة .. ظلت تبكى طوال الليل .

فسألت « الأم » وهى تتبع الرجل :

ـــ من يعيش معها الآن يا بول ؟!.

ـــ السيدة جانيت .. لقد انتقلت للإقامة معنا بعد أن مات زوجها فى حادث الطائرة .. إنها تقيم معنا معظم العام ولا تتركنا إلا بضعة أشهر فى أول الصيف لتذهب إلى أولاد أخيها فى « جرينوبل ».

والتفتت « منى » إلى أمها متسائلة :

ـــ من تكون جانيت هذه ؟! هل رأيتها أنا ؟؟

وأجابت الأم :

ـــ إنها جانى .. ابنة ابن عم أمى .. لقد كانت صديقة الصبا وزميلة الدراسة .

وقاطعتها نادية قائلة :

ـــ جانى .. التى كنت دائماً تحكى لنا عنها .. والتى أصيب زوجها فى حادث الطائرة ؟!

ـــ أجل .. إنها هى .

وتساءلت منى :

ـــ وهل ستعيش معنا ؟

وأجابت الأم وهى تقف أمام عربة الأجرة ، وقد نادى بول سائقها :

ـــ سنرحب بها إذا أرادت البقاء معنا ؟

وقال « بول »:

ـــ لقد كانت تخدم السيدة الكبيرة ، وترعاها .. إنها سيدة كريمة لطيفة ، وقد أحببناها جميعاً .

وأجابت الأم :

ـــ وأنا أيضاً أحبها ،

وقالت نادية :

ـــ لماذا لا تبقى إذاً ؟!

وتساءلت منى :

ـــ ربما لا يسعنا البيت .

وقال بول :

ـــ إن نصف البيت خال .

وركب الثلاثة العربة .. وجلس بول بجوار السائق وهو يقول له :
— إلى « بلاش ».

وانطلقت العربة ، وكانت المدينة قد سادها السكون ، وبدت طرقاتها خالية لا أثر فيها لحياة ، والفندق المجاور للمحطة قد أطفأ أنواره ، وامتدت يد صاحبته السمينة لتغلق بابه الخشبى المطل على فناء المحطة .

واجتازت العربة الطريق المؤدى إلى الميدان ، وكانت أرض الطريق تلمع بمياه الأمطار ، وأضواء المصابيح الخافتة تنعكس مرتجفة على الأرض اللامعة ، والضباب يلف البيوت والأشجار ، وعجل العربة يصدر صفيراً وهو يطوى أرض الطريق .. و لم تكد المسافرات الثلاث يحسسن دفء العربة وراحة الجلسة حتى عاودهن استرخاء النوم ، وبدأ النعاس يثقل أجفانهن .

ولكن الخادم العجوز القابع بجوار السائق .. لم يكن قد انتهى بعد من إفراغ كل ما بصدره من ترحيب ، فعاد يطرد النوم عن أعينهن بقوله :

— ستملأن علينا البيت.. لشد ما أصبحت السيدة الكبيرة تضيق بالوحدة.. إن أعصابها باتت متوترة ، وباتت تفزع من كل شىء .

وتركته الأم يثرثر .. وأغمضت « منى » عينيها ، وأسندت « نادية » رأسها على ظهر المقعد وشردت ببصرها فى استرخاء من نافذة العربة .

واستمر العجوز فى ثرثرته قائلا :

— إن السيدة « جانيت » كانت تريد أن تأتى لتنتظركن ، ولكنها أصيبت أول أمس بنزلة برد جعلتها لا تقوى على الخروج .. لقد أعدت لكن حجرتين فى الطابق العلوى ، وهى تنام مع السيدة الكبيرة فى الطابق السفلى .. مكان حجرة الأكل القديمة لأنها لا تقوى على صعود السلم .. والشمس تسطع فى الحجرة ، وقد تشفيها من الروماتزم .

و لم يجد أحد من الثلاثة القدرة على أن يتتبع أنباء الروماتزم ، و لم يجدن ضرورة لتتبع حديث الرجل ما دام كل حديثه أخبار .. لا تتطلب رداً .. ولكن الرجل بدا

له أن يشركهن فى الحديث فتساءل قائلا :

ـــ هل تعجبكن الحجرتان المطلتان على الحديقة .. أم تفضلن الحجرة المطلة على الفناء الخلفى ؟!

ولم تكلف « منى » نفسها مشقة الرد فقد استغرقت فى سباتها ، ولم تحاول « نادية » الرد لأنها لم تكن تذكر فارقاً بين الحجرات الثلاث .. كل ما كانت تذكره هو المنظر العام للبيت بسقفه الأحمر الشديد الانحدار ، ومدخنته الخارجة من السقف ، وحجرتها ذات الشرفة التى تتسلل إليها فروع التفاح الأحمر ، ودجاج يملأ البيت ، وكرنبات ضخمة تملأ الحديقة .

وكان على الأم أن تجيب على ثرثرة العجوز فطردت عنها النوم وأجابت قائلة :

ـــ سنرى كل ذلك عندما نصل ، وعندما يأتى النهار .

ودارت العربة فى الطريق الرئيسى الذى قامت الحوانيت المغلقة على جوانبه ثم أخذت تصعد فى طريق جانبى متجه إلى أعلى الجبل بعد أن عبرت شريط سكة الحديد ، وأخذ الطريق يزداد ارتفاعاً ، والدور تختفى من جوانبه ، وقلت المصابيح المنعكسة عليه .

وقالت الأم :

ـــ لا أظن أن هناك فارقاً بين الحجرتين .

وأجاب العجوز فى ثقة :

ـــ بل هناك فارق كبير .. إن الشمس لا تقرب واجهةالبيت .. وإن الحجرة ....

وقاطعته الأم قائلة :

ـــ عندما نصل سننتقى ما نريد .

وكانت العربة تقطع الطريق .. وقد ازداد تكاثف الظلمات .. وتثاقل الضباب ، وخفت سرعة العربة .. وأخذ بول يرشد السائق بقوله :

ـــ الزم يمينك .. ولف يميناً بعد هذه الشجرة .. حذار من حفرة على جانب

الطريق بعد الشجرة .

وبعد فترة وجيزة صاح بول :

ــ هناك هدىء والزم يمينك ، ثم قف أمام هذه البوابة الخشبية .. أجل هنا .

ووقف السائق .. وقفز العجوز من جواره صائحاً :

ــ تفضلن .. أنسيتن البيت ؟! هيا بنا .

وصاح السائق :

ــ هيا أنزل معى الحقائب .

ودفع « بول » البوابة فأحدثت مفاصلها صريراً .. سمع على أثره نباح من الداخل .. وقال بول ، وهو يفرك يديه :

ــ إنه بيتر العجوز .. هل تذكرنه ؟!

ولم يجبه أحد .. فقد كان الثلاثة يرزحن تحت وطأة النعاس ، ولفحهن الصقيع ، ولسعتهن رطوبة الضباب .. فانكمشن فى ثيابهن وهن يسرن بخطوات متعثرة نحو بوابة البيت .

وكانت مياه المطر .. قد أغرقت الأرض ، وأحس الثلاثة بزلق الطريق تحت أقدامهن ، واندفع « بول » أمامهن يشق طريقه فى وحل الحديقة ، وقبل أن يطرق الباب الخشبى أضىء النور .. وسمع صوت يصيح من الداخل :

ــ من ؟!

وصاح بول :

ــ افتحى يا سيدتى .. لقد وصلن .

وفتح الباب وبدا فى الضوء شبح امرأة متوسطة العمر .. تهتف فى انفعال وتأثر :

ــ لورا !! أهلا وسهلا .. تفضلى .

ودلفت الأم من الباب ، وهى تضم المرأة فى شوق قائلة :

ــ كيف حالك يا جانى ؟!

— كيف حالك أنت ؟! لقد تأثرنا من أجلك .

— وأنا أيضاً .. أين ماما ؟!

— إنها تنتظركن فى الداخل .

وعلا صوت الجدة يصيح هاتفاً :

— لورا .. حبيبتى .. تعالى .. أين ابنتاك ؟

وأقبلت « الأم » وابنتاها على الجدة المضطجعة فى فراشها ، وأخذت الجدة تضمهن إلى صدرها ودموعها تنحدر على أخاديد وجهها ، وهى تنشج باكية .

وأخذت الجدة تتحسس وجه الأم فى حنان قائلة :

— أخيراً أراك يا « لورا »!! كنت أود أن أراكم جميعاً .. فى خير وسعادة .. ولكن الله أراد أن أضمكن إلىّ فى مصابكم .

وقالت « جانيت »، وهى تجد الإرهاق والجهد قد أخذ منهن مأخذه :

— أظنكن فى حاجة إلى العشاء .. إنى أستطيع بسرعة أن أعده لكن .

وقالت الأم :

— أنا لا أريد شيئاً .

وقالت نادية :

— ولا أنا .. لقد تناولنا طعاماً خفيفاً فى القطار .

وقالت منى :

— وأنا لا أريد شيئاً إلا أن ألقى بنفسى على أقرب فراش .. وأنام مدة أسبوع .

وصعد الثلاثة إلى حجراتهن .. وبعد برهة كانت كل منهن قد رقدت فى فراشها .

وجذبت « نادية » الأغطية على رأسها وأخرجت أنفها من تحت « الباطنية ».. وقبل أن تغمض عينيها .. تذكرت نومها فى القاهرة .. وتذكرت الشرفة التى يتسلقها الياسمين فى منشية البكرى .. والنادى .. وتكعيبات الجهنمية ، وأرض « الكروكيه » الخضراء المنبسطة .. والشبح الطويل القامة ..

العريض المنكبين .. وأحست ببعد الشقة ونأى المزار ، وأحست باليأس الجاثم يكاد يخنقها .. و لم تستطع أن توقف عبرتين انسابتا على الوسادة .. ثم استغرقت فى سباتها ...

---

(٢٢)

هاوية !!

استيقظت « نادية » لتستقبل أول صباح فى « جاب »، وكانت السحب قد انقشعت ، والشمس قد أشرقت .. وترامت على الأسقف الحمر المنحدرة المبتلة ببقايا المطر .

ووقف « نادية » وراء زجاج الشرفة ترقب من مربعاته القمم الشاهقة التى ترامت فى الأفق ، وقد غطى هاماتها بياض يكاد يختلط ببياض السحب ، وانحدرت سفوحها الخضر التى تكدست فيها الأشجار حتى حافة الوادى .

وبدت المزارع منبسطة حول الدار ، وقد تناثرت فيها أشجار الفاكة تتخللها قطاعات من الكرنب والبنجر وغيرها من الخضر ، وعلى مقربة من الدار بدت حظيرة المواشى والدواجن وقد تعالت أصواتها وأخذت تتواثب فى خفة ونشاط .

وأحست « نادية » بالحياة تدب من حولها .. وسرى إلى نفسها شعور بالنشاط وتمنت لو انطلقت تعدو إلى المزارع وتتسلق الجبال .

و لم يطل بها التفكير حتى سمعت « منى » تهتف بها وقد أقبلت من حجرتها المجاورة :

ـــ هيا بنا .

ـــ إلى أين ؟

ـــ نصعد الجبل .

ـــ الآن ؟

ـــ و لم لا ؟

ـــ غير معقول .. يجب أن نجلس مع جدتنا .. ونرتب حجرتنا .. ليس من

الذوق .. أن نترك البيت من أول لحظة .

ـــ سنجلس مع جدتنا قليلا .. ثم نستأذن منها ، ولست أجد حجراتنا تحتاج إلى ترتيب .. إنها على خير ما يرام .

ـــ من الذوق أن نبقى اليوم فى البيت ، والوقت أمامنا طويل نتسلق فيه الجبل كما نشاء .

ـــ لن يكون الجو صحواً كما هو اليوم ..هيا بنا .

وتعالى صوت الأم من الدور السفلى يصيح :

ـــ نادية .. منى .. ألن تهبطا لتتناول الإفطار ؟

وأجابت منى :

ـــ حالا يا ماما . هيا يا نادية . ارتدى بنطلونك والحقى بى .

وهبطت « منى » السلم الخشبى لتجد المنضدة العتيقة قد صفت عليها فناجين الشاى ، وبجوار كل فنجان سلطانية كبيرة مليئة باللبن وصحاف الجبن والبيض والأرغفة الطويلة البيض قد توسطت المائدة .

وسألت الأم « منى »:

ـــ أين نادية ؟!

ـــ ستبدل ملابسها وتهبط حالا .. إننا سنذهب لنصعد الجبل .

وتساءلت الأم فى دهشة :

ـــ جبل ؟

ـــ أجل يا ماما .. ماذا فى ذلك ؟!

ـــ ألا تستريحان من عناء السفر .

ـــ أنا شخصياً قد استرحت تماماً .. أما إذا كانت نادية تريد الراحة فلتسترح .

ـــ بل أنت التى يجب أن تستريحى .

وصمتت برهة وبدا عليها التفكير ثم قالت محذرة :

— اسمعي يا منى .. لا أريد هنا مناكفة .. لا أريد وجع قلب .. إنى أحذرك الشقاوة فأنت لا تتحملين الإجهاد ، ولست أرى معنى أبداً لصعود الجبل الآن .. ونحن لم نلتقط أنفاسنا من السفر بعد .

وأجابت « منى » محتجة :

— إنك لم تأتى بنا إلى هنا لتخزيننا .. وأنا لا أشعر بأى إجهاد .. كنت أصعد الجبل بسهولة وأنا طفلة صغيرة . ولم يكن شيئاً مجهداً أو مخيفاً .. فلماذا لا أصعده الآن ؟

— يا منى يا حبيبتى . إنك لم تكونى مريضة .

— وأنا لست مريضة الآن .

— أجل .. ولكنى أخشى أن تنتكسى من الإجهاد .

واقتربت « منى » من أمها ومدت يدها تعانقها فى عطف قائلة :

— يا ماما .. كفى عن هذه الوساوس إنى أنشط وأقوى من أى واحدة منكن .. وأنا أشد تحملا للتعب .. فلماذا تزعجين نفسك بى ؟!

وكانت « نادية » قد بدت فى أعلى السلم وأخذت تهبط مرتدية البنطلون والسويتر وقد شدت الإيشارب حول وجهها .

وقالت « منى » وهى تشير إلى الإيشارب :

— أتنوين الاستمرار على ارتداء الإيشارب هنا أيضاً ؟

وأجابت نادية :

— وماذا يضايقك منه ؟

— إنه يضايقك أنت .

— لقد تعوّدت عليه .

— يجب أن تتعوّدى على خلعه ، إنها فرصة لأن تخلصى نفسك من خناقه .

— إنى لا أريد أن أضايق الناس بمنظرى .

وتدخلت الأم قائلة :

— ليس بك ما ينفر الناس يا « نادية ».. وسيتعوّدون عليك كما أنت .

وبدا الضيق على نادية واحمر وجهها وأجابت :

ـ لماذا لا تتركوننى أفعل ما أحب .. أنا لا أتدخل أبداً فى شئون أحد .

وأجابت الأم فى رفق :

ـ لا تتضايقى يا حبيبتى .. افعلى ما تشائين .. وارتدى ما يحلو لك .

وجذبت « منى » مقعداً وهمت بأن تجلس أمام المائدة عندما دخلت الأم قائلة :

ـ ألن تحييا جدتكما ؟

وسار الثلاثة إلى حجرة الجدة .. وكانت العجوز قد جلست بهيكلها الضامر على مقعد ، ومدت ساقيها على بعض الوسائد وبدت عيناها غائرتين وجلدها معروقاً وقد أحاطت كتفيها بشال من الصوف الأسود .. وعلت شفتيها ابتسامة رقيقة وهى تبصر الأم وابنتيها مقبلات عليها .

وقالت وهى تضم الفتاتين إليها ضاحكة :

ـ أهلا بحفيدتى المصريتين .. لشد ما أوحشنى بعدكما .. لقد كدت أيئس من رؤيتكما .. من كان يصدق أنى سأنجب نسلا من أبناء الفراعنة ؟.. كنت أريد أن تكون إحداكما شبيهة بكليوبترة .

وأجابت « منى » متسائلة :

ـ شكلا أم موضوعاً ؟!

وضحكت الجدة قائلة :

ـ شكلا .. فقط .. فأنا أتمنى لكما عمراً طويلا وحياة سعيدة .

وقالت « منى » مستغلة الفرصة :

ـ إذن هل تسمحين لنا أن نبدأ حياتنا السعيدة بصعود الجبل ؟!

وضحكت الجدة قائلة :

ـ يا منى .. لقد سمعت مناقشتك مع أمك .. هل يسعدك حقاً صعود الجبل ؟!

— جداً .. سأصعد حتى شاطئ البحيرة .. إنى ما زلت أذكرها وأذكر البيت المقام على حافتها .. كان به إسطبل للخيول .. وكان به شجرة تفاح كبيرة .. وكان به فتاة جميلة تركب الحصان .

وهزت الجدة رأسها وبدا عليها الشرود وهى تقول :

— أجل .. كان به .. كان .. وكان .. ولكن لم يعد به الآن .. سوى قفر وخراب .. الفتاة الجميلة .. جمح بها الحصان ذات مرة .. فأوقعها من حافة الجرف المستند عليه البيت .. فسقطت فى الهاوية .. وهاجر من البيت ، وقضى من قضى ، ولم يبق فيه سوى رب البيت الذى هبط إلينا فى النهاية ليقطن بجوارنا .. يشيد مدرسة لليتامى يقضى بها بقية عمره .. إنه رجل طيب يزورنا بين آونة وأخرى .

وكانت « نادية » تنصت إلى حديث الجدة وقد شرد ذهنها فى البيت الأنيق على حافة البحيرة .. والفارسة الجميلة على ظهر الحصان .. ثم .. الحصان يجمح بها إلى حافة الجرف ويلقى بها إلى أعماق الهاوية .

وأردفت الجدة تقول وهى تتناول كوب اللبن من جانيت :

— أظنه سيزورنا اليوم .. وستسره رؤيتكن كثيراً .. طالما حدثته عن صغيرتى المصريتين ، أليس كذلك يا جانيت ؟! أظن موعد زيارته اليوم ؟!

وتساءلت جانيت :

— من ؟

— مسيو رينو :

— أجل .. أجل .. لقد لقيته أمس فى الميدان أمام المكتبة ، وسأل عنك .. وأنبأنى أنه سيزورنا اليوم :

وبدا القلق على وجه « منى » كأنما خشيت أن يحكم عليها بانتظار الرجل ، ومدت يدها تجذب « نادية » من ذراعها قائلة :

— هيا يا نادية نتناول الإفطار ، حتى نذهب إلى الجبل .

وغادرت الفتاتان حجرة الجدة إلى حجرة المائدة ، واتخذت كل منهما مجلسها على مقعدين متجاورين ، وجلست الأم وجانيت على المقعدين المواجهين ، وأقبل بول يحمل وعاء مليئاً باللبن ، وألقى عليهن تحية الصباح ، متهلل الأسارير ، ضاحك الوجه ، تتبعه امرأة بدينة قد أمسكت بيديها دجاجتين وقدمها لهن قائلا :

— ابنتى مارى .. لقد أتت للترحيب بكن .. وأصرّت على أن تذبح لكن أكبر دجاجتين لديها .. وستبقى لطهوهما .. وقد أبدت استعدادها لكى تقوم لكن بأعمال الطهو .. إذا كنتن فى حاجة إليها .

وأجابت الأم :

— أهلا يا مارى .. لماذا كل هذا التعب ؟! إننا نرحب بوجودك معنا دائماً .. ويسرنى أن تعاودى الطهو لنا .. إذا كنت لم تنسى صنع الفطائر التى كنت تصنعينها فيما مضى .

وضحكت المرأة السمينة حتى اهتزت أطرافها وأجابت :

— بل تعلمت أشياء خيراً منها .

— انتهينا إذن .. سنذوقها اليوم .

وازدردت « منى » إفطارها بسرعة وشربت اللبن ، ثم نظرت إلى « نادية » تستحثها .. وهى تنهض عن المائدة .

و لم يطل الأمر بنادية حتى تبعتها إلى الحديقة .

ونظرت « نادية » إلى زهور القرنفل الحمر النابتة فى أحد الأحواض وهتفت فى إعجاب قائلة :

— انتظرى يا « منى » حتى نقطف بعض القرنفل ونضعه فى الزهريات .

— يا نادية .. كفى تلكؤاً .. هيا بنا قبل أن يأتى مسيو رينو .. ونضطر أن

نقضى الصباح فى تحيته .

ـــ أتستطيعين مقاومة إغراء هذه القرنفلات ؟!

ـــ وأقاوم أباها .. هيا بنا وكفى شاعرية سخيفة .. إن القرنفلات لن تطير .

ـــ اسمعى يا منى .. لقد خرجنا للتنزه ، وليس للسباق فى الجبل .. فدعينا نتمتع .

وقطفت « نادية » إحدى الزهور .. ورفعتها إلى أنفها فى نشوة وإعجاب قائلة :

ـــ هائلة .. يجب أن نرفع هذه الزهور الصناعية التى كدّسوها فى الزهريات .. وتراكمت على أوراقها الأتربة .

ـــ عندما نعود افعلى كل هذا .

ـــ أجل .. أجل .. سأفعل .. وسأغير كل نظام البيت ..

سأرفع هذه الستائر العتيقة التى تملأ البيت كآبة ووحشة .

وأجابت « منى » وهى تعبر البوابة الخشبية :

ـــ إنها تناسب كل ما فى البيت . لا تنسى أنه بيت جدتنا ، وهو بستائره وأثاثه الثقيل .. وزهوره الورقية المكدسة فى الزهريات مناسب جداً لها .

ـــ ولكن يجب أن نغير كل هذا .

ـــ لا يهمنى كثيراً .. إننا لن نعيش فيه إلى الأبد .. إننا سنعود إلى مصر .

وهزت « نادية » رأسها فى شك .. وأجابت :

ـــ من يدرى !!

ـــ عن نفسى .. أنا أدرى .. فى الصيف القادم سأكون فى مصر مع عصام .. سيكون لى بيت .. وعربة .. وأشياء أخرى .. كثيرة .

ومدت « نادية » يدها تحكم رباط الإيشارب حوله عنقها وأجابت ، وقد شرد فكرها :

ـــ إن شاء الله .

— وأنت أيضاً ستعودين ؟

وعادت « نادية » تهز رأسها ، وهى تجيب فى صوت خافت :

— لا أظن .. إن من الخير أن أوطن النفس على العيش هنا ، ولا أظن المسألة ستكون بمثل ما توقعت من مشقة .

وعبرت الفتاتان حقل « الكرنب » الذى تكدّست فيه الكرنبات الرمادية الخضر ، وقد تلألأت حبات المطر والندى على سطحها المنتفخ . ووصلتا إلى الطريق . ونظرت « نادية » إلى المرتقى المتجه إلى الجبل وتساءلت .

— أتظنيننا سنعرف الطريق إلى البحيرة ؟

— سنظل صاعدين إلى أعلى حتى نصل .

— ألا تخشين أن نضل ؟!

— إذا ضللنا نعود ، ولا أظننا ، سنضل الطريق إلى البيت .

وبدأت الفتاتان فى الصعود .. سائرتين على الطريق .

وكان الانحدار يسيراً فى أول الأمر .. ولكنه أخذ يزداد كلما ابتعدتا عن السهل ، وأخذت الأشجار تتكاثف حولهما ، والمياه تنحدر من أخاديد السفح متخذة طريقها بين الحصى والطمى والصخر .. تسير تارة فى هدوء ، ثم تنحدر تارة أخرى فى عنف وصخب .. وفى هدوئها وصخبها .. تملأ النفس إحساساً بالحياة والنضرة والأمل .

وطال بهما السير والطريق لا ينتهى ، وكلما أحست إحداهما بطول الطريق ، وتعجلت الوصول رفعت بصرها إلى أعلى .. فإذا بالقمة ما زالت بعيدة .. بعيدة .

وأخذ الطريق ينحنى يمنة ، ثم يسرة ، متبعا المسلك السهل ، متجنباً الانحدار الحاد .

ونظرت « منى » إلى الطريق فى ضيق وهتفت « بنادية » :

— اسمعى يا نادية .. إذا اتبعنا هذا الطريق المزعج الملتوى فلن نصل فى يومنا .

ـــ ماذا تريدين إذن ؟!

ـــ هيا نشق طريقنا إلى أعلى بين الأشجار والصخور .. إننا سنوفر نصف المسافة .

ـــ ولكن الصعود سيكون مرهقاً !

ـــ لا تكونى كالعجائز .. إنك تخشين من كل شيء .

ـــ يا منى .. أنا لا أخشى على نفسى ولكن أخشى عليك .

ـــ اسمعى .. إياك أن تكررى ما قالته أمك اليوم .. لقد ضقت بهذه الوساوس .. إنكما أنتما اللتان ستجلبان إلىّ المرض .. إنى أسلم من أية واحدة منكما .. وسأريك كيف أستطيع تسلق الجبل .

وقفزت « منى » من الطريق الرئيسى المتجه يميناً .. وصعدت من حافته إلى أعلى الجبل .. و لم تملك « نادية » إلا أن تتبعها صائحة :

ـــ أيتها العنيدة .. الغبية !!

واندفعت الفتاتان بين الأشجار المتكاثفة .. تشقان طريقهما إلى أعلى الصخور بين الحصى والأعشاب .. وخرير المياه .. يفد إلى مسامعهما فى شدو جميل .

ونظرت « منى » إلى أعلى ، ثم هتفت بنادية :

ـــ انظرى .. لقد وصلنا .

ونظرت « منى » .. فإذا بقمة أحد أبراج البيت قد بدت فى أعلى السفح .. واندفعت « منى » تعدو .. ووراءها « نادية » تصيح بها :

ـــ مهلا يا منى .. لقد قطعت أنفاسى .

ـــ اجرى ... « يا مقطوعة النفس » .. تقولون عنى مريضة .. إنى أستطيع أن أتسلق عشرة جبال .

وأخيرا وصلت الفتاتان إلى قمة الجبل .

ووقفت « نادية » تنظر إلى الأفق البعيد .. فإذا بقمم أخر .. ما زالت تتعالى

فى الأفق .. بتيجانها البيض الثلجية ، وإذا بهما ما زالتا تبدوان كأنهما فى بطن الوادى .

وقالت « منى » ، وهى تهز رأسها فى عزم :

— فى يوم من الأيام .. سأصل إلى هذه القمة العالية .

وضحكت « نادية » قائلة :

— أنا شخصياً .. لن أحاول الوصول إليها .. عن طريق الأرض .. فإن الهبوط إليها من السماء أسهل كثيراً .

وأجابت « منى » :

— وهل تظنينهم يسمحون لنا بالهبوط إليها .. بعد أن أمسكوا بخناقنا فى السماء .. أسهل علىّ أن أصعد منها إلى السماء .. من أن أهبط من السماء إليها .

وضحكت نادية وأجابت :

— على أية حال .. دعينا الآن منها .. ومن السماء .. يكفينا ما وصلنا إليه .. هيا بنا إلى شاطىء البحيرة .

وسارت الفتاتان بين الأشجار المتكاثفة .. وعبرتا قنطرة خشبية قائمة فوق مجرى تنحدر منه المياه .. وتكاثفت حوله الأعشاب والشجيرات .. وبعد برهة .. بدا لهما .. سطح البحيرة يلمع فى ضوء الشمس .. وأخذ الجزء البادى من قمة البرج يزداد رويداً رويداً .. حتى بدا البيت المقام على شاطىء البحيرة كاملا .. بأبراجه القائمة فى أركانه الأربعة وسقفه الضخم الشديد الانحدار الذى علت شقفاته الحمر خضرة الطحالب .. ونوافذه الصغيرة التى عصفت الريح بضلفاته وهشمت زجاجها الملوّن ، وشرفاته الخشبية التى سقطت قوائمها .. وبابه الحديدى الذى تراكمت الأتربة على حافتيه .. وتشابكت الأعشاب والحشائش على درجاته الحجرية .

وبدا السور المحيط بالبيت حائل اللون محطم الدعائم ، وإسطبل الخيول المقام فى طرف الحديقة قد انفصل بابه وسقط سقفه .

وفى البحيرة .. بدا خيال البيت الخالى .. يهتز ويرتجف ، كلما هبت نسمة على سطح البحيرة .

ووقفت « نادية » ترقب البيت فى صمت .. وقد علت وجهها علامات الأسى .. وذكرى البيت تطوف بذهنها .. كأنها صورة فى حلم .. بفارسته الجميلة على صهوة جوادها .. والحياة تملأ رحاب البيت .

ودارت « نادية » حول السور .. وانتهت إلى الجانب الآخر من البيت المطل على الجرف .. وبدا الوادى ممتداً أسفله .. والبيوت كالدمى .. والأشجار كالحشائش .. والمزارع مقسمة فى خطوط مستقيمة كأنها رقع الشطرنج .

واقتربت « نادية » من حافة الجرف .. وقد بدا شديد الانحدار .. وتراءت فى أسفله .. على حافة السطح .. بقع بيض قد انتظمت فى خطوط متوازية .. استطاعت أن تميز فيها مقابر البلدة .

ومرة أخرى طافت بذهنها الفارسة الأنيقة .. يلقى بها الجواد من قمة الجرف لتهوى إلى قاع الهاوية .. حيث البقع البيض المنتظمة فى الخطوط .

وتملكتها رجفة .. وأصابها غثيان .. وتراجعت لتتكىء على حافة كوخ خشبى وراء البيت .

وسمعت صوت « منى » يهتف بها :

ــ نادية .. أين أنت ؟

ورجع الصدى بصوت منى . وازدادت الرجفة « بنادية » وهى تهتف مجيبة « منى » لتسمع صوتها يردده الصدى .

وأسرعت تاركة المكان ، وهى تحس كأن شيئاً خفياً يجذبها نحو الهاوية .

(٢٣)

حفيف ونغم !

عادت « نادية ومنى » من رحلتهما الأولى إلى الجبل قبيل الظهر .. لتجدا الضيف المنتظر صاحب الدار الخربه الذى هبط من الجبل لينشىء معهد الأيتام قد أقبل على الدار .. وكان الرجل قد جلس على مقعد مواجه للجدة ، وقد بدا ضئيل الجسد ، محنى الظهر ، سمح الوجه ، رقيق الملامح .

ولم تكد تقبل الفتاتان على « الجدة » حتى هتفت ضاحكة :

ــ ها هما قد أقبلتا .. حفيدتاى المصريتان .. ليست بهما ملامح الفراعنة ، ولكنهما مصريتان لحماً ودماً .

ونهض مسيو « رينو » ليلقى الفتاتين مرحباً وهو يقول :

ــ إنهما تبدوان فرنسيتين أصيلتين .. لقد ورثتا شكل جدتهما .

وأجابت الجدة ضاحكة :

ــ الشكل فقط .. فهما شديدتا التعلق بمصريتهما .

وعاد العجوز إلى مقعده وهو يقول :

ــ أرجو أن تطيب لهما الإقامة بيننا .

وأجابت منى :

ــ إن « جاب » جميلة .. لقد صعدنا الآن إلى الجبل ، وطفنا حول البحيرة .

وقال العجوز :

ــ لعلها أعجبتكما !! لقد مضى بى وقت طويل لم أصعد إلى هناك .

وخيمت على الرجل سحابة حزن ثم أردف قائلا :

ــ إنى لم أعد أطيق منظر البيت بعد الحادث .. وفوق ذلك فإنى لا أكاد أجد

فسحة من وقتى .. فهؤلا الصغار قد استولوا على كل دقيقة منه .. إن مشكلاتهم لا تنتهى .

وردت الجدة قائلة :

ــ أنت تنهك نفسك كثيراً يا رينو .. لم تعد سنك تحتمل كل هذا الجهد .

ثم وجهت الحديث إلى الفتاتين متسائلة :

ــ ما رأيكما فى أن تعملا مع مسيو رينو فى المعهد .. إنه فى الواقع يحتاج إلى مزيد من المدرّسات .. لقد عرضت عليه أمكما معاونته .. ولكنى قلت لها إنها لم تعد صغيرة ، وإن واحدة منكما .. قد تكون أقدر منها على حمل متاعب الصبية . ما رأيك يا نادية ؟!

وتساءلت « منى » فى دهشة :

ــ ولماذا نادية !. ولست أنا ؟!

وردت الجدة :

ــ لقد قالت أمك إن نادية .. أكثر جلداً ، وإنها ترغب فعلا فى العمل .

ــ هذه إحدى تشنيعات أمى ، لن يعمل مع مسيو رينو سواى .

وضحك العجوز وربت كتف « منى » قائلا :

ــ ستعملان أنتما الاثنتان .. إنى فى حاجة إليكما معا .. واحدة تعاوننى فى المكتب ، والأخرى تعمل فى أحد الفصول .

وأجابت منى :

ــ سأعمل أنا فى أحد الفصول . إنى أحب مناكفة الصغار .

وسأل رينو نادية قائلا :

ــ وأنت تعملين معى فى المكتب ؟

وأجابت نادية :

ــ سأعمل فى أى شىء تريد .

ــ سأضع لك مكتباً فى الغرفة الصغيرة التى تطل على المحطة . وستتعاونين مع

« مدام كلود » فى كل أعمال المكتب . الواقع أنى قد أثقلت عليها بالعمل ، وقدآن الأوان .. لكى تأخذ بعض الراحة .

وبدت الأم تقبل من القاعة .. فقالت لها الجدة :

ـــ لورا .. لقد وظفت للك الصغيرتين .. كلتيهما .. إن « رينو » رحب باستخدامهما فى معهده .

ـــ الاثنتين !؟

وأجاب رينو :

ـــ أجل الاثنتين .. إنى فى حاجة إليهما .

ـــ ولكن منى . قالت إنها ...

وقاطعتها « منى » قائلة :

ـــ لم أقل شيئاً .. إنى سأعمل مع مسيو رينو .

ـــ إنى لا أريدك أن تجهدى نفسك .

وأجابت « منى » متحدية :

ـــ ارأيتم .. إنها هى التى تريدنى ألا أجهد نفسى .. إنها تابى إلا أن تتهمنى بالمرض ، وإنى سليمة « كالجن ». لقد سبقت « نادية » فى صعود الجبل .

وصمتت الأم برهة ثم قالت موجهة الحديث إلى مسيو رينو

ـــ إذا كنت مصرًا على العمل .. فأرجو ألا يكون عملها مجهداً لو أمكن أن توكل إليها عملا مكتبياً .

وهز « رينو » كتفه قائلا :

ـــ لقد حاولت . ولكنها تصر على أن تعمل مع الصبية وقالت « منى » محتجة ..

ـــ ليس العمل مع التلاميذ بالأمر الشاق .. إنى أعرف كيف أتعامل معهم .

وتدخلت الجدة قائلة :

ـــ دعيها يا لورا تعمل ما تريد .. إنها أدرى بنفسها .. لا تخشى عليها .

وأقبلت « جانيت » من المطبخ تقول :

ــ الغداء جاهز .. هل أعد المائدة ؟

وأجابت منى :

ــ إنى أكاد أموت جوعا .

وردت الأم :

ــ من فرط ما عدوت .. هذه آخر مرة تصعدين الجبل على قدميك .

ــ كيف أصعده إذن ؟!.. على يدىّ وقدمىّ ؟!

ــ تصعدين فى عربة .

ــ ومن أين لى العربة ؟!

فقال مسيو رينو :

ــ عربتى تحت أمركا .

ــ ولكن قيمة الرحلة فى الصعود على القدمين .. فى تسليق الجبل .. مافائدة الرحلة .. إذا كانت العربة تحملنى إلى أعلى الجبل فى بضع دقائق !؟

وتدخلت « الجدة »قائلة :

ــ ليس هذا وقته .. انهضوا للغداء .. قلت لك لا تدققى معها يا لورا .. دعيها تفعل ما تشاء .. وعندما تتعب ستضطر إلى الرجوع .. لقد كنت مثلها من قبل .. لقد حفيت قدماى من صعود الجبل ، وعندما كلت ساقاى ، وأجهدنى الزمن .. لم أجد بدأ .. من الرقاد فى سكينة وهدوء .

ونظرت « الجدة » إلى « رينو » وتساءلت :

ــ أليس كذلك يا رينو !! أتذكر أيام صبانا ؟!

وهزّ الرجل رأسه وأجاب :

ــ كانت أياماً جميلة . كنت أرى الشجر أكثر ازدهاراً ، ومياه الشلال أكثر صفاء ، وقمم الجبال أنصع بياضاً .

وأقبلت جانيت مرة أخرى تدعوهم إلى المائدة ، وسألت الجدة قائلة :

ــ أأحضر إليك الطعام الآن ؟

وهزت العجوز رأسها وقالت :

ــ بل ساعدينى على الجلوس إلى المائدة .. إنى أريد أن أجلس اليوم بينكم .. أريد أن أحس بأحفادى من حولى ، بعد طول الوحدة .

وانتقل الجميع إلى المائدة .. وقد اتكأت الجدة على كتفى الأم وجانيت ، واتخذت مكانها فى صدر المائدة .. وقد بدا على وجهها الجذل والحيوية وهى تقول :

ــ جميل أن يحس الإنسان بالأحباء من حوله .. إننا لا نحس .. بقيمة أحبائنا .. إلا بعد أن تقعدنا الحياة ، ونعجز عن ملاحقتها .. ونرى ركبها يمر بنا ليخلفنا فى فراغ ووحشة ، ونتوق إلى أن يتمهل البعض من حولنا .. يمنحونا فى قعدتنا العاجزة .. بعض الأنس .. وبعض الحنان .

وقالت جانيت :

ــ تلك هى الأسرة .. فائدة أن يكون للإنسان أبناء وأحفاد .. يتمهلون معه فى قعدته .. لكى يمنحوه محبتهم وحنانهم .. ويريدون له ثمن وجودهم فى الحياة .

وهز رينو رأسه وطافت به موجة حزن وهو يقول فى صوت خافت :

ــ وعندما نفقد هؤلاء الأحباء الذين يتمهلون معنا .. لكى يمنحونا عطفهم ومحبتهم .. نضطر نحن إلى أن نترك .. قعدتنا العاجزة .. ونعدو وراء المحبة ، والحنان .. نضطر نحن إلى أن نجرى للحاق بالركب .. حتى لا تقتلنا الوحدة ، ويزهق أنفاسنا الفراغ .

وأحست « نادية ».. بآلام العجوز .. وطافت بذهنها الفارسة الجميلة على ظهر حصانها .. والهاوية الفاغرة فاها .. والبيت الموحش الخرب .. تقرع الريح أبوابه ، وتصفر الوحشة بين جدرانه .. وتمنت لو استطاعت أن تتمهل لتملأ عليه وحشته وتمنحه العطف الذى يرجوه ، والحنان الذى يفتقده .

وانتهى الغداء ، ومرّ اليوم والجميع منهمكون فى العمل بالدار أو التجول فى الحديقة .

وفى صبيحة اليوم التالى .. كانت « نادية ومنى » تهبطان المنحدر الموصل من الضاحية إلى البلدة فى طريقهما إلى المدرسة ليلتقيا بمسيو « رينو ».. حيث عملهما بالمدرسة .

ولم تكن المسافة بالقصيرة ، ولكن برودة الصباح حببت إليهما المسير .. وكانت كل منهما قد تدثرت بمعطفها ودست كفيها فى جيبيه وأخذت تحث الخطا هابطة من المنحدر .

وكانت « منى » قد ارتدت على رأسها « طرطوراً » من الصوف الأخضر .. مد « كسته » حتى غطى أذنيها ، وكانت « نادية » قد أحاطت رأسها بإيشارب من الصوف ربطته حسب عادتها حول عنقها ، ورفعت ياقة المعطف حتى غطت الجزء الباقى من العنق .

وبدا وضع الإيشارب حول رأس « نادية » طبيعياً .. ولم يبدُ هناك فارق ظاهر بين طريقة تغطية رأسها وعنقها والطريقة التى فعلتها « منى » بالطرطور الصوفى .

ووصلت الفتاتان إلى البيوت القائمة على المنحدر والتى تحدد مدخل البلدة من ناحية الضاحية واستمرتا فى الانحدار إلى الطريق العمومى حتى عبرتا شريط سكة الحديد ، وهمت « نادية » بالاتجاه يسرة فى الطريق المجاور لسكة الحديد والذى تقوم المدرسة على جانبه .. ولكن « منى » جذبتها من دراعها قائلة :

ــ هيا بنا ندخل من الشارع الرئيسى .

ــ لمه ؟!

ــ لأن هذا الطريق فارغ مهجور .. ليس به ناس ولا حوانيت .

ــ وماذا تريدين من الناس والحوانيت ؟!

ــ نتفرّج . نشاهد البلدة وأهلها . نرى واجهات المحلات .

ــ هيا يا منى ..ليس هناك وقت .

ــ وقت ؟.. ليس عندنا هنا أكثر من الوقت .

— والمدرسة ؟

— لتنتظر .. ماذا تظنينها ؟! بضعة يتامى .. يلهون مع العجوز . والعمة كلود .

— إنها مدرسة يا منى ، وأنت لديك فصل ، وأنا لدىّ مكتب .

— هوّنى عليك .. يا نادية .. هوّنى .. ماذا تظنينهم كانوا فاعلين .. بدوننا .. هيا نشاهد « الفترينات » ونتفرّج على الناس .. دعينا نتمتع بصباحنا .

ونظرت « نادية » إلى ساعته وأجابت :

— اسمعى . الساعة لآن الثامنة والربع .. وموعدنا الثامنة والنصف .. لن أسمح لك بالتلكؤ أكثر من ربع ساعة .. نحن لا نريد أن نبدأ عملنا مع الرجل بالتأخر عن الموعد . عمل يعنى عمل .

— يا باى .. كأنى بك عينت فى أكسفورد !!

— إنها تتساوى عندى بأكسفورد .

وجذبتها من ذراعها وهى تقول :

— سميها كما تشائين ، ولكن هيا بنا نشاهد البلدة .

وسارت الفتاتان فى الطريق الرئيسى . وكانت الحوانيت قد فتحت أبوابها وامتلأت الأرصفة بصبية المدارس يتلاحقون بحقائبهم ومرايلهم السود .. أو ستراتهم الكحلية ، وبدت حوانيت الفاكهة والخضر والزهور . ندية .. ناضرة .

وحست « نادية » لأول مرة بالحياة تجيش من حولها ، وملأ نفسها إحساس بالارتياح والأمل .. بدد تلك الرواسب التى خلفها البيت المهجور ، والهاوية ، وصفوف المقابر المتراصة فى سفحها .

ووصلت فى النهاية إلى الميدان الرئيسى ، وتلكأت « منى » أمام حانوت ملابس فى ناصية الميدان ، وأخذت تشاهد فاترينة رصت بها مجموعة من « الكرافتات » . وتنقل بصرها من واحدة إلى أخرى .. فاحصة ثمن كل منها ،

وجذبتها « نادية » قائلة :

ــ هيا بنا يا منى .. لقد بلغت الساعة الثامنة والنصف .

ــ انتظرى لحظة حتى أشاهد مجموعة « الكرافتات ».

ــ ماذا تريدين من الكرافتات ؟!

ــ أريد واحدة لعصام .

ــ بمناسبة ؟

ــ عيد ميلاده .

ــ متى ؟!

ــ فى ١٥ نوفمبر .

ــ أمعك نقود ؟!

ــ سيصبح معى فى أول الشهر .. ألن نقبض مرتبنا ؟

ــ هل تظنين أننا سنضيعه فى شراء الهدايا ؟

ــ إن ثمن « الكرافتة » لن يضيع المرتب ولا بد أننا سنجعل من المرتب جزءاً لمصروفنا الخاص .

وعادت « منى » تنظر إلى « الفاترينة » ثم أشارت إلى إحدى « الكرفتات » قائلة :

ــ ما رأيك فى هذه يا نادية ؟!

ــ لطيفة ..

ــ وهذه !!

ــ أيضاً لطيفة .

ــ وهذه ؟!

ــ اسمعى يا منى .. تظنيننا سنقضى الصباح فى المقارنة بين « الكرافتات ».. عندما يحل أول الشهر تعالى واشترى أى « كرافتة » تعجبك .. هيا بنا .

وقبل أن تجذبها من يدها لتسير بها .. كانت تتسلل بعينيها إلى « الفترينة »

لتفحص الكرافتات .. أى واحدة منها تليق بعبقريها .. العريض المنكبين .. المتجهم السمات !!

لقد رأته مرة « بجا كتة انجليزى كاروهات » تليق عليها هذه « الكرافتة » المخططة بأحمر ، ومرة أخرى كان يسير فى حديقة النادى ببذلة لونها كحلى تليق عليها هذه الكرافتة المنقطة ، وهذه الكرافتة تليق ببذلته الرمادية . ولكن علامَ كل هذا التعب !

إن « منى » تختار .. لأنها سترسل لعصام .. هدية فى عيد ميلاده .

لماذا تشغل هى نفسها بالاختيار ؟

هل تجرؤ على أن ترسل له هدية ؟ باسم من ؟ باسمها ؟ أم باسم مجهول ؟

ونظرت إليها « منى » وقد شردت بنظرها فى « الفاترينة » وهتفت بها :

ــ هاى .. كنت أظنك مستعجلة . من أجل الموعد ؟!

وأفاقت « نادية » وأجابت قائلة :

ــ أجل .. أجل .. هيا بنا .

وحثت الخطا .. متجهة مع أختها إلى المدرسة .

ووصلت الأختان إلى المدرسة ، واجتازتا الباب الخشبى الضخم الذى توسط السور الأبيض المرتفع ، ولاح لهما بناء المدرسة العتيق يتوسط فناءها الرحب .

وكان الصبية قد انتشروا فى الفناء ، وبدت بينهم بعض المدرّسات ، وتلفتت « منى » حولها ، ثم اتجهت إلى باب البناء تتبعها « نادية »، وصعدتا بضع الدرجات أمام الباب ثم وقفتا فى دهليز غلبت عليه الظلمة .

وبرز إليهما عجوز يمسك مكنسة وسألهما عما تريدان ، وأجابت منى :

ــ مسيو رينو .

ــ إنه فى حجرته لم يهبط بعد .. تفضلا بانتظاره حتى أخبره .. من أقول له ؟

وأجابت منى :

ــ بنات مدام لورا .. منى ونادية .

ووقفت « منى » تشاهد بضع لوحات معلقة على الجدارن ، تمثل الجبال والجليد ، والخيل .

وبعد لحظات سمعت وقع خطوات العجوز يهبط الدرج ، ثم بدأ مسيو « رينو » بجسده الضئيل وظهره المحنى وشعيراته البيض التى تعلو رأساً ملأه النمش .

ولم يكد يبصرهما حتى هتف بهما مرحباً :

ـــ أهلا .. أهلا .. لقد أعددت لك مكتبك يا نادية ، إنه فى الدور العلوى فى الحجرة الصغيرة المجاورة لحجرة الموسيقى .. أرجو ألا ترعجك الموسيقى ؟!

وأجابت « نادية » وهى تهز رأسها .

ـــ أبداً .. أبدا .. إنى أحب الموسيقى .

وضحك العجوز قائلا :

ـــ أرجو ألا تحبيها بدرجة .. تصرفك عن عملك ؟!

وأجابت « نادية » ضاحكة :

ـــ على العكس .. إنها تساعدنى على العمل .

وقالت « منى »:

ـــ وأنا .. أين أذهب ؟!

ـــ ستتولين الفصل الثالث فى الفرقة الأولى .. لقد كانت تتولاه « أجاث »، ولكنها تزوجت وتركتنا ، واضطررت أن أحيل أعمالها إلى « كرستين »، وأعتقد أنها قد باتت فى حاجة إلى منقذ ينقذها من هذا الفصل الشقى .. هل تقدرين عليه ؟

ـــ وعلى شر منه .

ـــ حسن .. كل ما أرجو ألا تتزوجى قريباً .. حتى لا نعود إلى إلقاء العبء مرة أخرى على أكتاف كريستين .

ـــ لا تخف ، لن أتزوج قبل عام .. إن أمامه فترة حتى ينتهى من أعماله فى

الصحارى .. ويستقر فى القاهرة .

ــ من هو ؟!

ــ زوجى .. إنه ضابط بالفرسان فى الجيش المصرى .

ــ هكذا ؟! بلغيه تحيتى لأنى أحب الفرسان .

ثم التفت إلى « نادية » قائلا :

ــ وأنت يا نادية .. لعلك لن تتركينا بنفس السرعة .. هل هو ضابط أيضاً ؟!

وأجابت « منى » ضاحكة :

ــ لا .. إنه جزّار .

وتساءل « رينو » فى دهشة وأجاب ضاحكا :

ــ جزّار ؟..

ــ أجل .. جزّار آدميين .. إنه طبيب جرّاح .. أبسط عملية عنده .. بتر الذراع .

وصاح « رينو » ضاحكاً :

ــ مرّة واحدة . اللهم اكفنا شرّة . ومتى ستتزوجين ؟

وهمت « منى » بالرد ، ولكن « نادية » صاحت بها ناهرة بالعربية :

ــ منى .. كفى عن هذه السخافة .

ثم عاودت الحديث بالفرنسية قائلة للرجل :

ــ لا تصدق شيئاً مما قالت . إنها تمزح .

وضحك العجوز قائلا :

ــ على أية حال .. إذا تحقق مزاحها .. فأرجو أن تبعدى عنا « جزّارك » فأنا فى حاجة إلى كل جزء فى بدنى .

ثم نادى على الفرّاش ليصعد مع « نادية » ليعد لها حجرتها .. قائلا :

ــ سأعود إليك بعد برهة لأعرفك بالسيدة « كلود » التى ستعملين

معها .. إنها سيدة لطيفة .. ولا سيما إذا كانت على وفاق مع زوجها .

وصعدت « نادية » مع الفرّاش إلى أعلى ، وتحرك مسيو « رينو » مع « منى » إلى الفناء .

ووقفت « نادية » وسط حجرتها .. المطلة على المحطة.وبدا لها سقف المحطة المنحدر .. وجزء من الرصيف ، وسور المحطة الممتد بجوار القضبان .

وفوق كل هذا امتدت سنديانة ضخمة .. تهدلت بعض أغصانها فحجبت جزءاً من بناء المحطة ، واستقامت بقية الأغصان لتحجب جزءاً من السماء والسحب .

وتذكرت للسنديانة شبيهاً .. فى مكان بعيد .. تذكرت الكافورة القائمة بجوار نافورة النادى .. تحجب جزءاً من السماء وجزءاً من الأبنية المجاورة .

وسرى حفيف بين الأغصان .. خيل إليها أنه نفس الحفيف .. كأنما تهمس به الأوراق هناك لتردده الأغصان هنا .

وسمعت صوت موسيقى ينبعث من حجرة مجاورة .. كانت أصابع تعزف البيانو فى بطء حزين .

وأخذت تنصت إلى الحفيف والنغم ، وعيناها تسبحان وراء الأفق .. بعيداً .. بعيداً .. حيث الوطن البعيد .. والحبيب النائى الموهوم .

---

(٢٤)

اكتب إلى ...!!

مرت الأيام بالأسرة فى موطنها الجديد بالمدينة الصغيرة القائمة على سفح الجبل ، وملأ نفوسهم إحساس بالاستقرار النسبى ، وسادتهم حالة طمأنينة .. اطمأن فيها كل منهم إلى طريقة حياته .. فاستراحت الأم .. إلى استقرارها فى البيت الذى نشأت بين جدرانه .. وقضت صباها ترتع فى مراعيه وتمرح بين أحراشه ، وملأها عزاء أن تظل بجوار « أمها » حتى آخر أيامها .. واستطاع تشاغلها بالإشراف على الدار وإعداد الطعام ورعاية شئون المزرعة والعناية بالطيور والماشية أن يعيد إلى نفسهاالإحساس بالحياة .

وانهمكت « منى » بين الصبية ، واندمجت فى مشكلاتهم .. فإذا ما ضاقت بهم انطلقت لتتسلق الجبل أو لتشارك فى الحفلات الصغيرة الراقصة التى تقيمها إحدى زميلات المدرسة أو إحدى صديقات الجيرة .

واطمأنت « نادية » إلى عملها فى حجرتها الصغيرة المطلة على السنديانة الضخمة التى تحتضن مبنى المحطة بيد .. وتلوح باليد الأخرى بين السحب .

ولم يكن عملها بالعمل الشاق .. كانت أشبه بمدير أرشيف المدرسة .. أو رئيسة محفوظاتها .. كانت ترتب بطاقات التلاميذ وتحفظ ملفاتهم .. وتسجل فيها كل ما يجد من معلومات .. خاصة بالحالة الدراسية .. والصحية .. وكان أكثر ما يريحها فى عملها هو البعد عن الناس .. كانت فى مقرها ..أشبه بعامل المرصد .. يرقب ولا يُرى .. تبصر كل الناس ولا يبصرها أحد .

فمن وراء الزجاج الذى تتلاعب أوراق السنديانة على حافته .. كانت تبصر روّاد المحطة ، وكانت ترقب الراحلين والقادمين .. المودعين والمستقبلين ..

كانت ترى القطار يفرغ حمولته ويملؤها .. وهى قابعة فى مكمنها .. آمنة مطمئنة .. لا تكاد تبصر فى يومها سوى وجه السيدة « كلود » الرقيق .. الذى يطل عليها بين آونة وأخرى ليسألها سؤالا .. أو ليمنحها ابتسامة .

وكانت السيدة « كلود » التى تعمل « نادية » فى معاونتها . كهلة ، رقيقة الحاشية ، ناعمة الصوت ، هادئة الخلق .. ولم تجد « نادية » موضعاً لحالة الاستثناء فى طبيعتها الهادئة التى حذرها منها مسيو « رينو » عندما لا تكون على وفاق مع زوجها .. فقد كانت السيدة دائمة البشاشة .. دائمة الهدوء ، وحتى عندما كانت تشكو من المستر « كلود ».. فى حالة سكره .. كانت شكواها لا تعدو المزاح والفكاهة

وكانت مدام « كلود ».. تعمل إلى جانب إشرافها على إدارة المدرسة .. مدرّسة للموسيقى .

كانت هى صاحبة العزف الذى سمعته « نادية » لأول مرة عندما وقفت فى حجرتها ترقب السنديانة والأفق وقمم الجبال البيض .

وكان العزف رقيقاً .. وكانت دقات الأصابع على البيانو واضحة محددة .. ولكنها كانت تنساب إلى نفسها انسياب الماء فى أخاديد الجبل .. متصلة متدفقة .

ولم تسمع « نادية » العزف بعد ذلك .. لم تسمع النغم ذاته ، وإنما سمعت أناشيد غنى فيها التلاميذ .. وموسيقى رقصوا عليها .

أما هذه القطعة التى انسابت إلى نفسها .. فلم تتكرر ثانية .

ولم تحاول « نادية » أن تسأل مدام « كلود » أن تعيدها لها ، فلم تكن تعرف ما هى ، ولم تستطع حتى أن تحفظ بعض نغمها ، ومنعها الخجل من أن تسأل مدام « كلود » عنها ، وتذكرها بيوم عزفها .

وكانت « نادية » تجلس فى حجرتها ذات صباح ، وكان شهر نوفمبر قد أقبل والأمطار قد تدفقت .. والسحب قد تكدست فى أديم السماء ، وروّاد المحطة قد انكمشت أجسادهم تحت المعاطف الثقيلة .. وطأطأت رءوسهم تحت المظلات

التى يتساقط المطر من جوانبها .

وأخذت « نادية » تعيد ترتيب البطاقات .. عندما فتح الباب ، وأقبلت « منى » ضاحكة تلوّح برسالة فى يدها قائلة :

— رسالة من عصام ، تصوّرى .. لم أكن أصدق أبداً أن الرسائل يمكن أن تصل إلى هنا !!

وأجابت « نادية » ضاحكة :

— ولماذا لا تصل !. أتظنيننا فى مجاهل أفريقيا ؟!

— بل فى مجاهل « الألب ».. لقد كتبت له العنوان على البيت والمدرسة ، ومع ذلك لم يخيل إلىّ أن الرد يمكن أن يصل .

— ما دام قد كتب العنوان .. ووضع طابع البريد .. فهو واصل وصل .. بلا معجزات ، ولا خوارق .

ووضعت « منى » الرسالة أمام عينيها ، ثم قالت :

— تصوّرى .. لقد وصل فى أربعة أيام .. إن التاريخ الذى كتبت فيه الرسالة ٢٨ أكتوبر واليوم أول نوفمبر .. لا بد أنه قد كتب إلىّ فى نفس اليوم الذى وصلت فيه رسالتى ، فلقد بدأت كتابتها يوم ٢٠ وانتهيت من كتابتها بعد أربعة أيام ، وقذفتها فى الصندوق المعلق بجوار المحطة يوم ٢٤ فلا بد أن تكون قد وصلت يوم ٢٧ . أو . يوم ٢٨ .. أو..

ولم تجد « نادية » فى نفسها رغبة فى متابعة تواريخ الإرسال والوصول .. فقاطعتها قائلة

— المهم ماذا قال لك ؟! ما هى أخبارهم ؟!

— كل شىء على خير ما يرام .. إنه ما زال فى القاهرة ، وهو يتوقع أن ينقل إلى الإسكندرية مع كتيبة السيارات الراحلة إلى هناك ، وهو يهديك أزكى السلام .. أنت والأسرة .. إن كتابته فى غاية الركاكة .. كلها سلامات ، وتحيات ، وهو يظن أننا نعرف كل شىء عن مصر .

— كيف ؟!

— إنه يقول ، وكل شيء عندنا كما هو .. لا شيء أكثر مما يكتب فى الصحف ويسمع فى الإذاعة .

وضحكت « نادية » قائلة :

— صحف ؟

— وإذاعة !! تصوّرى ؟!

وصمتت « نادية » برهة قبل أن تجيب :

— لقد حاولت أن أسمع إذاعة مصر بضع مرات ، ولكننى فشلت تماماً .

— طبعاً .. بمثل هذا الجهاز العتيق الذى يشبه صندوق البريد لا يمكن أن نسمع أكثر من إذاعة باريس .

— لقد سمعت مرة إذاعة لندن العربية .. فأثارت أعصابى .

— اسمعى .. لماذا لا نشترى راديو جديداً !!

— كيف ؟!

— نشترك فيه سوياً .. نخصم من مصروفنا مبلغاً كل شهر لكى نشتريه .

— لقد حيرتنى بمصروفك .. ماذا تنوين أن تفعلى به ، هدايا لعصام .. أم جهاز راديو ؟!

— هدايا لعصام ؟.. هل تظنيننى سأشترى له كل شهر هدية .. إنها هدية واحدة سأشتريها له هذا الشهر وأنتهى ، وبعد ذلك نشترى الراديو وتستطيع « ماما وجدتى » أن تساعدانا فى ثمنه .

— لا تعشمى نفسك .. إنهما راضيتان تماماً .. بجهازهما العتيق ، ولا أظن إحدهما تواقة لسماع إذاعة مصر .

— على أية حال نشتريه نحن .. ما رأيك ؟!

— موافقة .

— ولكن هبى أنه لا يسمعنا صوت مصر ؟!

ـــ كيف !. إننا لن نشتريه إلا إذا جرّبناه وسمعنا الإذاعة المصرية ...

ـــ لا .. ناصحة .. هل ستذهبين معي لشراء كرافتة لعصام .

ـــ ألم تشتريها بعد ؟! لقد ظننتك اشتريتها وأرسلتها ؟!

ـــ إنى حائرة بين كرافتتين .. وكلما هممت بشراء إحداهما .. تزوغ فى عينى الأخرى .. فأرجوك أن تأتى معى اليوم .. لكى تضطرينى إلى شراء إحداهما .

ـــ ولماذا لا تشترين الاثنتين ، وتستريحين ؟!

ـــ ليس معى إلا ما يكفى واحدة .

ـــ سأعطيك ثمن الثانية .

ـــ حقاً ؟

ـــ أجل .. فلست أدرى ماذا سأفعل بمصروفى .

ـــ سآخذه وأردّه لك فقد تحتاجينه يوماً لإرسال هدية .

ـــ لا أظننى سأحتاجه أبداً .. لهذا الأمر .

وخيمت على وجه « نادية » سحابة خفيفة من الحزن سرعان ما انقشعت .

وتساءلت « منى » كأنما تحاول أن تغير الموضوع :

ـــ هل كتبت إلى صبرى ؟

ـــ أنا ؟

ـــ أجل ..

ـــ ولماذا أكتب إليه ؟!

ـــ لتعطيه عنواننا .. ألم تعديه بذلك ؟!

وصمتت « نادية » برهة ثم أجابت :

ـــ أجل . أظننى وعدته .

ـــ لماذا لم تكتبى إليه إذن .. إنه إنسان طيب ، وسيسعده أن تكتبى إليه .. وأعتقد أنه سيسعده أيضاً أن يكتب إليك .. لا تتصوّرى مقدار فرحتى عندما وصلتنى رسالة عصام !

كادت « نادية » تضحك فى مرارة .. إن « منى » فى نشوتها لا تقدر أن قيمة الرسالة .. ليست فى الرسالة ذاتها ، وأنها لم تفرح لأن رسالة وصلتها ، وإنما لأن عصام كتب إليها .

ولكنها كبتت المرارة فى نفسها .

ما الفائدة ! ستعود « منى » إلى لومها ، والسخرية منها .

وقد تطلب « منى » فى سحريتها .. أن تكتب إليه .. إلى الذى لا يعرفك من تكون . ما دامت تصر على أن قيمة الرسالة .. مستمدة من قيمة صاحبها . وما دام .. لا يوجد هناك فى هذا الكون .. من له قيمة فى نفسها سواه

وعادت « منى » تقول وهى تمد يدها بالرسالة إلى نادية :

ــ اقرئيها .. أؤكد لك أنها ستسعدك كما أسعدتنى .. إنى شممت فيها عبير مصر .. لقد ملأتنى إحساساً .. بأن الصلة بيننا لم تنقطع ، وأن رحيلنا لم يكن هجرة ، وإنما رحلة .. أو إجازة .

ووقفت « منى » ترقب « نادية » وهى تقلب الرسالة بين أصابعها ثم قالت :

ــ لا تظنى أن فرحتى بها لأنها مجرد رسالة من عصام . إنى بالطبع سعيدة لأنه كتب إلىّ ، ولكن أؤكد لك أن فرحتى أعم وأشمل .. إنى أحسست بالفرحة لأن رسالة من مصر قد وصلتنى . وأعتقد أنك ستشاركيننى الإحساس بهذه الفرحة .. ومن أجل ذلك قلت لك اكتبى إلى « صبرى » . إنه يحبك يا « نادية » .. وسيكتب إليك من قلبه .

وكانت « نادية » تنقل بصرها بين سطور الرسالة حتى وصلت إلى آخرها . وكست وجهها ابتسامة وهى تقول :

ــ لماذا تقولين إن كتابته ركيكة .. لقد كتب كل ما يود أن يقوله ببساطة .. أكان من الواجب أن يكتب شعراً ، ويقول لك « مضناك جفاه مرقده » ؟

وخطفت « منى » الرسالة وهى تقول :

ــ ولم لا ؟! ألا أستحق !! اكتبى إلى صبرى وسنرى كيف يكتب إليك .

ـــ سيكتب إلىّ عن صفقة الأسلحة ، والميج ، ودبابات ستالين .

وضحكت « منى » وهى تقول :

ـــ إذن اكتبى إلى المضنى الآخر .. المرابط فى جنيف . قطعاً .. هذا سيكتب شعراً .. فقد كان حبه لك خاطفاً .. لقد صرعته فى غمضة عين .. اكتبى إليه .. تسلى .. ألم تضيقى بجلستك هذه تطلين على المسافرين من هذا الجحر .. كالوطواط ؟

وغادرت « منى » الحجرة .. بضجيجها ، وثرثرتها .. وضحكاتها ، وساد السكون مرّة أخرى .. وعادت « نادية » تقلب فى البطاقات ، وبصرها .. يتخلل أغصان السديانة ويطلق إلى الأفق البعيد حتى القمم الثلجية البيض .

ووسط السكون السائد والصمت المخيم نفذت من باب الحجرة دقات بطيئة ، واضحة .. محددة ، ولكنها تنساب إلى النفس .. فى غزارة وقوة .. لتنفذ إلى الأعماق .. وتتدفق تدفّق السيل الهابط من أعالى القمم فى أخاديد الجبل ، ليصل إلى الأغوار .

وأنصتت « نادية » إلى النغم .. المتقطع المتصل .. البطىء المتدفق . المتقطع فى دقاته . المتصل فى تأثيره . لبطىء فى عزفه المتدفق فى سريانه .

وأحست « نادية » بمشاعرها ترق ، وحواسها ترهف .

وأخيراً .. كفت الأصابع عن العزف .

وبعد لحظة .. أطلت مدام « كلود » وقد علت وجهها ابتسامتها الرقيقة قائلة :

ـــ هل انتهيت من ترتيب البطاقات يا نادية ؟!

ـــ رتبت ما يقرب من النصف .

وردت « كلود » فى تأنيب رقيق :

ـــ النصف فقط !

وقالت نادية معتذرة :

ـــ الواقع أن « منى » أضاعت نصف وقتى .

ـــ والنصف الآخر ؟

ـــ أضعته أنت ؟

ـــ أنا ! كيف ؟

ـــ بهذه القطعة التى عزفتها الآن .. إنها تستحوذ على مشاعرى استحواذاً تاماً ، بحيث لا أستطيع أن أعمل شيئاً وأنا أنصت إليها .

ـــ إلى هذا الحد تحبينها ؟

ـــ لقد سمعتها منك عندما أتيت إلى هنا أول مرة .. وتمنيت أن أسمعها بعد ذلك ، ولكننى لم أجرؤ على طلبها .. لأنى أجهل اسمها .

ـــ تجهلين اسمها ؟.. عجيبة ! إنها إحدى مقطوعات « شوبان » المعروفة .

وتمتمت « نادية » فى حياء :

ـــ الواقع أنى لست على دراية تامة .. بالموسيقى.إنى أحب موسيقانا المصرية التى تعوّدت أذناى عليها ، و لم أحاول أن أسمع من قبل .. شيئاً من الموسيقى العالمية المعروفة ، ولكن هذه القطعة بالذات أحسست أنها انسابت إلى نفسى بطريقة لم أكن أتوقعها .

ـــ إنها فالس الوداع .

وأحست « نادية » بشوائب حزن ترسب فى أعماقها وردت قائلة :

ـــ الوداع !!

ـــ أجل .. إنى أحبها .. هل تجيدين العزف على البيانو ؟!

ـــ إلى حد ما .

ـــ سأعلمها لك إذا أردت .

ـــ لا أظننى سأستطيع عزفها كما تعزفينها .. إنك مدهشة فى عزفها يا مدام كلود !

وضحكت « كلود » قائلة :

ـــ أهذه القطعة فقط هى التى أعجبتك فى كل ما أعزف !

ـــ إنى أحب كل ما تعزفين .. ولكنى أحب هذه القطعة أكثر ..

ـــ لأنك تميلين إلى الوحدة .. لقد أحببتها لأنها تتجاوب مع ميولك الحزينة .. أنت تحبين الوداع يا نادية .. أليس كذلك ؟!.

وأطرقت « نادية » برأسها وأجابت فى صوت خفيض :

ـــ ما من إنسان .. يحب الوداع يا مدام كلود .. إنه يفرض علينا فرضاً ، لا نملك إلا أن نسلم به .

ـــ وهل فرض عليك وداع آملك .

ـــ وداع الوطن .

ـــ فقط ؟!

ـــ ومن خلفناهم فى الوطن .

ـــ أخلفت هناك أعزّاء عليك ؟

ـــ لنا أصدقاء أعزّاء كثيرون .

ـــ كثيرون !؟

وصمتت « نادية » .. وأردفت مدام كلود تقول :

ـــ إن الوداع الذى يخلف فى نفوسنا اللوعة .. لا يكون لكثيرين .. إنه يكون لواحد فقط .

وأحست نادية بالدموع تتجمع فى مآقيها ، وحاولت جهدها أن تكبتها .. وكست وجهها ابتسامة باهتة وردت متسائلة :

ـــ هل جرّبت هذا النوع من الوداع يا مدام كلود ؟!

ومدت السيدة كفها تتحسس رأس نادية فى رفق وقالت :

ـــ من الذى لم يجرّبه ! إنه دائماً يكون جزءاً من حياتنا بل هو أبرز ما فى حياتنا من معالم .

وتذكرت « نادية » ليلة الرحيل ، وطوافها بالنادى ووقفتها فى المدخل الخلفى

تتطلع إلى ملعب « الكروكيه » وقد لفتها الظلمة ، وحاولت أن تتذكر الوداع .. أو ما سمته السيدة : بأبرز معالم حياتنا .. فوجدته شيئاً بلا معالم .

إنها قد حرمت حتى من أن تجعل وداعها .. شيئاً .. ينفع للذكرى .

وغادرت السيدة الحجرة الصغيرة ، وعادت « نادية » تعبث بالبطاقات وقد شرد ذهنها مرة أخرى فى الأفق البعيد .

وفى الليل عندما ساد السكون البلدة .. وخيم الصمت عليها ، وأوى أهل البيت إلى مضاجعهم .. جلست « نادية » فى فراشها تقلب كراسة فى يدها .

لقد كانت كراسة مذكراتها .

كانت الكراسة .. ملجأها الوحيد ، تنفث فيها همومها .. وتجتر ذكرياتها .

وأحست كأن السطور رجع الصدى .. كانت تقف بين صفحاتها وحيدة ، ومن حولها .. فراغ طويل عريض .

لماذا لا تكتب إلى أحد ؟!

لقد قالت لها « منى ».. اكتبى .. فسيسعدك الرد عندما يصل إليك .

أجل .. إنها فى حاجة .. إلى أن تكتب إلى أحد .. فى حاجة إلى أن يرد عليها إنسان .

فى حاجة إلى أن تسمع شيئاً غير رجع الصدى الذى تسمعه من كراسة مذكراتها .

لقد حثتها « منى » على أن تكتب إلى صبرى .. لأنه يحبها ، وسيجيبها من قلبه .

ولكن ماذا تستطيع أن تكتب إليه ؟

هل تكتب إليه عن مدحت ؟!

هل تسأله .. ماذا يفعل ؟! وكيف أصبح ؟!

هل تسأله أن يصفه لها وهو يرتدى ثيابه البيض ويسير متجهماً فى المستشفى ؟

هل تسأله عن خطيبته .. أخطبها حقاً ؟! أم أن المسألة لم تعد أن تكون مجرد أشاعة ؟!

هل تسأله عن زملائه وزميلاته فى النادى ؟!
وبأية حجة تسأله كل هذه الأسئلة ؟!
هل تقول له إنها تحبه ؟!
وهل سيكتب هو لها .. ليحدثها عن مدحت ؟!
عبث . فى عبث ، وحمق فى حمق .
هل تكتب إليه .. لتسأله عن صفقة الأسلحة .. والميج وال تى ٤٣ .
ومدحت .. من يحدثها عنه ؟!
هذه البلهاء « منى ».. التى تدعى أنها فرحت بالرسالة .. لأنها رسالة !.
كلام فارغ !
هل كانت تسر « منى » لو أن الرسالة حملت إليها أسعار البورصة فى مصر .. أو حركة تنقلات موظفى سكة الحديد ؟
لقد قالت لها اكتبى إلى هذا العاشق المرابط فى جنيف .
ماذا تكتب إليه ؟!.. أتكتب لتقول له .. إنها لا تحبه .. وإنه لا داعى لأن يأمل منها فى ود جديد ؟!
وماذا تنتظر أن يقول لها ؟!
سيحدثها عن بحيرة « ليمان »، وعن الجو فى جنيف .
وسيقول لها إنه ما زال ينتظر .
سخافة فى سخافة !!
ولكن لماذا لا تكتب إليه هو ؟
أجل .
إذا كان لا بد من الكتابة .. فلماذا لا تتجه إليه مباشرة ؟!
إنها تعرف عنوانه .. (مستشفى الدمرداش » بالقاهرة .
وأحست بنشوة غامرة .
أجل .. إنها تستطيع أن تكتب إليه .
ليس هناك أى شىء يمكن أن يحول بينها وبين الكتابة .. ولكن ماذا تقول

له !!. وهل سيجيب عليها ؟!

لتقل له .. إنها فتاة من مصر .. تعرفه أكثر مما تعرف نفسها ، وإن الظروف أبعدتها إلى مكان بعيد ناء فوق قمم الألب العالية .. وإن كل أملها فى الحياة هو أن يكتب إليها .. أن يرد على رسائلها .. ولو بكلمة أو كلمتين ، يشعرها أنه يعرفها .

ولن تقول له كلمة حب .. ستحدثه عن نفسها .. ما سمعته عنه .. وما رأته منه .. ستحدثه عن لعب « الكروكيه » والنادى وعن عملياته فى المستشفى .

ألا يحتمل أن يرد عليها ؟! لماذا لا تجرّب !!

إنها لا تريد أكثر من مجرد كلمات ستملأ عليها حياتها .

إنها لا تريد أكثر من ذلك .

إن هذا أكثر مما تطمع فيه .

وأمسكت بالقلم وبدأت تكتب :

« لست أدرى كيف أناديك وماذا أقول عنك ! فأنا لا أريد أن أفرض عليك نداء أو وصفاً .. إلا ما تسمح به أنت .

إن اسمى نادية .. وأعيش فى مكان بعيد جداً فوق أعلى قمم الألب ولا أظن هناك أى احتمال للقاء بيننا .

ومع ذلك أعرفك جيداً . أعرفك أكثر مما تتصور . أعرف كل شيء عنك .. عن حياتك ، وعن عملك ، وعن طباعك . لقد قضيت فترة من عمرى فى مصر . وكنت امل فى وقت ما أن تعرفنى وأن أعرفك ، وفقدت هذا الأمل ورحلت عن مصر بلا عودة .. عندما استقر بنا المقام .. فى هذا المكان النائى .. عاد الأمل يراود نفسى . وأحسست أن ثمة عزاء قد بقى لى .. هو .. أن تكتب إلىّ ، وأكتب إليك .. قد تثيرك رسالتى .. وقد تبعث فى نفسك الدهشة ، أو الضحك أو السخرية والتشكك .. ولكن لو عرفت مدى ما تمنحه إياى بردّك .. لأجبت رجائى ، ورددت علىّ .

لست أريد أن أطيل عليك .. لأنى أكره أن أفرض عليك سماعى .. حتى

أعرف أنك تقبله .

وإنما أكتب إليك لأسألك فقط : هل لك أن تمنح غريبة عن وطنها .. عزاء عن غربتها بالكتابة إليها !!

هل تقبل أن تقرأ لى .. وأن ترد علىّ ؟! إذا قبلت .. فاكتب إلىّ كلمة واحدة .. هى نعم .

وأؤكد لك أنى لن أثقل عليك أبداً ، وأنى سأكف عن الكتابة عندما تقول لى كفى ... »

وتوقفت « نادية » بقلمها قليلا .. ثم وقعت اسمها « نادية ».

وأعادت قراءة ما كتبت ثم أضافت :

« ملاحظة — إذا كنت تنوى الكتابة إلىّ فاكتب بسرعة حتى لا أعتقد أنك خذلتنى ».

ثم وضعت سن القلم على الملاحظة .. وشطبتها ، وأمسكت بالرسالة وطوتها ووضعتها تحت الوسادة .

وفى الصباح .. أعادت قراءتها .. وأمسكت بها .. وهمت بتمزيقها .. ولكنها لم تجرؤ .. فوضعتها فى جيبها .

وقبل أن يستيقظ أهل الدار .. كانت تتسلل ، وقد لفت رأسها بالإيشارب وضمت المعطف الثقيل على جسدها .

وقبل أن تفتح الحوانيت أبوابها .. وقبل أن يستيقظ حمالو المحطة .. كانت « نادية » تقف أمام صندوق البريد .

وبلاوعى .. مدت يدها إلى فتحته .. وتركت المظروف ينزلق إلى جوفه .

---

(٢٥)

خدعة أم حقيقة !؟

كانت الساعة قد قاربت التاسعة صباحاً ، عندما أقبل مدحت على غرفة العمليات في مستشفى الدمرداش . وقد سار بجواره « جاد الله » يتساءل ضاحكا :

ــ ماذا تنوى أن تقطع هذا الصباح .. زوراً .. أو معدة ؟

وأجابه مدحت جاداً :

ــ مثانة .

ــ يا ساتر يارب .

ــ هل تدرى أن نسبة السرطان فى مصر تزيد عن بقية بلاد العالم بثلاثين فى المائة نتيجة لزيادة سرطان المثانة ؟

ــ ومتى تنوى أن تنتهى من عمليات الجزارة التى تباشرها فى المستشفى باسم الطب ؟.

ــ عمليات الجزارة هذه قد أنقذت تسعة وتسعين فى المائة من حياة مرضى .. فقدوا الأمل فى الحياة .

ــ مفهوم .. مفهوم .. أنقذت حياتهم .. ليعيشوا بنصف أجسادهم .. لماذا لا تتركهم يعالجون أنفسهم بالأشعة أو بأى وسيلة أخرى غير هذا التشويه الذى تجريه لهم ؟!

ــ يا غبى .. هذا كله نصب .. وتضليل .. أنت وأمثالك من المضللين تجنون على المرضى بهذه الخدع .. وليس أحب إلى المرضى من الهروب من العمليات الجراحية ، والاسترسال فى علاج الأشعة .. وغيرها من المسكنات ..

حتى يستشرى الداء .. ويفوت الأوان .. وتتضاءل فرصة الشفاء بالاستئصال .. إن ثلاثة أرباع العمليات التى تأتى إلىّ ، تأتى متأخرة .. نتيجة محاولات الأشعة التى يقوم بها النصابون أمثالك .

ـــ أنا نصاب ؟! يا جزّار ؟!

ـــ أنت أكبر نصاب رأيته فى حياتى .. هل تذكر عندما كتبت على عيادتك « أخصائى البنسلين » !؟

ـــ وما فى ذلك ؟! ألم أكن أعالج المرضى بحقن البنسلين ؟!

ـــ وهل حقن البنسلين تحتاج إلى تخصص !؟

وضحك جاد الله قائلاً :

ـــ طبعاً .. لأن أحداً غيرى لم يكن لديه بنسلين .. أنسيت أنى كنت آتى به من جيوش الحلفاء .

ـــ كان يجب عليك أن تكتب على عيادتك .. أخصائى فى سرقة البنسلين .

ـــ لم أكن أسرقه .. لقد كنت آخذه من « هيلين » كبيرة ممرضات مستشفى القصاصين .

ـــ إذن كان يجب أن يكتب على عيادتك بلطجى البنسلين ، لا أخصائى البنسلين !

ـــ أخصائى .. أو بلطجى .. ألم أشف الكثيرين من الحمى والأمراض السرية ؟ أتذكر ...

وكان مدحت قد وصل إلى باب غرفة العمليات حيث وقف مساعده ينتظره ، وقد أحاط به بعض الطلبة الذين سيحضرون العملية .

وقال مدحت مقاطعاً جاد الله :

ـــ لا أذكر شيئاً الآن .

ـــ متى سألقاك .. بعد العملية ؟

ـــ بعد العملية عندى محاضرة .

ـــ ألقاك إذن بعد المحاضرة . فسنتناول الغداء عند العميد .

ـــ عند العميد ؟!

ـــ أنسيت ؟!

ـــ كدت أنسى .

ـــ سآتى لآخذك من المكتب .

وبدا التردد على وجه مدحت وتوقف قليلا أمام باب الغرفة وقال لجاد الله :

ـــ اسمع يا جاد الله .. يبدو لى أن من الخير أن أعتذر .

وضحك جاد الله قائلا :

ـــ « تانى » .

ثم هز رأسه وأردف :

ـــ وددت أن أراك تذهب مرة .. بلا تردد .. سأمر عليك بعد المحاضرة .

ونظر الطبيب المساعد فى ساعته قلقاً وأجاب مدحت قائلا :

ـــ سنكمل المناقشة بعد المحاضرة .. سأبدى لك وجهة نظرى جيداً .

وهمّ بأن يخطو إلى غرفة العمليات عندما اعترضته إحدى الممرضات ، وهى تمد يدها برسالة من رسائل البريد الجوى قائلة :

ـــ رسالة لك يا دكتور .

وأمسك مدحت الرسالة وقرأ عنوانها بشىء من الدهشة ، و لم يستطع أن يميز خط العنوان .

وحاول أن يتذكر الأشخاص الذين يمكن أن يكتبوا إليه من الخارج ، وعاد يفحص ختم البريد المطبوع على المظروف ، فميز منه حروف فرنسا الستة .

وزادت دهشته .. فهو لا يذكر له أصدقاء فى فرنسا .

وطاف بذهنه .. « جمال عبد السلام » قريب الذكتور جادُ الله .. الذى سافر فى الشهر الماضى إلى أوربا .. ولكنه يعلم أنه قد سافر إلى سويسرا .. وليس إلى فرنسا .

ربما قد أرسل رسالته ، وهو فى الطريق .

ولكن لماذا ؟ ليس هناك من وطيد العلاقة بينهما بحيث يكتب إليه .. وبهذه الصفة المستعجلة .. وهو فى الطريق .. قبل أن يصل إلى مقر عمله .

قد يكون هناك ما دعاه إلى الكتابة .

ولكن لماذا لم يكتب إلى جاد الله ؟!

ورفع الطبيب المساعد يده بالساعة مرة أخرى .

فأسرع مدحت بوضع الرسالة فى جيبه ، ثم اندفع إلى الغرفة .. حيث تمدد المريض على المنضدة تحت الضوء الساطع .

وبعد لحظة كان مدحت قد انهمك فى العملية .. وانمحى من ذهنه كل ما يتعلق بالرسالة .

وانتهت العملية .. وخرج مدحت من غرفة العمليات .. يستحث الخطا إلى مكتبه .. والطلبة يتبعونه ، ومن بينهم صبرى يلاحقه قائلا :

ـــ المحاضرة فى موعدها يا دكتور ؟

وهز مدحت رأسه بالإيجاب . واستمر فى مشيته الصارمة .

وقال أحد الطلبة :

ـــ لماذا لا نلغيها اليوم ؟

وتوقف مدحت ونظر إليه فى غيظ وأجاب :

ـــ لماذا ؟ هل أجهدتكم مراقبة العملية ؟

وأجاب صبرى :

ـــ بل أجهدك إجراؤها .

وأردف مدحت زاجراً طلبته كما يزجر عريف الكتاب تلاميذه :

ـــ اذهب إلى المدرج ُمنك له .. بلا مياعة .. سآتى إليكم حالا .. هذه ليست عملية .. هذه مسح زور .

واندفع إلى مكتبه ليبدل ثيابه .. وهبط الطلبة ، متجهين إلى المدرج .

وعلى مقعد فى المدرج جلس صبرى .. يقلب أوراق كراسة فى يده .. ومن الصفحات المزدحمة بمحاضرات الطب توقف أمام صفحة كتبت بالعربية .. وأخذ فى قراءتها .. للمرة العاشرة فى هذا الصباح :

« عزيزتى نادية ..

ترددت كثيراً .. قبل أن أمسك القلم لأكتب إليك .. وحتى الآن ، وبعد أن قهرت ذلك التردد .. واندفعت أكتب إليك فى حماس .. أجد نفسى ، وقد عاودنى التردد فى إرسال ما كتبت .

لقد أعددت الظرف .. وألصقت عليه طوابع البريد ، وكتبت عليه اسمك .. والعنوان الذى أبيت أن ترسليه إلىّ ، والذى استطعت اختلاسه من رسالة « منى » إلى عصام .

أعرفت لماذا ترددت فى الكتابة إليك ؟

لم يكن عن انشغال .. أو إهمال أو عجز .. أو غير ذلك مما يمكن أن أتهم به .

فيعلم الله لهفتى الشديدة على الكتابة لك .. لهفة لا تقوى أشد المشاغل حتى مشاغل الامتحان .. على التغلب عليها .

ويعلم الله ما تزخر به نفسى من انفعالات مستمدة من باطنى .. ومما حولى .. من هذا الجو الصاخب الذى نعيش فيه .. والذى يملؤنا — نحن المصريين — إحساساً .. بأن علينا أن نخوض كفاحاً شاقاً من أجل حريتنا وكرامتنا .. إحساساً يملؤنا يقيناً بأننا نصنع مستقبل بلادنا .. ونثبت دعائم الرخاء للأجيال القادمة .. فى هذه الأيام التى نعيش فيها .

ومع ذلك .. ورغم ما بى من لهفة وانفعال .. وجدتنى أحجم عن الكتابة إليك .. حتى بعد أن عرفت عنوانك من عصام . فقد أحسست أنى يجب أن أنتظر حتى تكتبى أنت لى . لكى تذكرى عنوانك وتشعرينى أن بك رغبة فى أن أكتب إليك .. أو على الأقل أنك لا تكرهين أن أكتب إليك .

ولكن إحجامى لم يطل .. فقد وجدتنى أعجز عن صد رغبتى فى الحديث

إليك .. وأنا أعرف الطريق إليك .. وأمسك فى يدى بعنوانك .

فاعذرينى إذا ما كتبت .. بلا إذن منك .. واعذرينى إذا اقتحمت عليك خلواتك فى قمم الألب النائية .. واقرئى رسالتى كما تقرئين .. صفحـة فى جريدة .. لا تكلفى نفسك مشقة الرد إذا ضقت به .. وأؤكد لك أنى لن أضيق بذلك ، فأنا أعلم مشقة الكتابة عند ما تعوزنا الرغبة فيها .. كما أعلم مشقة الصمت عندما نتلهف على الحديث .

وبعد هذه المقدمة الطويلة .. أبدأ بسرد أنبائنا عليك :

ـــ أنبائى الخاصة ألخصها فى أنى أواصل الدراسة فى الكلية ، وأنى اشتركت منذ بضعة أيام فى عملية جراحية .. وعندما أقول اشتركت أعنى أنى حضرت عملية جراحية مع الدكتور مدحت .. لعلك تذكرينه .. ذلك العبقرى الذى يلقبونه عندنا « بالجزّار » .. والـذى رأيتـه ذات مرة فى النـادى فى أرض « الكروكيه » .

لقد أجرى عملية رائعة .. أنقذ بها حياة امرأة .. تخلى عنها جميع أطبـاء مصر .. حتى لا يتهموا بالفشل .. وقد قام بها هو .. ونجحت إلى أقصى حدود النجاح .

لا أريد أن أطيل عليك بأخبار العمليات .. رغم أنى غريق فيها فى أيامنا هذه .

إنى ألقى عصام بعض الأحيان .. وقد لقيت مرة عمك سليمان .. ولم يعرفنى .. وكدت أعرفه بنفسى . ولكنى خجلت .

أما عن الأنباء العامة فلست أدرى ماذا تعلمين منها .. إن صفقة الأسلحة قد مرّت بسلام .. لقد أخذ الرئيس « جمال عبد الناصر » الأسلحة رغم أنف العالم المستعمر .. ولست أدرى هل تعرفين معنى هذا !!

إن المسألة ليست مجرد أسلحة نأخذها من الشرق .. بل المعنى الأضخم للصفقة .. أننا تخلصنا نهائياً من براثن المستعمر ، أننا قد بتنا أحراراً نأخذ ما نأخذ وندع ما ندع .

وهل تذكرين يا « نادية » .. كيف كنا نسير فى ركاب المستعمر .. كنا نقول نعم عندما يريدنا أن نقول نعم .. وكنا نقول لا .. عندما ... » .

وأحس صبرى بوقع أقدام تطرق أرض المدرج .. ورفع بصره .. فوجد « مدحت » يجتاز الباب ، فأغلق الكراسة .. وثبت المنظار على عينيه وأخذ يرقب منصة المدرج .

وبدأ مدحت فى إلقاء محاضرته .. وكعادته فى إلقاء المحاضرات رفع سبابته اليسرى وحك بها أرنبة أنفه .. ثم نظر شزراً إلى الطلبة ، ومال إلى الأمام منكباً على المنصة بكفه اليسرى واضعاً كفه اليمنى فى جيبه .. وقبل أن ينطق بكلمة اصطدمت أصابعه بمظروف فى جيبه .

ومضت لحظة ، وهو يتحسس محاولا أن يتذكر ماهية المظروف .. وعندما خانته الذاكرة أخرج المظروف وألقى عليه نظرة خاطفة .. فتذكر رسالة البريد الجوى المرسلة من فرنسا .. والتى سلمتها له الممرّضة على باب غرفة العمليات .

وأحس برغبة تدفعه إلى فض المظروف، ومعرفة صاحبه ، ولكنه رفع عينيه إلى الطلبة فإذا كلهم قد أنصتوا وركزوا نظراتهم على المظروف .. فأعاده إلى جيبه بغير اكتراث واندفع فى إلقاء محاضرته .

وانتهت المحاضرة .. وغادر المدرج يحيط به الطلبة .. وقبل أن يصل إلى مكتبه أحس بخطوات تلاحقه وسمع صوت جاد الله يهتف به :

ــ ألم تنته إلا الآن من محاضرتك ؟! ما شاء الله .

ثم صاح بالطلبة :

ــ انتهينا .. فضوا الزفة .. ودعوا الرجل يستريح .

وتضاحك الطلبة ثم تفرقوا من حولهما وعاد جاد الله يقول :

ــ هيا بنا .. لقد جاوزت الساعة الواحدة والنصف ، وموعدنا الثانية .

ــ قلت لك إنى سأعتذر .

ــ لا تكنِ سخيفاً .. كيف تعتذر عن دعوة العميد؟! إنها جليطة .. وقلة ذوق.

ــ ليكن .. إنى لن أذهب .

ــ أمرك عجيب .. مدرّس .. سنكوح مثلك .. يرفض دعوة العميد إلى الغداء ؟!

ــ ولماذا يدعونى العميد ؟!

ــ لأنك .. لأنك زوج ابنته .

ــ اسمع يا جاد الله .. لقد قلت لك مائة مرة .. كف عن هذا المزاح !

ــ مزاح .. أما عبيط .. لِمَ تظنه قد دعاك إذن ؟.. من أجل سواد عينيك .. أم لنبوغك فى قطع أوصال الناس ؟!

ــ إذاً فهو دعانى لأنى زوج ابنته ؟!

ــ طبعاً .

ــ ولأجل هذا . لن أذهب . لأنى لن أكون زوج ابنته .

ــ يا أخى اعقل .. البنت لطيفة وتحبك ، وأبوها رجل ذو خلق وذو شأن .. وذو مستقبل .. إن نظرتى فيه لا تخيب . أتذكر عندما قلت لك إنه سيصبح عميداً .. أتذكر ؟

وأطرق مدحت وقال متسائلا فى ملل :

ــ ها .. وبعدين ؟

ــ لقد أصبح عميداً .. وأؤكد لك الآن .. أنه سيصبح مديراً للجامعة .. هذا إذا لم يصبح وزيراً .

وعاد مدحت يتساءل فى دهشة :

ــ يا أخى ليصبح ما يشاء .. إن شاء الله يصبح إمبراطوراً .. مالى أنا به !

ــ مالك به ؟! كيف ؟ إنه سيصبح حماك .. حماك يا أخى .

ــ جاد الله .. أرجوك .. « حل عنى » .. أنت رجل نصاب .. ومعتاد النصب .

ــ أنا !؟

ـــ أجل أنت .

ـــ وأنت مغفل ومعتاد التغفيل .. لست أدرى ماذا أعجبها فيك ! « يعطى الحلق للى بلا ودان » .. على أية حال ليس هذا وقت مناقشة .. هيا بنا الآن . فلم يعد هناك وقت حتى للاعتذار ، احضر ، هذه المرة من أجلى .. وبعدها يحلها ربنا .

ـــ أنت تريد أن تأخذنى طعماً للخالة ؟!

ـــ الخالة يا أخى لا تحتاج إلى طعم .. أنا أعتبرها كأختى تماماً .

ـــ هكذا !! لماذا تريدنى إذاً ؟

ـــ لأجل مستقبلك .. هيا أرجوك .. لقد بلغت الساعة الثانية إلا ربعاً .

ـــ انتظر حتى أضع أوراقى فى المكتب .

ـــ ليس لدينا وقت .. ضعها فى العربة .. هيا بنا .

وجذب جاد الله مدحت من ذراعه مهرولا إلى فناء المستشفى ودفعه فى العربة وانطلق به إلى بيت ميرفت .

وحول المائدة فى إحدى « فيلات » الدقى الأنيقة .. جلس الاثنان يحيط بهما الدكتور عبد الفتاح وأسرته .. الأم والخالة ، وميرفت ، وأخوها الطالب بإعدادى الطب .

وجرى الحديث عن السياسة والطب والأزياء والسينما والجو .. وعن كل شىء يخطر بالبال ، وشرد ذهن مدحت بضع مرات فيما قاله جاد الله .. وفيما يعيد قوله مراراً وتكراراً .. فى مسألة زواجه « بميرفت » .. واسترق منها بضع نظرات فاحصة .. وهو يضعها فى ميزان الزواج .

لماذا يصد عن نفسه فكرة الزواج بمثل هذا العناد والإصرار ؟! لماذا لا يحاول أن يفكر فى المسألة .. بشىء من الجدية والاهتمام ؟! إن الفتاة لطيفة .. وذكية .. وليس فى طباعها أو أخلاقها ما يضايقه .. وأسرتها طيبة .. وأبوها ـــ كما قال جاد الله ـــ ذو خلق ومال .. وشأن ومستقبل .. وهم مقبلون عليه مرحبون به ..

ماذا يريد أكثر من هذا ؟.

ولكن لماذا يريد هذا ؟!

تلك هي المشكلة .. إن ما ينقصه هو الدافع إلى الزواج .

إن لديه كل ما يحققه الزواج .. بلا زواج .

لديه البيت المنظم « النظيف » الذى تشرف عليه « أمه » .. لديه الرعاية التامة .. والطعام الجيد ، والمسكن المعد .

وهو لا يعدم فى أى وقت الصديقة التى تملأ له ما تبقى من فراغ ضئيل ، يتركه له عمله المتواصل .. فى غرفة العمليات وفى مدرجات الدراسة .. وفى العيادة .. وفى الدروس الخاصة وأخيراً لديه عمله .. الذى يشغل كل جهده .. وكل وقته .

أية زوجة تلك التى تقبل أن يشاركها حياتها معه .. هذا العملاق الضخم الذى يبتلع ، كل طاقته ؟!

أجل تلك هى مشكلته .

مشكلة الحاجة إلى الدافع .. أو المبرر . الذى يدفعه إلى المقامرة .. بوضعه المستقر الذى يهيىء له فرصة العمل .

إنها حقاً فرصة طيبة لزيجة مثالية .

ولكنه لم يطلب هذه الفرصة ، ولا يحس قط بحاجته إليها .

قد تكون فرصة طيبة لغيره .. أو لنفسه .. فى وقت آخر .. وظرف مختلف .. يضيق منه بالعمل .. أو بفقد فيه .. بعد عمر طويل .. هذه الرعاية التامة .. من « أمه » التى تهيىء له حياة منعمة مستقرة .. بلا قيد ولا متاعب .. حتى ولا ثمن .

ولكن من يضمن له أنه سيجد الفرصة ، عندما يحين الوقت ؟

أليس من الأفضل أن يغتنمها الآن .. لكى تنفعه فى الوقت الملائم ؟!

وإلا .. فلماذا يتزوّج الناس ؟!

وهزّ مدحت رأسه .. وعاد ينظر إلى « ميرفت » . وإلى أمها .. ليرى كيف

يمكن أن تصبح « ميرفت » عندما يحين الوقت .. بدينة مكتنزة الساقين .. « متختخة » الذراعين . ومرة أخرى عاد يصرف نفسه عن فكرة الزواج .

وأخيراً انتهى الطعام .. ونهض الجميع ، واتخذوا مجالسهم على المقاعد الوثيرة فى البهو .. ودارت فناجين القهوة .. وتعالى دخان السجائر .

وجلس مدحت يرتشف قهوته .. وعلى يمينه جلست « ميرفت » تتحدث بحماس عن حقوق المرأة قائلة :

— إن الدستور الجديد سيمنحها حقها كاملا .. فى الانتخابات وفى الترشيح لمجلس النواب مواجهاً لهما :

— يا ستى .. كفاية عليها الانتخابات .

— لماذا ؟! هل تظن أن « عم محمد البواب » أحق منى بعضوية مجلس الأمة ؟!

— ومن قال إن « عم محمد البواب » سيرشح نفسه للنيابة ؟!

— إن له هذا الحق .

واستمر الجدال بين الاثنين .. ومدحت يرقبهما فى صمت .. حتى أحس أنه يوشك أن « يسعل » .. فمد يده لكى يخرج منديله .. ومرة ثانية اصطدمت يده بالرسالة المنسية .. وفى هذه المرة .. لم يصعب عليه تمييزها .. وأحس بلهفة على أن يعرف حقيقتها وأجابها جاد الله وقد جلس وخشى أن يتركها فى جيبه فينسى أمرها مرة أخرى كما نسيها فى المرتين السابقتين .

وببساطة سحب الرسالة .. وصرف « السعلة » ثم مزق حافة المظروف .. وأخرج الرسالة من داخله .

وتوقفت المناقشة بين « ميرفت » وجاد الله وأخذا يرقبان حركة مدحت المفاجئة التى أخرج بها المظروف وفتحه .

وبالإبهام والسبابة سحب مدحت الورقة الزرقاء المطوية داخل المظروف .

وقبل أن يفتحها قال جاد الله متسائلا :

ـــ ما هذه ؟!

ـــ رسالة من فرنسا .

ـــ فرنسا !! ممن ؟.. هل تعرف أحداً فى فرنسا ؟!

ـــ أبداً .

ـــ إذاً من أدراك أنها من فرنسا ؟!

ـــ ختم البريد على المظروف .

ـــ ولكن من الذى أرسلها ؟!

ـــ لا أدرى .. إنى لم أفتحها إلا الآن .

ـــ أو تضعها فى جيبك دون أن تعرف ممن وصلتك !! يا صبرك يا أخى !! يا برودك !!

ـــ لقد وصلت إلىّ وأنا على باب غرفة العمليات .. بعد أن أضعت وقتى بمناقشاتك السخيفة فى الصباح وكان المريض تحت البنج .. فوضعتها فى جيبى حتى أفتحها بعد العملية .

ـــ ولماذا لم تفتحها بعد انتهاء العملية .

ـــ نسيتها .. ولم أذكر إلا وأنا فى المحاضرة .

ـــ وبعد المحاضرة نسيتها بالطبع ؟!

ـــ ولم أذكرها إلا الآن وأنا أضع يدى فى جيبى لإخراج المنديل .

ـــ وحتى الآن لم تقرأها ؟ اقرأها يا أخى .. اقرأها وكفى لكاعة .. لقد بت أكثر منك لهفة على معرفة صاحبها .

وفرد مدحت الورقة وأخذ فى قراءتها . وأخذت علامات التعجب تزداد فى وجهه ، كلما انحدر بصره من سطر إلى سطر .

وأخيراً هز رأسه فى حيرة ، ثم نفخ من أنفه نفخة ساخرة وأخذ يقلب الرسالة بين يديه ثم يعيد قراءة المظروف .

وقال له جاد الله يستحثه :

ـــ ها .. ممن ؟!

ـــ من .. من .. لا أدرى .. ولكننى أعتقد أنه مقلب سخيف .. من شخص فاضى .. وأغلب ظنى أنه قريبك الصحفى ، بإيعاز منك .. قل .. اعترف .. أليس كذلك ؟

وهز جاد الله رأسه قائلا فى دهشة :

ـــ ما هذا الهذيان !! مقلب من قريبى الصحفى ... بإيعاز منى .. أجننت ؟! إن قريبى فى جنيف .

ـــ لقد رماها من فرنسا حتى يسبكها .

ـــ يسبكها .. يا سلام على ذكائك .. سبحان من نجح عملياتك .. أتظن قريبى يهمه أمرك إلى الحد الذى يجعله يقف فى فرنسا ليرسل لك رسالة .. يعطيك بها مقلباً !

واحمر وجه مدحت ودفع بالرسالة إلى جاد الله قائلا له فى غيظ: ـــ إذن خذ .. اقرأها .. وقل لى من أين ؟!

وأمسك جاد الله بالرسالة يقرؤها ، وبدت عليه علامات الدهشة الشديدة وهو ينتقل بين سطورها .. وعندما انتهى منها هتف قائلا :

ـــ عجيبة !!

ـــ صدقت ؟!

ـــ صدقت ماذا ؟! إنى أؤكد لك أنها ليست من جمال . فهو لا يمكن أن يقدم على شىء من هذا .. ثم إن الرسالة ، لا يبدو بها افتعال .. أو عبث .. إنها .. إنى أعتقد .. أن ..

ثم مد يده بالرسالة ببساطة إلى « ميرفت » التى جلست ترقب الاثنين فى صمت ودهشة وقال :

ـــ اقرئيها يا ميرفت .. وقولى لنا .. ما رأيك ؟

ثم وجه الحديث إلى مدحت قائلا :

ــ أظنك لا تمانع فى أن تقرأها ؟!

وكان مدحت أمام أمر واقع .. وهو يرى الرسالة تسلم إلى « ميرفت » فقال مؤكداً :

ــ أبداً .. أبداً ..

وقرأتها ميرفت .. وتصاعد الدم إلى وجهها و لم تملك إلا أن تردد نفس الكلمة : ــ عجيبة !!

وتساءل جاد الله : ــ هل تظنينها مقلباً ؟!

وهزت ميرفت كتفيها : ــ من يعلم !!

وقال مدحت :

ــ أنا لا أشك فى أنها مقلب .. فلا أظن أن « نادية » هذه التى تعيش فى أعلى قمم الألب .. ولا عزاء لها سوى كلمة منى .. يمكن أن يكون لها وجود .

وانطلقت منه ضحكة ساخرة .. ومد يده فتناول الرسالة ودسها فى جيبه قائلا : ــ دعونا منها .

وضحك جاد الله قائلا : ــ لقد أصبحت عالمياً .. من قدك .. لك عشاق فى جبال الألب !!

وأجاب مدحت ضاحكا من أنفه فى سخرية :

ــ كان يجب علىّ ألا أريك الرسالة .. لأنى لن أخلص من سخريتك .

ثم صمت لحظة وأردف قائلا :

ــ على أية حال .. لا أجد من السهل أن أنتزع من ذهنى ، أنك وراء هذه الرسالة .. بطريقة ما .

وأجاب جاد الله :

ــ أقسم لك بكل الأيمان .. إنى لا أدرى عنها شيئاً إلا وأنا آخذها من يدك .. ثم أنا نفسى .. غير مقتنع أنها مقلب .

وانتهت الزيارة ، وعاد مدحت إلى بيته .. وخلع ملابسه وأخرج محتويات

جيوبه فوضعها على المكتب كما تعوّد .

ووقع بصره على الرسالة .. وأعاد تلاوتها مرة أخرى ، وانتهى إلى خاتمتها :

« إذا قبلت .. فاكتب إلىّ كلمة واحدة هى : نعم » .

وقذف الرسالة على المكتب .

إنه لم يبلغ من البلاهة .. بحيث ينطلى عليه المقلب .. ويضع نفسه موضع السخرية .

وحتى لو كانت المسألة حقيقة . وكانت « نادية » هذه الساكنة فى أعلى « جبال الألب » ، والتى تعرف كل شىء عنه .. مخلوقاً حقيقياً .. لا أكذوبة ولا خدعة .

حتى لو كانت « نادية » هذه شخصاً حقيقياً .. فلن يعقل أن يجلس ليضيع وقته فى مكاتبتها .

وحتى لو رضى أن يكتب إليها .. فماذا يكتب .. وهو لا يعرف كيف يكتب سطرين من الإنشاء على بعضهما ؟

لا .. لا .. لن يشترك فى مثل هذا العبث .

وفى الليلة التالية .. جلس إلى مكتبه .

ومرة أخرى مد يده فتناول الرسالة .. وعاد يقرؤها .. وتوقف أمام جملة تقول فيها :

« قد تثيرك رسالتى .. وقد تبعث فى نفسك الدهشة أو الضحك .. أو السخرية والتشكك .. ولكن لو عرفت مدى ما تمنحه إياى بردّك .. لأجبت رجائى .. ورددت علىّ » .

وأحس .. بشىء حقيقى فى كلماتها .

لقد بعثت الرسالة فى نفسه الدهشة .. والضحك .. والسخرية .. والتشكك .

وصاحبة الرسالة قد توقعت كل هذا .. ومع ذلك فهى ترجوه بحرارة أن

يجيب رجاءها ويرد عليها .

أحقاً يمكن أن يمنح بردّه .. شيئاً .. إلى هذه المخلوقة ، بافتراض .. أنها كائن حقيقى .. لا خدعة .. ولا أكذوبة !!

إنها تقول إنه سيمنحها شيئاً كثيراً .. فلماذا يبخل بهذا الرد .. الذى لن يكلفه أكثر من بضع دقائق !!

ولكن هل هى حقيقة .. موجودة .. أم أنها مجرد عبث !

وهب أنها عبث .. فماذا يخشى ؟!

أيخشى أن يضع نفسه موضع السخرية !؟

ماذا يضيره من سخرية بعض السخفاء ؟

هل يتساوى الضرر الذى سيصيبه من السخرية . لو كانت المسألة أكذوبة مع الفائدة التى ترجوها صاحبة الرسالة .. لو أنها حقيقة واقعة ؟!

ومرة أخرى أعاد قراءة الرسالة .

وببساطة أمسك القلم وانتزع ورقة من إحدى الكراسات ثم حك أرنبة أنفه بسبابته ، وبدأ يكتب الرد إلى نادية ، المقيمة فى أعلى « قمم الألب » والتى لا يدرى ما إذا كانت وهما أم حقيقة ؟

(٢٦)

لن أخذلك ...

كانت الساعة قد بلغت الثانية عندما هبطت « نادية » من حجرتها الصغيرة ، ووقفت فى الشرفة السفلى المطلة على الفناء .. وكانت الشمس قد احتجبت نهائياً منذ أسبوع .. والبرد قد أخذ يتساقط فى خفة كالريش الأبيض أو القطن المندوف .. والصبية قد أخذوا يتواثبون فى الفناء متلقين نتف البرد بأكفهم فى فرحة ، محاولين تكويرها فى كرات يتقاذفونها و« منى » قد وقفت بينهم .. ولم تكد تلمح « نادية » واقفة فى الشرفة حتى هتفت بها :

ــ نادية .. ألا تنوين الانصراف ؟!

ــ أجل إنى جاهزة .

ــ إذن هيا بنا .. إنا مدعوتان للغداء عند جابى .

وغادرت « نادية » الشرفة وعبرت القاعة إلى حجرة زجاجية صغيرة أسفل السلم .. وفى تردد .. دفعت الباب ومدت عنقها فوقع بصرها على « بيتر » كاتب الحسابات العجوز ، وقد أكب على مكتب صغير يفحص بضع رسائل فى يده .

وتساءلت « نادية » فى استحياء :

ــ ألم تصل رسالة لى يا مسيو بيتر ؟

ورفع العجوز بصره من فوق المنظار ، ثم هتف قائلا :

ــ مدموازيل نادية .. تفضلى .. تفضلى ..

ــ متشكرة .. إنى أسأل فقط عن رسالة لى ؟

وهز العجوز رأسه متسائلا :

— هل تنتظرين رسالة ؟!

وترددت « نادية » قبل أن تقول :

— يحتمل أن تصل إلىّ رسالة .

— عندما تصل سأسرع إليك بها .

— لا داعى لأن تزعج نفسك ، سآتى لأخذها .

— وكيف تعرفين أنها وصلت ؟!

— إنى أمر عليك كل يوم وأنا صاعدة إلى مكتبى .. وسآتى إليك لأحييك .

— أود أن تنتظرى كل يوم رسالة ، حتى أراك كل يوم .

وضحكت نادية :

— إذا كان الأمر كذلك فسآتى إليك بلا رسائل .

— إنى أحب سماعك عندما تعزفين .. فالس داديبه :

— تقصد عزف مدام كلود ؟!

— بل أقصد عزفك أنت .. إنى أستطيع أن أميز عزف « كلود » بسهولة .. إنى أسمعه منذ عشر سنوات .

— ولكننى مبتدئة .. إنى أتعلم عزفه .

— ومع ذلك فعزفك يعجبنى .. وعندما أقول لك يعجبنى ، فهو لا بد أن يكون عزفاً جيداً . إن لى أذناً موسيقية ، رغم هذه السنين الطويلة التى أمضيتها بين الدفاتر والحسابات .

— يسرّنى جداً إطراؤك .

— إنك تحسين بهذا الفالس .. تحسين جيداً بأحاسيس الوداع التى يشيعها .

— ربما .. لقد أحببت الفالس بمجرد أن سمعته .

وسمعت نادية صوت « منى » يهتف بها من الباب :

— نادية .. أين أنت ؟!

— إنى آتية .

ثم ودعت « بيتر » قائلة :

ـــ أشكر إطراءك يا مسيو بيتر .. ولعلى لا أكون أزعجتك .

ـــ بتاتاً .. عندما تصل الرسالة .. سآتى إليك بها تواً .

ـــ لا تضايق نفسك بها .. إنها مجرد احتمال .. قد لا يتحقق ..

واتجهت « نادية » إلى الباب الخارجى حيث وقفت « منى » تتساءل :

ـــ ما الذى أخرك ؟

ـــ كنت أسأل مسيو بيتر .

ـــ عن ماذا ؟

ـــ عن .. عن شيء فى الدفاتر .

ولم تجسر « نادية » أن تقول إنها كانت تسأل عن رسالة . إذ لم تكن « منى » تعلم شيئاً عن الرسالة الطائشة التى أرسلتها .. والتى استجدت بها رداً .. من مدحت .. أو كما كانت تسميه « منى » الوهم الكبير .

كانت « نادية » تحس بالخجل من كتابتها .. والندم على إرسالها .

وكانت تسائل نفسها أحياناً .. كيف واتتها الشجاعة على كتابة ما كتبت ؟ ومن أين جاءتها الجرأة التى جعلتها تقدم على وضعها فى المظروف ، وكتابة العنوان ووضعها فى صندوق البريد ؟!

ولو كان الأمر بيدها لأوقفتها فى منتصف الطريق ، ولمزقتها إرباً .

ومع ذلك فهى تحس بسعادة .. إن الأمر لم يعد بيدها ، وإن الرسالة قد نجت بنفسها من ترددها ، وقد انطلقت لتحقق غرضها .. إنها لا بد أن تكون قد وصلته .. ولا بد أن يكون قد قرأها ، ولا بد كذلك أن يكون قد قرر شيئاً بخصوصها .

ويحتمل جداً .. أن يكون هذا الشيء الذى قرره فى صالحها .. فهو يحمل فى صدره قلباً كريماً .. وهو على صرامته البادية لا يخذل أحداً .. عندما يحس أن هذا الشخص ، يحتاج فعلاً إلى ذلك الشيء الذى يطلبه .. تشهد بذلك تصرفاته مع

مدرّب التنس فى النادى ، وتصرفاته التى سمعت عنها من صبرى .

وهو لا شك سيحس من رسالتها .. مدى حاجتها إلى ردّه ، ومدى ما يمكن أن يمنحها بالكتابة إليها !

إنه سيشعر ـــ بلا جدال ـــ أنها لا تعبث ولا تهزل .

ولن يضيره أن يكتب إليها كلمة أو بضع كلمات .

لماذا بعد كل هذا لا تتوقع منه رداً ؟!

ومن أجل هذا أخذت تعد الأيام .. لقد حسبت لها « منى » مدة الرسالة بأربعة أيام .. عندما قرأت تاريخ وصول رد عصام .. وتاريخ إرساله الرد ، وهى قد أرسلت الرسالة فى يوم الجمعة الماضى .. واليوم السبت أى مضت ثمانية أيام على إرسالها .. أربعة أيام لوصول رسالتها وأربعة أيام لوصول رسالته .

هذا بفرض أنه سيكتب ردّاً فى نفس اليوم الذى تصل فيه رسالتها .

منتهى التفاؤل وحسن الظن !!

لم يكفها أن تقنع نفسها .. بأنه سيرد .. بل استطاعت أيضاً أن تفترض بأنه سيرد فى نفس اليوم .

كأن الصلة بينهما قد بلغت من شدة الوثوق والارتباط ، ما يجعله لا يطيق تأخير الرد لحظة ، أو كأن المسألة .. من الخطورة والإلحاح .. بحيث لا تحتمل أى تأجيل .

وأحست بالخجل ، وهى ترى نفسها قد انزلقت إلى مثل هذا الحد من التفاؤل ، ولم تجد بداً من أخذ نفسها بشىء من الشدة ، ونهيها عن الإغراق فى أحلامها الطائشة .. وأن تؤكد لنفسها أن صرامته وكرهه للعبث .. ستغلبان على رقته وكرمه .. وأن أصابعه ستتصرف فى الرسالة .. قبل أن يتصرف فيها قلبه .

ومع ذلك ، فلم تكد الأيام الثمانية .. التى حسبتها للذهاب والإياب تنتهى .. حتى انتابها شعور بالقلق واللهفة ، ولم تستطع أن تمنع نفسها من أن تسأل

« بيتر » العجوز الذى يتسلم رسائل المدرسة .. عن رسالتها المنتظرة .

ولم تستطع أن تنزع من نفسها إحساس الانتظار .. فقد كان إحساساً ممتعاً .. خلق فى نفسها شيئاً آخر غير ذلك اليأس ، اللانهائى .. شيئاً ربطها بالوهم الكبير ، وجعل ثمة خيطاً بينهما تعلقت بطرف منه ، وألقت بالطرف الآخر .. عله يصله إليه .

واجتازت التوءمتان باب المدرسة .. وهمت « نادية » بالاتجاه من الطريق الموازى لسكة الحديد ، فجذبتها « منى » إلى الميدان حيث الطريق الرئيسى .

وقالت نادية :

— ألم تقولى إنك فى عجلة ؟!

— ولو .. إنى أكره هذا الطريق المقفر .

— لست أدرى ماذا يعجبك فى الازدحام ؟!

— لأنى أحب الناس .. أحب مغازلات الشبان .. ومعاكسات الصبية .. أحب الفواكه فى الحوانيت ، وأحب رنين أجراس الدراجات ، وأبواق العربات .. أحب كل هذا .. لأنه يشعرنى بالحياة .

— الحياة ليست فى صخب الناس وضجيجهم .. إنى أحس بالحياة فى سكون البحيرة ، وفى حفيف الشجر .. وفى اهتزاز الوردة على غصنها .

ونظرت إليها « منى » وقلبت شفتيها وأجابت فى سخرية :

— هذا كلام من عندياتك .. أم من ديوان أحد الشعراء ؟!

— إن هذا ما أقصده يا منى .. إنى حقيقة أكره صحبة الناس ، وأكره ازدحامهم .

— لأنك تخشينهم .. من يوم الحريق ، وقد أصابك هذا الخوف من الناس .. تتوهمين أن يفحص كل عابر وجهك ويشير إليك صائحاً : انظروا إلى هذه الفتاة المشوّهة . انظروا إلى عنقها المحروق .

وبلا وعى مدت « نادية » يدها إلى عنقها وأحكمت ربط الإيشارب حوله ،

ثم التفتت إلى « منى » ناهرة إياها :

ـــ ما هذا الحمق .. اخفضى صوتك وإلا سمعك الناس ؟!

ـــ أرأيت يا نادية يا حبيبتى !! أرأيت لماذا تخشين من الناس ؟! ترى متى تواجهينهم فى ثقة وشجاعة ؟! متى تكفين عن هذا الخوف ؟!

ـــ لو أصابك ما أصابنى ، هل كنت تواجهين الناس ؟!

ـــ وكنت أسب من لا يعجبه شكلى .

ـــ واهمة . تقولين هذا لأنه لم يصبك شىء .

ـــ ولكن ممن تخشين هنا ؟!

ـــ ولماذا أزعج الناس بمنظرى !!

ـــ إنه غير مزعج .

وتوقفت « منى » أمام محل للتصوير وأخذت تنظر إلى الصور المكبرة الموضوعة فى واجهته وقالت لنادية :

ـــ أليست لك رغبة فى التصوير ؟!

وجذبتها « نادية » من يدها قائلة فى غيظ :

ـــ أتسخرين ؟!

ـــ أنا ؟..

ـــ أتظنين حقاً أنى أرغب فى التصوير ؟!

ـــ أنا شخصياً أرغب فى أن أرسل صورة لعصام .. لقد سألنى أن أرسل له صورة حديثة .

ـــ إذن تصوّرى أنت .

ـــ وأنت ؟!

ـــ ليس هناك من يسألنى صورة حديثة .. ولا قديمة .

ـــ احتفظى بها لنفسك .

ـــ ليس فى صورتى الآن ما يستهوينى .. إذا أردت أنت صورة فادخلى ..

واذكرى أن حفلة « جابى » تنتظرك .

— أجل .. معك حق .. سأعود عندما يكون لدى وقت ، وعندما أكون مرتدية ثياباً لائقة .. الفستان القطيفة الأحمر مثلا .. ما رأيك فيه للتصوير ؟!

— لا بأس .. ولو أنى لا أظن قماشه أو لونه سيبدوان فى الصورة .

وعاودت التوءمتان سيرهما .. فى زحام الطريق بين عبث الصبية ومعاكسات الشبان والدراجات ذات الأجراس والعربات ذات الأبواق .

وبدأ الزحام يخف فى أول المنحدر .. وأخذت الفتاتان فى صعود الطريق الخلوى المؤدى إلى المزرعة .

و لم تكادا تسيران فيه برهة .. حتى أحستا بعربة تتوقف بجوارهما ، ثم سمعتا صوتاً يهتف بهما :

— اركبا قبل أن تتوقف العربة ، وتضطرا إلى دفعها معى حتى البيت .

ونظرت التوءمتان فإذا بجارهما مسيو « كيلى » .. والد « جابى » .. صاحبة دعوة الغداء .

واتخذتا مكانهما فى العربة .. التى توقفت برهة قبل أن تبدأ السير .. وتقهقرت بضع خطوات فى المنحدر ، ثم ما لبثت حتى عاودت السير .. وقال الرجل البدين ، الأحمر الوجه ، الذى استقرت عجلة القيادة على بطنه :

— ربنا يستر .. لست أدرى ماذا يمكن أن يحدث لى لو توقفت العربة .. إنى لا أتصوّر أن أصعد كل هذه المسافة على قدمى .. سأبيت فى كشك المحطة أو فى صالون السيدات ، أظن هذا يكون أكثر راحة ودفئاً ، على أحد مقاعد الحلاقة .

ثم انطلق الرجل يقهقه فى انشراح وصفاء .

وقالت « منى » ضاحكة :

— إذا توقفت العربة .. فنحن على استعداد لأن نجرها لك .. أنا ونادية وجابى وتونى .

وأردفت نادية قائلة :

ـــ فى النزول فقط .

وأجاب الرجل :

ـــ لست فى حاجة إلى مساعدة فى النزول .. إنى أستطيع أن أتدحرج .

ثم نظر إلى الساعة فى معصمه وأردف قائلا :

ـــ لقد تأخرت على « جابى » .. لا بد أن القلق أصابها .. لأن نصف حاجيات الوليمة معى فى العربة .

وأجابت منى :

ـــ لا بأس .. سأذهب معك لأساعدها فى إعدادها .

وقال الرجل :

ـــ جميل .. ستذهبان معى إلى بيتنا رأساً ؟

وردت نادية قائلة :

ـــ أنا أريد أن أذهب إلى البيت أولا .. لأنى أحس أنى متربة ، ولا بد أن أستحم وأبدل ملابسى .. فإذا سمحت أنزلنى أمام البيت وسألحق بكم .

وكانت العربة قد وصلت إلى باب البيت فهبطت نادية ، وانطلق الرجل ومعه « منى » لتساعد ابنته فى إعداد الوليمة .

واتجهت « نادية » إلى « الدار » ، وعبرت الممر المفضى إلى الباب الداخلى بين أحواض الورد والقرنفل وذهنها يغافلها ، ويشرد فى الرسالة المنتظرة .

ولم تجد أحداً فى البيت سوى « الجدة » . و« مارى » ابنة العجوز بول .. كانت الأم وجانيت قد ذهبتا إلى بيت جابى .

وصعدت نادية إلى حجرتها بعد أن حيت الجدة ، ونزعت الإيشارب عن رأسها ، ووقفت أمام المرآة .. تفحص عنقها وأسفل أذنيها وذقنها .. كعادتها فى كل مرة تنزع الإيشارب .

كانت تأمل أن تحدث معجزة .. تزيل من جلدها المحترق هذه البقع والتجاعيد .. وكانت تحاول تدليك عنقها كلما انفردت بنفسها .. وكانت

تستعمل بعض المراهم التى وصفها الطبيب لعلاج جلدها عقب الحريق .. ولكن الجلد بقى على حاله .. بكل ما فيه من تشويه .

وتذكرت قول « منى » : « متى تواجهين الناس فى ثقة وشجاعة !! متى تكفين عن هذا الخوف ». كيف تواجه الناس .. بهذا العنق المشوه والجلد البشع .. إنها تكره أن تبصره عيناها هى .. فما بالها بأعين الناس !!

ومدت يدها بالمشط تسرح شعرها .. ثم عادت تحكم الإيشارب مرة أخرى حول شعرها ، وتشد الياقة حول عنقها ، حتى لا يفلت جزء من العنق المحروق ليفضحها أمام الناس .

من أجل هذا عادت إلى البيت .. لتحكم الرباط حول رأسها وعنقها ، ولتتأكد أن كل شىء فى وجهها على ما يرام . فقد كانت تحس أن حركتها خلال اليوم .. قد تفلت وثاق الإيشارب حول رأسها .

ألم يحدث هذا فى السفينة .. عندما هب النسيم .. مجرد نسيم .. فأزاح الإيشارب ، وفضحها .. أمام جمال ؟!

وهبطت « نادية » الدرج إلى أسفل ، ولم تكد تعبر باب البيت إلى الطريق حتى أبصرت عربة المسيو « رينو » تتوقف أمام الباب .

ودهشت « نادية » .. ولم تدر ما الذى أتى بالرجل فى هذه الساعة .. وتوقفت لاستقباله لكى تعتذر له عن خلو البيت من أهله .

ولم يهبط « رينو » من العربة .. ولكن هبط بدلا منه كاتب الحسابات العجوز ، وقد أمسك برسالة فى يده . وتهللت أساريره وبدت على وجهه أمارات الفرحة .

ومد يده بالرسالة قائلا :

ـــ وصلت الآن فقط .. لقد أتيت بها إليك كما وعدتك ، استأذنت مسيو « رينو » أن آخذ عربته ، فتفضل بإعطائها لى .

ومدت « نادية » يدها تتسلم الرسالة .. مشدوهة .. مأخوذة .. أخيراً

كتب إليها !

وبمثل هذه السرعة ؟!

غير معقول ، ولكن ها هى الرسالة .. فى يدها .. ولا بد أن تكون منه .. فرسائل عمها تصل إلى البيت ، وهى لم تعط عنوان المدرسة لأحد .

أجل .. لقد رد عليها .. ولا بد أن يكون قد رحب بالكتابة إليها .. فغير معقول أن يرد بهذه السرعة ليقول لا .

ووقف العجوز ينظر إليها فى دهشة ، وهى تمسك الرسالة كالمذهولة ، دون أن تنبس بكلمة ، وقال العجوز متضاحكا :

ـــ لقد صممت أن آتى بها إليك بمجرد أن وصلتنى .. حتى لو لم يعطنى مسيو رينو عربته .. فقد كنت أنوى إحضارها سائراً على قدمى .. بعد الغداء .

وأحست « نادية » أنها يجب أن تفيق من دهشتها .. لتقول شيئاً للرجل الماثل أمامها .. ينتظر بضع كلمات شكر على جميله .

ابتسمت « نادية » قائلة :

ـــ ما كان يجب عليك أن تتعب نفسك هكذا !

ـــ كيف ؟ إنى أعرف لهفتنا عندما ننتظر رسالة من عزيز علينا .. لقد قرأتها فى عينيك وأنت تسأليننى عنها فى مكتبى .

ـــ ولكنى لم أقصد أن أسبب لك هذه المشقة .

ـــ أبداً .. أبداً .. لا مشقة هناك .. إنك لا تدرين كم سررت عندما وصلت الرسالة ، وكم أسعدنى أن آتى بها إليك .

ـــ لست أدرى كيف أشكرك !؟

وضحك العجوز ، وهو يعود إلى العربة قائلا :

ـــ لعلك لا تنسين أن تمرّى علىّ كل صباح كما وعدت ؟

ـــ لن أنسى .

ـــ وتعزفى لى .. فالس دادبيه .. كل صباح ؟!

ـــ سأعزفه لك .. إذا سمحت لى مدام كلود .

ـــ دعى لى مدام كلود .

وعاد الرجل إلى العربة و « نادية » ممسكة بالرسالة ، وهى ما زالت فى ذهولها ، ورفعت الرسالة لتقرأ العنوان على المظروف ، وميزت به طابع مصر .

و لم تحاول فتح المظروف .. فقد أحست أن الرسالة من الخطورة بحيث يتعذر فتحها على قارعة الطريق ، وأنها تحتاج إلى خلوة ، وإلى وقت .

ولكنها لم تكن تستطيع أن تصبر حتى تجد الوقت والخلوة .

لماذا لا نعود إلى البيت لتقرأها ؟!

أو على الأقل لتفضها ، وتتأكد من توقيعه .

إنها لا تستطيع أن تصدق أنه كتب إليها حقاً .. أجل . يجب أن تدخل ثانية لتفض المظروف ، وتقرأ الرسالة .

وقبل أن تستدير لتخطو داخل البيت أبصرت عربة مسيو « كيلى » وقد أقبل بها ابنه « تونى » مسرعاً ومعه بعض الصحاب من الفتية والفتيات وهم يصيحون بها :

ـــ هيا يا نادية ، ما هذا التلكع ! إن الجميع ينتظرونك .

و لم تملك « نادية » إلا أن تطوى الرسالة بسرعة ، وتخبئها فى جيبها ثم تركب العربة قائلة :

ـــ لقد كنت فى طريقى إليكم .

ورد تونى :

ـــ لقد قالت « منى » إنك قد تبقين فى البيت لأنك تكرهين الضجيج ، فأصررنا كلنا على أن نحضر لأخذك .

ـــ لقد قلت لجانى إنى سآتى ، وإنى لا أخلف وعدى .

ووصلت الشلة إلى البيت ، وانتهت الوليمة الصاخبة .

وانهمك الفتية والفتيات فى اللعب والرقص ، « ونادية » فى شرودها

تتحسس الرسالة بين الآونة والأخرى .. خشية أن تكون وهماً أو حلماً .

وعندما انتهى الصحاب من لهوهم قرروا الخروج بالعربة ليشاهدوا أحد الأفلام .

وهنا أحست « نادية » أن فرصة الفرار قد حانت ، وأنها تستطيع أن تنسحب عائدة إلى البيت .

وقال « تونى » وهو يضع يده فى يدها :

ـــ هيا يا نادية .. أنت ضيفتى فى السينما .

ـــ إنى آسفة .. لأنى لن أستطيع الذهاب .

ـــ ولمه ؟

ـــ إنى أحس صداعاً شديداً فى رأسى ولا بد أن أستريح .

ـــ إنى سأضيع لك الصداع .. سأعطيك قرصاً .

ـــ لا . لا . إن خير ما أفعله هو أن أعود إلى البيت وأرقد .

وتدخلت « منى » قائلة :

ـــ لماذا يا نادية ؟! سنخرج كلنا سوياً ، وإذا أردت أن نذهب إلى أى مكان آخر غير السينما فسنفعل .

ـــ إنى متعبة يا « منى » ولا بد أن أستريح .

وحاول البعض التدخل لإقناعها ولكن « منى » قالت :

ـــ لا فائدة . دعوها .. إنها عنيدة ، وعندما تقول لن أذهب .. فهى فعلا لن تذهب .

حمدت « نادية لمنى » قولها .. فقد وفرت عليها مزيداً من الإلحاح ومزيداً من الاعتذار .

وانطلق الجمع الصاخب بعربة المسيو « كيلى » يقودها ابنه ، وعربة أخرى يقودها أحد الفتية ، وسارت « نادية » وحدها عائدة إلى البيت ويدها تتحسس الرسالة .

وبأصابع مرتجفة فضت الرسالة .

وأحست من الكتابة الكثيرة التى ضمتها سطورها أن خيبة أمل توشك أن تحدث .

لم تعقل أن يكتب إليها مدحت كل هذه السطور .

وبسرعة انتقل بصرها إلى السطر الأخير لتقرأ توقيع صبرى .

وأحست بشىء يعتصر باطنها .

شىء قاس أليم .

وأحست بالكره لصبرى .

لقد كان هو السبب فى خديعتها .

أجل .. لماذا كتب فى هذا الوقت بالذات ؟!

بل لماذا يكتب إليها ؟!

وقذفت بالرسالة فى ضيق .. والبكاء يكاد يخنقها .

وبعد برهة .. رفعت عينيها إلى النافذة .. فأبصرت البرد ما يزال يتساقط ولاحت لها قمم الجبال يلفها الضباب .

ورويداً رويداً .. عاودتها السكينة .

لماذا تظلم صبرى ؟

ألأنه سأل عنها وكتب إليها ؟!

ألأنه يحبها ؟!

ومدت يدها إلى الرسالة ، وأخذت فى قراءتها .

وعندما انتهت منها .. أحست بشىء من عزاء .

وفى الصباح ، وهى فى طريقها إلى حجرتها فى المدرسة ، وقبل أن تصعد الدرج .. أطلت على المسجل العجوز وأقرأته تحية الصباح .

ورد الرجل عليها فى بشاشة . ومد يده ملوّحاً برسالة فى يده :

ــ رسالة أخرى .. يا آنسة .. الظاهر أن الخير قد أتى مرة واحدة .

وذهلت « نادية » و لم تصدق أذنيها فى بادىء الأمر ، ولكنها دخلت غرفة الرجل ، وتناولت الرسالة .

و لم تحس لها بحماس شديد .. فلا يبعد أن تكون هى الأخرى من صبرى .

أجل لقد قال لها .. إنه سيكتب إليها .. حتى ولو لم ترد ، وليس من المستبعد أن يكون قد نوى ملاحقتها برسالة كل يوم .

وقرأت الظرف فرأت خطاً يختلف .

ودق قلبها بعنف ، و لم تستطع أن تصبر حتى تصل إلى حجرتها .. بل فضت المظروف وهى تصعد السلم .

و لم تكن الرسالة مزدحمة .. كانت بضعة سطور .. استطاعت أن تميز فى آخرها .. اسم « مدحت أبو العلا » .

وأحست « نادية » كأن السلم يميد من تحتها ، وأطبقت على الرسالة بأصابعها ثم انطلقت مسرعة إلى غرفتها .

وأغلقت الباب وجلست على مكتبها .

ومضت برهة وهى تحاول أن تتمالك نفسها ، وتهدىء من أنفاسها المتلاحقة .

وأخيراً فتحت الرسالة ، وأخذت تقرأ :

« أنا أيضاً لا أعرف كيف أسميك .. فإذا كنت عجزت عن تسميتى وأنت تعرفين عني ما زعمت أنك تعرفينه .. فكيف أسميك أنا .. وأنا لا أعرف حتى ما إذا كنت أنتِ أنت أم لم تكونيه ؟

« أنا أكتب إليك لأن جملة فى رسالتك حتمت علىّ الكتابة وهى قولك :

« لو عرفت ما يمكن أن يفعله ردّك بى .. لأجبت رجائى ورددت علىّ » .

« وهأنذا أجيب رجاءك وأرد عليك .. رغم حشيتى من أن تكونى خدعة . وأن تكون رسالتك أكذوبة .. أكتب إليك رغم أنى أشك فى حقيقتك وأخاف من أن تكونى رجلا يهدف إلى التغرير بى والسخرية منى .

« ولكن إذا كنت .. كذلك .. فلا أظن سخريتك يمكن أن تضرنى بقدر

يضيرك عدم ردّى إذا لم تكونى كذلك .

ولهذا فقط رددت عليك .

« فإذا كانت رسالتك مجوناً وعبثاً .. فمن الخير أن تكفى عن الكتابة إلىّ .. وإذا لم تكن .. فاكتبى إلىّ مزيداً عن نفسك .. من تكونين ؟ وماذا تريدين ؟

« إنى بطبعى لا أستطيع أن أخذل إنساناً .. أياً كان .. وأؤكد لك أنك كإنسان فى هذا الوجود .. مهما كنت ومهما كان موضعك ، فإن قولى يشملك . إنى لن أخذلك ، وسأفعل من أجلك كل ما أستطيع .. إذا كنت حقاً أملك لك نفعاً .

« ليس عندى ما أقول أكثر من هذا .

« قد يكون حديثى جافاً ، ولكن عذرى أنى لا أعرفك ، ولست واثقاً من حقيقتك .. ثم إنى فوق كل هذا لا أجيد الكتابة .

« لك تحياتى أياً كنت .. »   « مدحت »

(٢٧)

من أنا ؟!..

انتهت « نادية » من قراءة الرسالة وأحست وهى تمسك بها بين أصابعها أنها تود أن تضمها إلى صدرها .. وتشمها بأنفها وتمسها بشفتيها .

لم تحاول أن تفكر كثيراً فى محتوياتها .. أو تفحص معانيها وتزن مضمونها .. كانت تحس بها — فى جملتها — بورقها وسطورها ومدادها .. شيئاً عزيزاً .. بغض النظر عما تحتويه من معان وتهدف إليه من أغراض .

كانت « نادية » تحس أنها تمسك لأول مرة .. جزءاً منه ، من أوراقه .. ومن كتابته .. ومن أفكاره .

لقد ظفرت وهى فى غربتها النائية .. بما لم تستطع به وهى على بعد خطوات منه . لقد خاطبته من وراء الجبال والبحار .. وسمعت ردّه .. عبر آفاق وآفاق .

أياً كان ردّه .. ألا يكفى أنه أجاب ؟

ومرة أخرى عادت تقرأ الرد .. فى تمهل وإمعان .

إنه هو .. بنفس كبريائه وصرامته .. وباطنه الطيب .. وقلبه الكريم .. الذى يكره أن يخذل إنساناً .. مهما كان .

لقد كتب إليها رغم شكوكه فى حقيقتها .. ورغم خوفه أن تكون قد قصدت إلى التغرير به السخرية منه « فإذا كانت رسالتك مجوناً وعبثاً ، فمن الخير أن تكفى عن الكتابة إلىّ ، وإذا لم تكن .. فاكتبى إلىّ مزيدا عن نفسك . من تكونين ؟

وماذا تريدين ؟ » .

لقد طلب منها أن تكتب عن نفسها إذا لم تكن رسالتها مجوناً .. وعبثاً !

مجون وعبث ..!!

ليتها كانت كذلك .. إذن لأراحت واستراحت .

ولكنها ليست كذلك .. والمطلوب منها أن تقنعه أنها ليست كذلك .. وأن تكتب إليه .. لتقول له من تكون ، وماذا تريد !!

ولكن .. من تكون ؟!

أو على الأصح .. ماذا يمكن أن تكون بالنسبة إليه ؟!

وماذا تريد !!

يكتب إليها .. أهذا كل ما تريد ؟!

يكتب إليها عماذا ؟! ماذا يقول ؟!

وأحست « نادية » بالحيرة .. وتملكها الوجل والخشية .

وعادت تقرأ فى سطور الرسالة :

« إنى لن أخذلك .. سأفعل من أجلك كل ما أستطيع .. إذا كنت حقاً أملك لك نفعاً » .

وأحست .. شيئاً من الطمأنينة .

إنه لن يخذلها .. وهو حقاً يملك لها النفع كل النفع ..

إنها تريد أن يحدثها كصديق وأن ينبئها بأخباره .. ويسمع منها أخبارها .

ماذا بعد ذلك ؟!

ماذا بعد أن تتوطد الصداقة بينهما على بعد المسافة ؟! أتأمل فى شىء أكثر من هذا ؟!

فى لقاء مثلا .. أو فى إعجاب .. وحب !!

لا .. لا .. إنها لا تطمع فى شىء من هذا .. بل إنها تخشى اللقاء حتى لا يكشف أمرها .. ويهتك سترها الذى تحجب به ما بوجهها من تشويه .

إذن ما النهاية ؟!

ما نهاية كل هذا .. الذى تسعى إليه ؟!

ولكن لماذا تضايق نفسها من الآن بالنهاية ؟!

أكل شيء نقدم عليه فى حياتنا ، نتصرف فيه على أساس نهايته ؟! حياتنا مثلا ، هل نقيم تصرفاتنا فيها حسب نهايتها ؟!

لو كان الأمر كذلك .. لما أقدمنا فيها على شيء .. ولرقدنا على ظهورنا .. ننتظر النهاية .. فلماذا إذن تحاول أن تشكل تصرفاتها فى حبها .. على أساس نهايته .. لا .. لا .. إنها ستكتب إليه .. ستذكر له المزيد عن نفسها .. وستحدثه عما تريد .. وتسأله أن يكتب إليها .. دائماً .. دائماً .

ولتكن النهاية .. ما يمكن أن تكون .

ومدت « نادية » يدها إلى درج على يمينها وأخرجت منه كراسة رسائل زرقاء .

وأطلت ببصرها من النافذة ، ليتخلل فروع السنديانة إلى الأفق البعيد .. حيث قامت الجبال الشاهقة بقممها البيض ، كأنها سد ضخم يحول بينها وبين أرض الأحلام .. ووطن الأمانى .. الأرض الخضراء المنبسطة التى لا تحتجب عنها أشعة الشمس .. والوطن الذى يضم بين ربوعه عبقريها الطويل ، العريض المنكبين .. الصارم القسمات .. الرقيق القلب .

وعاد نظرها من الأفق ليعبر فناء المحطة .. وقد خلا إلا من « كلب » ناظر المحطة .. وحمّال يسير متثاقلا قد انكمش جسده تحت معطفه .. ثم استقرت عيناها على الكراسة الخالية .. وتملكها شعور بالرهبة وهى تضع سن القلم فى أعلى الورقة .. لتبدأ الكتابة .

كيف تناديه ؟! وماذا تقول له ؟!

إنها تحس أن مصير أمانيها .. وأحلامها .. يتوقف على ما ستخطه يداها .

إن عليها أن تقنعه .. بأنها حقيقة .. وليست خدعة ولا أكذوبة .. ثم تقنه بعد ذلك ، بأنها فى حاجة إليه .. إلى كتابته . وإلى صداقته .. وإلى .. حبه .. إ أمكن ، وأنها لا تعبث به ، ولا تسخر منه .

كل ذلك يجب أن تؤديه ، السطور التى سيخطها هذا السن الرابض على حرف الورقة .

وأغمضت عينيها .. وهى تحس بعجز تام عن الكتابة .

وفجأة تعالى من ورائها ، النغم البطىء .. ذو الخفقات المنفصلة المتباعدة ، الذى ينساب إلى النفس متدفقاً متصلا ، وأحست بشىء جامد فى باطنها يذوب .

وتحرك سن القلم .. ليؤدى مهمته الخطيرة .

« سيدى الفاضل .

« لا أظنك تدرك .. أى شىء فعله ردّك بنفسى .

« هذا الرد الذى لم تفصح به عن شىء ، سوى أنك رددت علىّ لأنك تخشى أن تخذل إنساناً يرى نفسه فى حاجة إليك .

« ويعلم الله لم أكن أتوقع أكثر من هذا .. ولا آمل فى خير مه ، أن ترد علىّ .. مجرد رد .. كى تمنحنى بصيصاً من أمل ، يشجعنى أن أخبرك من أنا ، وماذا أريد .. وأن أكتب إليك بشىء من التفصيل ، دون أن أحس بأنى أفرض عليك نفسى وأكرهك على سماعى .

« أكتب إليك .. وفى نفسى شىء من الطمأنينة ..طمأنينة المستأذن ، يؤذن له .. أو الطارق ، يسمح له بالدخول .

« أكتب إليك ، وقد زال من نفسى ، وجل المتسلل ، ورهبة المقتحم .

« ومع ذلك .. ورغم ما أحسست به من طمأنينة المستأذن .. ورغم زوال وجل المتسلل .. ورهبة المقتحم .. أحس أنى قد استبدلت وجلا .. بوجل .. ورهبة برهبة .. وأنى لم أكن أواجهك ، لأقول لك من أنا وماذا أريد ، حتى أحسست بفمى يتلعثم ..ولسانى ينعقد .

« وإذا بى .. بعد كل ما كتبت .. لا أعرف كيف أقول لك من أنا .. وماذا أريد .

« ومع ذلك .. أحس أنى لا بد أن أجتاز الاختبار ، اختبار الثقة الذى عقدته لى .. ولا بد أن أقنعك بأنى ، لست خدعة .. ولا أكذوبة .. وأنى لا أغرر ولا أضلل ، وأنى حقاً أحتاج إليك . لا أعبث ولا أسخر .

« أنا .. كشىء مادى .. لا أظن وصفى بالشىء العسير .

« فلنبدأ بهذا الجزء السهل من المهمة .

« أنا .. كما قلت لك — « نادية » — فى الثامنة عشرة من عمرى ، شقراء ، خضراء العينين ، مقبولة الشكل ، ولعلى بهذا التعبير أستطيع أن أتجنب مبالغة الغرور ، أو إنكار التواضع .

« أبى مصرى وأمى فرنسية .. كنا نعيش فى مصر ، ومات أبى .. فاضطررنا أنا وأمى وأختى التوءم .. أن نرحل إلى « حاب » موطن أمى .. تجنباً لمتاعب المعيشة .

« وقد استقر بنا المقام فى بيت أمى .. وعملت أنا وأختى فى مدرسة للأيتام .

« هل هناك تفصيلات أخرى ؟!

« لا أظن .

« هذا هو .. كل ما فى « أنا » .. كشىء مادى ، لا أظن بى أكثر من ذلك من ناحية التفصيلات الرئيسية ، ولا أظن التفصيلات الثانوية ، يمكن أن تضيف إلىّ شيئاً كثيراً .. فى نظرك .

« بقى أن أقول .. من « أنا » .. كشىء معنوى .. المخلوقة .. المجنونة — كما لا أشك قد ظننتنى — التى تسكن جبال الألب ، والتى تكتب إلى طبيب فى مصر .. تسأله أن يكتب إليها ، زاعمة أن كلماته هى خير عزاء لها فى غربتها .

« بقى علىّ أن أقول .. من أنا كشىء معنوى .. لأقنعك كيف يمكن أن تكون هذه الصورة التى بدت فى ذهنك فى أول الأمر .. أكذوبة أو خدعة .. حقيقة واقعة .. حارة ، مخلصة .. لا عبث فيها ولا سخرية .

« أنا مخلوقة . قد شدّت نفسها إلى نفسك .. من حيث لا تدرى .

« لا تدرى أنت .. ولا تدرى هى .. ولا أظن أحداً يمكن أن يدرى غير هذا المدبر الذى يدبر أمرك وأمرى ، وأنا فى جانب من الأرض وأنت فى الجانب الآخر .

« والذى يعلم وحده .. كيف شددت إليك نفسى .. ولِمَه ؟!

« كان ذلك منذ بضع سنوات .. عندما أبصرتك فى النادى.. كمخلوق.. فظ .. قاس .. ونفرت منك .. بطبعى الرقيق .. وإحساسى المرهف .. عندما رأيتك » .

وتوقف قلم « نادية » ، وهى تحس بوقع خطوات تقترب من الباب ، وطوت رسالة مدحت ووضعتها فى جيبها ثم قلبت صفحة الكراسة ، وفتح الباب واندفعت « منى » تهتف قائلة :

ـــ نادية ؟!

والتفتت إليها « نادية » وهى تهز رأسها متسائلة :

ـــ ماذا تريدين ؟

واندفعت منى قائلة :

ـــ اسمعى .. سنخرج اليوم .. للانزلاق على الجليد .

ونظرت إليها « نادية » متسائلة فى دهشة :

ـــ انزلاق على الجليد ؟!

ـــ أجل .

ـــ مَنْ ؟!

ـــ أنا وأنت .

ـــ أتعرفين كيف تتزحلقين على الجليد .. أم تنوين أن تدق عنقك ؟!

ـــ هل سمعت عن أحد دق عنقه فى الجليد .. يا غبية !!

ـــ سأسمع غداً إن شاء الله .

ـــ اسمعى . أنا لا أمزح .. هل ستأتين معى .. أم لا ؟!

ـــ معك إلى أين .. أيتها المجنونة ؟!

ـــ سنخرج مع تونى وجانى .. وبقية الشلة .. وقد أعدوا أدوات الانزلاق .. الزحافات والعصى .. وسنصعد الجبل ونقضى اليوم فى الانزلاق على الجليد .

ـــ تقصدين أنهم سيقضون اليوم فى الانزلاق على الجليد ؟

ـــ بل أقصد نحن .. كلنا .

ـــ أنا وأنت سننزلق على الجليد ؟! هل سبق لنا هذا ؟! كونى عاقلة !

ـــ سنتعلم .. لقد قال لى « تونى » إنها مسألة بسيطة جداً وسيعلمنا فى نصف ساعة .. سنلتقى كلنا فى الساعة الثانيه عشرة عند ناصية الشارع أمام محل التصوير .

ـــ الساعة الثانية عشرة .. والمدرسة ؟!

ـــ لن يكون عندى عمل بعد الثانية عشرة .

ـــ ولكنى ..

ـــ لا تزعمى أن عندك عملا .. تستطيعين أن تخدعى كلود .. ومسيو رينو .. وتوهمينهما بمشقة ترتيب البطاقات وإعداد الملفات .. أما أنا فأعلم أنك تقضين نصف وقتك فى السرحان والحملقة من زجاج النافذة .. والتفكير فى ذلك السخيف الكشر .. الذى تتوهمين أنك تحبينه .

وحملقت « نادية » فى وجهها فى دهشة قائلة :

ـــ منى .. ما هذا الهذيان الذى تقولين ؟!

وربتت « منى » ظهرها وهى تقول ضاحكة :

ـــ أنا التى أهذى !! متشكرة .. أنت لا تسرحين ولا تحبين .. هذا الحيوان الطويل .. العريض .. الذى ...

ـــ لا تقولى عنه حيوان .

ـــ رجعنا !! ألم تزعمى أنك لا تسرحين فيه ؟!

— أسرح فيه أو لا أسرح .. لا داعى لأن تتكلمى عن الناس بمثل هذه الوقاحة .
— متأسفة .. انتهينا .. هل ستأتين معنا ؟!
— قلت لك .. لا .
— بل ستأتين .
— لا .
— إن لم تأت سأذهب وحدى .. وسأندفع فى الانزلاق حتى تدق عنقى .. وتكونين أنت مسئولة عن وفاتى .
— فى داهية .
— هكذا ؟!
— أجل هكذا .. ما دمت أنت لا يهمك نفسك .. فماذا يهمنى أنا ؟!
وهزّت « منى » كتفيها .. قائلة وهى تتجه نحو الباب :
— إذن سأذهب وأنزلق .. وأجهد نفسى حتى ..
ونادتها « نادية » قائلة :
— اسمعى .
— ها .
— تعالى هنا .. متى ستغادرين المدرسة ؟!
— فى الحادية عشرة والنصف .
— مرّى علىّ قبل أن تنصرفى .
— ولِمَه ؟! ألم تقولى إنك .. لن تذهبى !؟
— سأذهب .
— وتتزحلقين ؟!
— بل سأسير لمراقبتك .
— المهم أن تأتى .. وستتزحلقين رغم أنفك .
ولمحت « منى » كراسة الرسائل فهتفت متسائلة :

ــ ماذا كنت تفعلين !؟

وبدا على « نادية » الارتباك ، وأجابت قائلة :

ــ كنت .. كنت .. أنوى الكتابة .

ــ لمن ؟!

ــ لصبرى .

ــ لصبرى ؟

ــ أجل .. سأرد عليه .

ــ ستردين عليه .. هل كتب إليك ؟

ــ أجل .

ــ وكيف عرف العنوان !؟

ــ من عصام .

ــ الحمار .. هل يعرض رسائلى للناس ؟!

ــ ولِمَ لا يكون أعطاه العنوان دون أن يريه الرسالة .

ــ معقول .. ومتى وصلتك رسالة صبرى ؟!

ــ بالأمس .

ــ ولماذا لم تخبرينى ؟!

ــ نسيت .

ــ طبعاً .. لو كانت رسالة من حبيب القلب .. لما نسيت .. أين هى ؟! ماذا قال لك ؟!

ــ أظنها .. فى الحقيبة .

ومدت « منى » يدها إلى حقيبة « نادية » وفتحتها ثم سحبت رسالة صبرى وأخذت فى تلاوتها .

وقالت « نادية » محاولة التخلص من « منى » :

ــ ليس هذا وقت قراءتها يا منى .. عودى إلى فصلك .

ولم تجب « منى » بل استمرت فى تلاوة الرسالة بسرعة ، وهى تقفز السطور أربعاً فى أربع ، وأخيراً قذفت بها من يدها قائلة :

ـــ مغفل .. مازال يتحدث عن صفقة الأسلحة .. ومؤتمر باندونج ، والتعايش السلمى ، والحياد الإيجابى .. متى ينوى أن يتعلم الحب ؟!

ـــ دعيه هكذا .. فلست أدرى كيف يمكن أن أجيبه ، لو أنه كتب إلىّ رسالة حب .

ـــ وكيف تنوين أن تجيبيه الآن ؟!

ـــ سأنفخ فى روحه ، وأذكى حماسه .

ـــ يا بنت الصرم !!

ـــ « منى » اخفضى صوتك ، وكفى عن هذه البذاءة .

ـــ لا تخافى شيئاً ، ليس هنا من يفهم العربى .. أنت تنوين إذن أن تنفخى فى روحه .. وتجاريه بمثل سخافته !!

ـــ ليست هذه سخافة يا منى .. إنها حقائق . إن مصر الآن تمر بنقطة تحوّل فى تاريخها كله .

ـــ وما لنا نحن بهذا ؟!

ـــ كفى عن هذا الاستخفاف .. وإلا لن أتحدث معك .

ـــ لا تغضبى . إنى أتساءل حقاً . مالنا نحن بهذا التحوّل !

ـــ إنه مصيرنا .. مصير كل مصر .. وأجيالها القادمة . فعندما نملك حريتنا .. نستطيع أن نهيىء لأنفسنا مستقبلا أفضل ، وحياة أكرم .

وأجابت « منى » وهى تهز رأسها غير مقتنعة :ـــ ها .

وبحركة غير إرادية .. مدّت يدها ، وتناولت كراسة الرسائل .. تقلبها فى يدها ، فى غير اكتراث .

وبلا أى قصد .. لمحت السطور الأولى من الكتابة .

وفى لمح البرق ، اختطفت « نادية » الكراسة من يدها .

ومضت برهة .. و « منى » تحملق فى دهشة ، وفجأة برقت لها الحقيقة .. فصاحت مشدوهة :

ـــ يا بنت الإيه .. تكتبين إليه ؟!

وتصاعدت الدماء إلى وجه « نادية » وهتفت قائلة :

ـــ لمن ؟!

ـــ له .. للدكتور مدحت .

ـــ من قال لك ؟!

ـــ أراهنك .. مائة جنيه .. لقرش صاغ .

ـــ لا ليست له .

ـــ إذن أرينى الكراسة ؟!

ـــ لن أريها لك .

ـــ أرأيت .. « لا أظنك تدرك أى شيء فعله ردّك بنفسى ».. من يمكن أن تقولى له هذا ، صبرى ، أم جمال ، أم عصام ؟

صمتت « منى » فجأة وخيمت على وجهها سحابة من قلق ، وعادت تقول فى شك :

ـــ اسمعى ! لماذا تخفين عنى الرسالة ؟!

وأدركت « نادية » ما ساور « منى » من شكوك ، فلم تملك أن تمنع ضحكة فلتت من شفتيها برغمها وتساءلت :

ـــ أيتها البلهاء .. ماذا ظننت بى .. أظننت أنى أكتب لعصام .. أيمكن أن تفكرى بمثل هذه السخافة ؟!

وانقشعت الوساوس بسرعة من ذهن « منى » ولكن صممت على استغلال الفرصة فأجابت :

ـــ من يدرى .. لماذا إذاً لا تريدين أن ترينى الرسالة ؟! ألم أطلعك أنا على كل أسرارى ؟!

وترددت « نادية » برهة .. ثم قالت :

ـــ ولكن ، هذه الرسالة .. أقصد ..

ـــ تقصدين ماذا ؟ أريني الكراسة ، وكفى عن هذه السخافة .

ـــ سأريها لك فيما بعد ، يجب أن تنصرفى إلى فصلك .

وأجابت « منى » فى عناد وإصرار :

ـــ لن أتحرّك من هنا حتى أراها .

ودفعت إليها « نادية » بالكراسة فى غيظ قائلة :

ـــ خذى .. ولكن إياك والسخرية .

وهزت « منى » رأسها وهى تبتسم ، وتناولت الكراسة قائلة :

ـــ أنا أسخر .. حاشا الله !!

ـــ لو سمعت كلمة سخرية .. فسآخذها منك ولن أريك شيئاً بعد ذلك .

وقرأت « منى » بضعة أسطر من الرسالة ، ثم رفعت رأسها متسائلة :

ـــ أقد ردّ عليك حقيقة ؟!

ـــ أجل .

ـــ ومتى كتبت إليه ؟!

ـــ منذ أسبوع .

ـــ ولماذا لم تخبرينى ؟!

ـــ خشيت ألا يجيب علىّ .. فأعرض نفسى للسخرية .

ـــ وأين رسالته ؟!

ـــ ومدت « نادية » يدها فى جيبها ، ثم أخرجت الرسالة قائلة :

ـــ اسمعى يا « منى » .. ليس هذا وقته .. وسيتضايق مسيو رينو .. إن وجد الفصل وحده .. ورآك تقفين معى فى الحجرة .

ـــ إن التلاميذ فى الفسحة .

ـــ لقد دخلوا الفصل منذ خمس دقائق .

ـــ حقاً ؟!

وقبل أن تغادر « منى » الغرفة خطفت رسالة مدحت من يد « نادية » وقرأتها بسرعة ، ثم قلبت شفتيها قائلة فى سخرية :

ـــ يخشى أن تكون أكذوبة أو خدعة . ماذا يظن نفسه .. جان كوكتو .. مغرور .. لو كنت منك .. لعرفت كيف أريه ؟

وسلمت « نادية » الرسالة قائلة فى تحذير :

ـــ اسمعي إياك أن ترسلى الرد قبل أن أقرأه .. أنا أعرف .. إنك غشيمة .. فى الغرام .. وأخشى أن تندلقى فى الكتابة .

وهزّت « نادية » رأسها ، وهى تدفعها نحو الباب قائلة :

ـــ حاضر .. سأريها لك .. اذهبى الآن قبل أن يخرج التلاميذ للبحث عنك .

وخرجت « منى » من الحجرة .

وجلست « نادية » وحدها ثانية .. وقلبت الكراسة على الصفحة التى كانت تكتب فيها ، ومرة ثانية شرد بصرها من النافذة .

وقبل أن تعاود الكتابة .. سمعت وقع أقدام أخرى .

وكانت السيدة « كلود » هذه المرة .. طوت « نادية » الكراسة ووضعتها فى الحقيبة ونهضت لاستقبال السيدة محيية .

ـــ صباح الخير .

ـــ صباح الخير يا نادية .. أعندك مانع أن تخرجى لعزف النشيد للتلاميذ فإن لدىّ موعداً هاماً يضطرنى للخروج ؟

ـــ سأخرج إليهم حالا .

ولم تكد تنتهى من عزف النشيد .. ولم يكد التلاميذ يتفرّقون إلى الفناء حتى أبصرت « منى » تقفز صاعدة إلى السلم ، وهى تصيح بها :

ـــ هيا بنا .. إن جابى تنتظر فى الفناء .

وبدا التردد على وجه نادية وأجابت :

ــ أمصرة على هذا التزحلق ؟!

ــ إنها فرصة هائلة .. كي تتعلميها .. كيف تنوين عندما نعود إلى مصر .. ألا نقص عليهم كيف تزحلقنا على الجليد !

ــ أمن أجل هذا تتزحلقين ؟!

ــ طبعاً .. سأصف لعصام .. أول رحلة خرجناها للتزحلق على الجليد .

ــ يمكنك أن تصفيها غيباً .. من الذاكرة .

ــ أنا لا أحب الكذب .

ــ أنت أكبر كذابة .

ــ أنا التى أرسل رسائل دون أن أقول .. وأكتب فقط لصبرى .. عن باندونج والتعايش السلمى. أنا التى ...

ــ انتهينا .. هيا بنا .. سأستأذن من مسيو رينو قبل أن أذهب .

ــ يا شيخة .. لا تدققى .. إن مسيو رينو .. فى غيبوبة . عندما يسألك هل استأذنت قولى له أجل .. هل تظنينه يتذكر شيئاً .. هيا .. هيا .

وانطلقت الفتاتان من المدرسة .. تصحبهما جابى .

وأمام محل التصوير كانت « الشلة » قد اجتمعت .. خليط من الفتية والفتيات .. وقد التفوا حول عربة تونى ، وعربة أخرى .

وبعد لحظة انطلقت العربتان إلى أعلى الجبل .. تحت رذاذ المطر .. ونتف البرد .

وأحست « نادية » بلسعة الصقيع ، عندما أخذت العربة تصعد بهم .. ونظرت إلى « منى » متسائلة :

ــ أتحسين بالبرد ؟

وأجاب تونى : ــ سندفأ حالا .. عندما نبدأ الانزلاق . .

وعلى سفح الجبل هبطت الشلة وساروا يحملون أدوات الانزلاق .

وشرد ذهن « نادية » ، وهى تبصر مسطحات الجليد بيضاء رائعة .. كما كانت تراها فى الأفلام السينمائية .. وترى المدينة تبدو من أسفل الجبل ، وقد غشاها ضباب خفيف ، أشبه بغطاء من الدانتللا .

وكما تعوّدت فى كل متعة تحس بها .. بدأ ذهنها يرسم لها رفيق أحلامها .. وتصوّره أوهامها .. وهو يسير بجوارها .. حاملا العصى والزحافات .

أى متعة كانت تصيبها .. لو هيأ لها القدر صحبته على قمم هذه الجبال العجيبة !!

(٢٨)

لم أعرفها بعد !

عادت « نادية ومنى » إلى البيت قبل الساعة الثالثة ، واجتازتا باب البيت لتجدا المدفأة قد أوقدت وألسنة النيران تتلاعب حمراء فى جوفها .

وأقبلت « منى » على المطبخ لتصيح :

ــ مارى .. أكاد أموت جوعاً .

وصاحت الأم من حجرة الجدّة :

ــ طبعاً .. بعد هذا الجهد الذى بذلته .. ألم أنصحك بعدم الذهاب معهم ؟!

وقالت « نادية » وهى تصد عنها ما يحتمل أن توجهه إليها الأم لمطاوعتها لها فى الانزلاق :

ــ لقد نصحتها أنا أيضاً .

وردت الأم ساخرة :

ــ ثم ذهبت معها ؟..

ــ لأتأكد أنها لن تجهد نفسها .

ــ وهل فعلت ؟

ــ بقدر المستطاع .

ــ وتدخلت الجدّة قائلة وهى تضحك :

ــ يا جماعة اتركوها تلعب ، إنها أدرى بطاقتها ، وجهدها .

واقتربت « منى » من الجدّة واحتضنتها قائلة :

ــ أنت أعقل جدّة رأيتها .. لست أدرى لماذا لم تكونى أمى ؟

وقالت « نادية » وهى تنفض عن ثيابها نتف البرد :

ـــ لقد كان الانزلاق لذيذاً .. لم أتصور أنى سأتعلمه بمثل هذه السهولة .

وردت « منى » قائلة :

ـــ علماً بأنك خائبة بطبيعتك .. إنها المرة الأولى التى أراك تقدمين على المغامرة فى لعبة من الألعاب .

وأحست « نادية » بمدى ما فى قول « منى » من الصحة ، ولم يستعص عليها معرفة الدوافع التى دفعتها إلى خروجها عن طبيعتها الساكنة المنطوية ، والاشتراك مع الشلة فى العدو والانزلاق .

كان أول هذه الدوافع .. إحساس بالسعادة يبدد ذلك اليأس الذى تعوّدت أن تحيط نفسها به ، وشعور بأن هناك شيئاً جميلا ينتظرها .. أشبه بذلك الشعور الذى يحس به الصبية قبل ساعات النزهة .. أو أيام الأعياد .

يضاف إلى ذلك .. رغبتها فى أن تخلق لنفسها شيئاً تكتب عنه ، وتقص تفاصيله .. ثم تخيلها بأنها تقدم على شىء يحتمل أن يشاركها فيه .. ولو بالوهم .

ورصت صحاف الطعام ، وانتهت الفتاتان من تناول طعامهما بسرعة ، وصعدت كل منهما إلى حجرتها .

وقالت نادية لمنى وهى تغلق على نفسها باب الحجرة :

ـــ لا أريد دوشة ، ولا إزعاجات .

ـــ مفهوم .. يافندم .. مفهوم .

وقبل أن تغلق الباب سمعت صوت أمها تصيح بها :

ـــ لا تنسى أن تكتبى إلى عمك يا نادية ، قولى له إننا جميعاً بخير وهنئيه بخطبته .

وأجابت نادية :

ـــ حاضر يا ماما .

ثم وجهت القول لمنى :

— ستردّين على عمك سليمان هذه المرة ؟!

— حاضر يافندم .. هل تريدين أن أرد على صبرى ، وأن أكتب لجمال أيضاً ؟!

— لا تسخرى يا منى .. اكتبى لعمك فقط .. لأنك لم تكتبى له أبداً ، منذ وصلنا .

— وأنت .. ألا تنوين تهنئته بخطبته ؟

— سأكتب إليه بالطبع ، ولكن كتابتى لن تغنى عن كتابتك ، واذكرى أنك ستحتاجين إليه دائما .. من أجل عصام .

— أجل .. معك حق ، لقد كتب لى عصام . أن الفرسان رفضوا انتدابه لإدارة الجيش ، وأنه هو نفسه كتب إقراراً بأنه يفضل الخدمة فى القوات المدرّعة ، وأضاع كل دراسته للحقوق سدى .

— أنت السبب فى ضياع أربع سنوات من عمره ، لو دخل الكلية الحربية من أول الأمر لأضحى الآن يوزباشياً .

— وهل كنت أعرف أن الجيش سيقوم بثورة ؟. وأنه سيصبح بعد الثورة جيشاً حقيقياً ؟ على أية حال . إنه لم يخسر شيئاً .. لقد حصل على شهادة ثقافية ، وعندما يمل من القوات المدرّعة .. يستطيع أن يعمل فى المحاماة .

— عصام ، لا يصلح أبداً لأن يكون محامياً .

— إذن سأوصى عمى سليمان بأن يأخذه معه .

— أوصيه بما تشائين ، كل ما أطلبه منك هو أن تتركينى بلا إزعاجات .

— على أن ترينى الرسالة قبل إرسالها ؟!

— حاضر .

وأغلقت نادية الباب ، وأوت إلى حجرتها وحيدة ، وكان المطر قد أخذ يتثاقل وازدادت طرقاته على زجاج النوافذ .

وأخرجت « نادية » الكراسة الزرقاء ، وبدأت فى قراءة ما كتبت ، وشردت

ببصرها برهة ترقب قطرات المطر ، والسماء الملبدة بالغيوم .. ثم عاودت الكتابة .

وفى الصباح .. كانت نادية تقف أمام صندوق البريد ، وتركت ثلاث رسائل تنزلق من بين أصابعها إلى فتحة الصندوق .. لتتخذ طريقها إلى القاهرة ، اثنتان إلى كلية الطب بجامعة عين شمس ، واحدة إلى مدحت ، وأخرى إلى صبرى . أما الثالثة ، فقد جاوزت العباسية إلى كوبرى القبة حيث البكباشى سليمان فى سلاح الفرسان .

وصلت الرسالة الأولى إلى مدحت .. لتستقر على مكتبة فى مستشفى الدمرداش ، وتبقى فوق كوم من الأوراق ، لا تمسها يد ، وهو يمر بها فى لمحات خاطفة بقسماته الصارمة وملامحه المتجهمة ، بين عملية وعملية أو محاضرة ومحاضرة ، وهو يصيح بالطلبة ، وينهر الممرضات ، حتى جلس « جاد الله » فى ظهيرة اليوم التالى على حافة المكتب وأخذ يتسلى بالعبث فى الأوراق .

ولمح الرسالة ، فأمسك بها هاتفاً فى دهشة :

ــ رسالة جديدة ، من مجنونة الألب ؟

ورفع مدحت حاجبيه الثقيلين ، وتساءل فى غير اكتراث :

ــ ممن ؟

وعاد « جاد الله » يلوّح بالرسالة فى يده وهو يقول :

ــ من مجنونة الألب .. التى تتلهف على ردّ منك .. لتنقذ حياتها .. هل كتبت إليها ؟!

وهز مدحت رأسه قائلا :

ــ أجل .. كتبت .

وصاح جاد الله فى دهشة :

ــ كتبت إليها ؟. عجيبة !!. ومن علمك كتابة رسائل الغرام ؟!

ــ من قال لك إنى كتبت إليها رسالة غرام ياغبى !!

— أقل ما فيها .. إنها تسأل أن ترد روحها .. هل كتبت إليها روشتة .. أم طلبت إليها أن تحضر إليك لجز رقبتها ؟!

— أتستخف دمك ؟!

— إذن قل ماذا كتبت إليها ؟

— كتبت إليها بضع كلمات حتى لا أخذلها .. إن كانت حقيقة .

— ها .. لم يطاوعك قلبك على صدّها ، ولكن ألم تخش أن تكون خدعة ؟!

— خدعة .. خدعة !! هل تظنها أول أو آخر خدعة أصاب بها ؟!

وهزّ جاد الله الرسالة فى يده قائلا :

— لقد أجابت على ردّك .. سنعرف الآن .. حقيقتها ، ولا أظن الخدعة يمكن أن تنطلى مرتين .

وبإبهامه وسبابته فتح المظروف قائلا :

— لنر ماذا تقول ساكنة الألب !

وقبل أن يخرج جاد الله الرسالة مدّ مدحت يده واختطفها قائلا :

— من أذن لك ؟

وضحك جاد الله :

— لم أكن أظن بها شيئاً يستحق الاستئذان .. هل أضحت بينكما أسرار .. تخشى عليها ؟!

— أسرار ؟!! هكذا سريعاً ؟

— أم تخشى أن أطلع على خديعتك ؟

— لا هذا ولا ذاك .. إنها مسألة مبدأ .. لا أحب أن تهون الرسالة حتى أتركها فى يدك العابثة .

— إذن اقرأها لى أنت .. أسمعنا .

وفتح مدحت الرسالة وأخذ يتلو سطورها الأولى فى استخفاف ، وما لبث صوته أن خفت وبدت عليه علامات الاهتمام وهو ينتقل بعينيه من سطر إلى

سطر ، وعندما انتهى من الورقة الأولى وضعها على المكتب ، فاختطفها جاد الله وانهمك فى تلاوتها ، وظل يتابع القراءة وراء مدحت حتى وضع مدحت آخر ورقة على المكتب وهز رأسه ببطء وهو يقول فى دهشة :

ـــ عجيبة !

و لم يجب جاد الله فقد كان منهمكا فى القراءة حتى أتم الرسالة ، و لم يملك إلا أن هز رأسه وقال بنفس اللهجة :

ـــ إما أن تكون مخلوقة ماهرة جداً .. وذكية جداً .. أو .. أو تكون حقيقة .

وردد مدحت قوله متسائلا فى شرود :

ـــ حقيقة !!

ـــ ولِمَ لا ؟!

وفجأة رفع مدحت كتفيه ثم أزاح أوراق الرسالة فى ضيق وملل قائلا :

ـــ حقيقة أو غير حقيقة .. مالى أنا بها .. بلا وجع رأس .. أنا فاضى ؟

وصمت برهة ثم عاد يهز رأسه قائلا :

ـــ أنا لا أعرف كيف أكتب كلمتين على بعضهما .. ماذا أستطيع أن أفعل لها ..؟

وتناول جاد الورق الأخيرة من الرسالة وأخذ يتلو السطور التى ختمت بها الرسالة :

« .. ترى هل عرفت كيف أقول لك من أنا ؟!

« هل عرفت بعد كل هذه الصفحات .. أن أعرفك بنفسى ؟. بحقيقتى..؟

« هل استطعت أن أقنعك بأنى صادقة مخلصة .. وأننى لست وهماً ولا خدعة .

« ليتنى أكون قد استطعت .. فعلى اقتناعك .. تتوقف . ماذا أقول ؟.. هل أكون مبالغة .. لو قلت لك .. حياتى ؟

« فعلا .. ربما .. أكون مبالغة .. فلا أظن حياتنا المادية .. تتوقف .. إذا ما

حطم الناس معنوياتنا .. أجل لست أظن اليأس قاتلى ، ولو كان .. لقضيت منذ زمن بعيد .

« لكى أكون أكثر دقة .. أقول لك .. إن على اقتناعك .. بصدق وإخلاصى وحقيقتى .. يتوقف .. امتلاء حياتى .. بالأمل ، والصفاء والسكينة .

« بقى بعد ذلك .. أن أحدثك عما أريد :

ـ « إنى أريد صداقتك .. أريد أن تحدثنى عن نفسك ، عن أيامك .. كيف تنقضى .. ادعنى معك إلى حجرة العمليات لأشاهدك ، وأنت تقف الساعات الطوال تتصبب عرقاً .

« أؤكد لك أنى لن أخاف .. فإنى أحب أن أشاركك كل أعمالك .. حتى المخيف منها .. لأنى أحس بطمأنينة إلى جوارك .

« ادعنى .. إن لم أضايقك .. إلى بعض نزهاتك .. إلى فنجان من الشاى فى النادى .. مثلا ، أو بضع ضربات فى ملعب الكروكيه .

« صف لى حياتك .. بدقائقها وتفاصيلها ، لا تخش التزيد أو الإطالة .. إن كان لديك من وقتك فسحة للتزيد والإطالة .

« وسأدعوك أنا .. إذا لم يزعجك هذا .. لتقضى معى ـ على الورق وبين السطور ـ بضع جولات على قمم الألب .. نتزلق على الجليد أو نتنزه على شاطئ البحيرة .. ستسرّك النزهة كثيراً ، وستسرّنى أكثر .

« سأحس فى كل نزهة أخرج إليها .. أنك قد قبلت دعوتى ، وخرجت معى ، وسأعدو فى نزهاتى فى فرحة وحماس . لأنى سأحس أنى سأنقل إليك كل ما فعلت لتعيش معى فيه .

« هل طلبت منك شيئاً كثيراً ؟..

« قد يبدو كثيراً لأنك لا تعرفنى ، ولأنك لا تعرف مدى ما تفعله صداقتك من أثر فى حياتى .

« ويبدو كثيراً أيضاً .. إذا ما قيس بهنيهات فراغك .. التى تتخلل كثرة مشاغلك وأعمالك .

« ولذلك — فسأوطن نفسي .. إن قبلت صداقتى .. على ألا أطلب منك هذا الكثير .. بل سأكتفى .. بأى شيء يمكن أن يسمح به وقتك .

« مرة أخرى .. إذا اقتنعت بى .. فلا تعتذر بوقت ، ولا تقل إنك لا تجيد الكتابة .

« إنى أريد منك أية كتابة ، وبأى أسلوب .

« وأريد منك أيضاً — إن لم تتهمنى بالطمع — إحدى صورك ، وأؤكد لك أنها ستكون أثمن منحة وهبتها فى حياتى » .

وصمت جاد الله ثم قذف إليه بالرسالة قائلا فى لهجة جاده آمرة :

— اكتب لها .. اكتب لها أى شيء .

وطوى مدحت الرسالة فى جيبه وهو يقول فى ضيق :

— فاضى أنا لمثل هذا العته .. أدعوها للشاى وتدعونى للانـزلاق على الجليد !!

ثم أطلق ضحكة ساخرة من أنفه وأردف :

— إنها لا شك مجنونة .. تصوّر أنى أكتب لإنسانة لم أرها فى حياتى .. أتوهم أنى دعوتها لتناول الشاى .. ماذا يمكن أن يكتب فى هذا ؟!

— يا أخى لا ضرورة لهذا .. اكتب لها أى شيء ، وأرسل لها صورة .

— أنا أرسل صورة ؟!

— إذا لم ترسل أنت سأرسل أنا .

— إياك أن تفعل !!

— أؤكد لك أنى سأفعل ، وسأكتب لها رسالة غرام طويلة عريضة ، وسأدعوها أيضاً إلى الجرسونيرة .

— جاد الله . هل جننت ؟!

— وباسمك ، وتوقيعك ، والعنوان على هذا الظرف .

واختطف جاد الله الظرف من على المكتب ، وصاح به مدحت :

— هات الظرف .

— ستكتب لها ..؟

— ومالك أنت .. وكلتك عن نفسها !

— اسمع .. لا داعى للرغى الكثير .. إما أن تكتب أنت أو أكتب أنا ، وأؤكد لك أنى على أتم الاستعداد للأخذ والعطا معها .. كما تريد ، وأنت تعرف أن لدىّ فراغاً ، لمثل هذه الأشياء .. ما رأيك ؟

ومدّ مدحت يده وأجاب فى حنق :

— هات الظرف ، سأكتب .

وناوله جاد الله الظرف وهو يقول :

— وعد ..؟

— قلت لك سأكتب .. جاك بلا .. أنت وهى ..

— على أية حال أرنى ردّها عندما يصل .. لأتأكد أنك كتبت .

وصاح مدحت فى دهشة :

— اسمع ، ألا تكون أنت صاحب الرسالة ، ولأجل هذا تهتم بردّى كل هذا الاهتمام ؟

— يا مدحت لا تكن سخيفاً .. أتتصور أنى أجلس لأكتب لك رسالة من هنا ، وأرسلها لفرنسا .. لكى تعود إليك حتى تكتب لها ردّاً ، لماذا ؟! أتكتب الدرر أم تنطق حكما .. يا أخى ، بعض العقل .

— لماذا إذن كل هذا الحماس ؟!

— لأن البنت غلبانة ، وصادقة ، ولأنك لن تخسر شيئاً ، سوى بضع كلمات بأسلوبك السخيف ، وصورة من صورك التى تبدو فيها « كالعربجية » .. أتظن هذا كثيراً ؟!

ـــ انتهينا .. سأكتب .

ووضع مدحت الرسالة فى جيبه ثم قال :

ـــ ولكنى لن أرسل صورة .

ـــ لماذا ؟

ـــ لأنى لا أمتلك صوراً .. إلا صورة قديمة وأنا بالبنطلون الشورت .

ـــ أرسلها . إنها ستكون أقل إرهاباً ، على الأقل ، شعرك ما زال برأسك ، وأنفك ...

ـــ يبدو أنك قد حننت إلى علق زمان .. إنى لم أضربك منذ أن صرت طبيباً .

ـــ اسمع إن لدىّ صورة لك .

ـــ أى صورة ؟!

ـــ التى صوّرناها سوياً لتحقيق الشخصية .

ـــ يا ساتر يارب . إنها كالمشبوهين .

ـــ لا تدعى أنك أجمل منها . أرسلها وتوكل .

ـــ لا . لا . سأبحث عن صورة أخرى .

ـــ ألست تريد أن تتخلص منها !! أرسلها إذن .. حتى تضيع آمالها فيك .

ـــ هات الصورة ، وذنبها على جنبها .

وفى المساء عندما خلا مدحت إلى نفسه فى حجرته ، وقف برهة يطل من النافذة على الأفق الذى تراقصت فيه الأضواء الباهتة ، ومد يده يعبث بالرسالة المطوية فى جيبه .

أحقاً ينوى أن يرد ؟!

ولِمَ لا !!

بضع كلمات يطوى معها الصورة ويرسلها فى الظرف ، ويريح ضميره .

ولكن أحقاً ، يحس بالمسألة كمجرد إراحة ضميره ، أم أنه يشعر ـــ ولو قليلا ـــ بالرغبة ، فى الرد ؟!

إنه على الأقل لا يضيق به .

وجلس مدحت ليقطع ورقة من إحدى الكراسات ويكتب بها :

« عزيزتى :

« هذه المرة لا أشعر بالشك بقدر ما أشعر بالحيرة .

« لقد نجحت فى إقناعى — إلى حد كبير — بحقيقتك .. ولكنك لم تستطيعى إقناعى بالجزء الثانى من المشكلة ..

« وهى ماذا تريدين ؟!

« أو .. من وجهة نظرى .. ماذا أستطيع أن أفعل لك ؟!

« أحدثك عن حياتى ؟

« لست أرى بها شيئاً يستحق الحديث .. لا تفاصيل أكثر من الحلقة المفرغة التى أعيش فيها بين حجرة العمليات وقاعة المحاضرات .

« وإن كان الوهم قد هيأ لك ، أن بى شيئاً ، وأن فى حياتى أحداثاً تستحق أن توصف وأن يحكى عنها ، فأنا أؤكد لك .. أنى خلو من كل هذا ، وأنى لا أجد فى نفسى أكثر من إنسان مجرد من كل ما يستحق الوصف والحديث ؟.

« وإذا كان بى شىء مما تظنين فأنا ، بلا جدال ، عاجز عن معرفته وبالتالى عن وصفه .

« أما عما تسألينى إياه .. من دعوة إلى الشاى .. أو إلى الكروكيه فأنا أقدمها على الرحب والسعة ، إذا هيأ الله لنا لقاء أما أن أقدمها لك على الورق وبين السطور .. فأؤكد لك أنى لا أعرف كيف أفعلها ، وأكره من نفسى أن أفعل أشياء مضحكة ، كأن أتوهم دعوتك ، ثم أخاطبك وأجيب عنك .

« وأنا بعد ، لم أعرفك ، ولما أستطيع مجرد تصوّرك .

« ألا تجديننى على حق ؟

« أرسل إليك مع رسالتى الصورة الوحيدة التى استطعت أن أعثر عليها مع صديق لى ، ولست أملك إلا أن أعتذر عنها ، وأن أرجو ألا تخيب أملك فىّ ،

وتجعلى رسالتك السابقة آخر رسالة إلىّ .

« أما إذا لم تفلح ، وإذا كنت تنوين أن تكتبى ثانية ، فأظن أن من حقى .. أن أعرف عنك شيئاً أكثر ، وأن أتوقع منك ردًّا على صورتى .. صورة منك » .

وأعاد مدحت تلاوة الرسالة ثم دفع بها فى الظرف ومعها الصورة ، وأخذ فى كتابة العنوان على الظرف ، وفى نفس الوقت كان هناك ظرفان آخران كتب عليهما نفس العنوان .. الأول يكتبه سليمان بعد أن ضم رسالة كتب بها أخبار الأسرة والخطيبة ، ونقل عصام إلى المجموعة المدرّعة وبدء موسم المناورات ، وأرفق بها صورة للخطيبة طلبتها منه نادية .

والثانى كتبه صبرى بعد أن ضم رسالته عن الحياة ، والأمل ، ومستقبل مصر ، والدستور ، والديمقراطية . وأخيراً أمنيته فى أن تعود نادية ، لتعيش بجواره فى الأحداث الضخام التى تمر بها مصر .

وفى الصباح ألقيت الرسائل الثلاث فى ثلاثة صناديق بريد .. لتجتمع كلها وتتخذ طريقها معاً إلى « جاب » .. كى تصل إلى نادية ذات صباح وهى تطل برأسها فى مكتب الكاتب العجوز ، فتجده يمنحها ابتسامة واسعة ويقول لها متهللا :

ـــ ثلاث .. مرة واحدة .

وتناولت نادية الرسائل وهى تحس برجفة سعادة وأخذت تفحص الرسائل بسرعة ، ثم تمسك بإحداها فى لهفة وتحس صلابة الصورة التى بها وتعدو إلى حجرتها وتغلق الباب ، ثم تجلس لتتحسس الرسالة مرة أخرى وتفتحها وتعيد قراءتها .. خمس مرات .. قبل أن تحاول فض الرسالتين الأخريين .

وفى البيت قذفت إلى أمها برسالة العم ، وإلى « منى » برسالة صبرى ، ثم انطلقت تصعد الدرج إلى حجرتها لتعيد قراءة الرسالة الثالثة مرة أخرى .

ولحقت بها « منى » صائحة :

ـــ بنت يا نادية .. أهذا كل ما وصلك ؟

وضحكت نادية وهى تجيب :

ــ أجل .

ــ كذابة .. الابتسامة التى فى عينيك تجزم بأن رسالة أخرى وصلتك !

وهزت نادية رأسها فرحة وأجابت :

ــ أجل .. وصلت .

ــ بمثل هذه السرعة ؟!

ــ أجل .. مع رسالة عمى ورسالة صبرى .

ــ أرينيها .

ــ ادخلى إلى الحجرة ، واقرئيها معى .

وقبل أن تقرأ « منى » الرسالة وقع نظرها على الصورة فصاحت ضاحكة :

ــ وأرسل صورة أيضاً .. ما شاء الله .. الظاهر أنك ستفعلين به وأنت فى « جاب » .. ما عجزت عن فعله ، وأنت على بعد خطوات منه فى منشية البكرى !

وعادت تنظر إلى صورته وهى تبتسم قائلة :

ــ عال .. عال ، وماله .. « مبوّز » هكذا .. كأن أحداً قد ضربه قلمين أو لعن أباه !

ــ منى .. اختشى ، وكفى قلة أدب .

ــ طبعاً .. ما دام قد رد عليك وأرسل لك صورة .. لك حق تدافعين عنه :

ثم عادت تحدق فى الصورة وتضحك قائلة :

ــ وماله حاجباه ثقيلان هكذا !! لا تنسى أن ترسلى له ملقاطاً يساويهما به .

ثم وضعت الصورة جانباً وأخذت فى تلاوة الرسالة ، وبدا عليها الاهتمام شيئاً فشيئاً ..

وعندما انتهت منها وضعتها جانباً وبدا عليها الشرود ، فسألتها نادية قائلة :

ــ مالك !. ألم تعجبك الرسالة ؟!

ـ بالعكس .. أعجبتنى جداً .

ـ إذن فيمَ شردت ؟

ـ شردت فى اللعبة التى تنزلقين إليها ببساطة .. لست أدرى ماذا تتوقعين نهايتها !

وبدا الشرود على نادية وأجابت :

ـ نهايتها ؟!

ـ أجل .. لا بد لنا من أن نتوقع لكل شىء نهاية .. بطريقة ما .

(تم الجزء الأول ويليه الجزء الثانى)

فهرست الجزء الأول

(تم الجزء الأول ويليه الجزء الثانى)

الأستاذ يوسف السباعى

- اثنا عشر رجلا
- اثنتا عشرة امرأة
- ست نساء وستة رجال
- السقا مات
- طريق العودة
- بين الأطلال
- لست وحدك
- جفت الدموع (الجزء الأول)
- جفت الدموع (الجزء الثانى)
- ليل له آخر (الجزء الأول)
- ليل له آخر (الجزء الثانى)
- هذه النفوس ـ هذه الحياة
- من العالم المجهول ـ خبايا الصدور
- ليالى ودموع ـ أطياف
- نفحة من الإيمان ـ صور طبق الأصل
- ليلة خمر ـ من حياتى
- مبكى العشاق ـ فى موكب الهوى
- سمار الليالى
- هذا هو الحب

ــ طائر بين المحيطين

ــ من وراء الغيم

ــ ابتسامة على شفتيه

ــ أغنيــات ــ الشيخ زعرب

ــ بين أبو الريش وجنينة ناميش ــ يا أمة ضحكت

ــ نائب عزرائيل ــ البحث عن جسد

ــ وراء الستار ــ أقوى من الزمن

ــ أم رتيبة ــ جمعية قتل الزوجات

ــ ناديــة (الجز الأول)

ــ ناديــة (الجزء الثانى)

ــ رد قلبى (الجزء الأول)

ــ رد قلبى (الجزء الثانى)

ــ نحن لا نزرع الشوك (الجزء الأول)

ــ نحن لا نزرع الشوك (الجزء الثانى)

ــ إنى راحلة

ــ أرض النفاق

ــ فديتك يا ليلى

رقم الإيداع ٤٠٦٨ / ٨٧

الترقيم الدولى ٣ ــ ٠٣١١ ــ ١١ ــ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه